

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس _ مستغانم _
كلية الآداب والفنون قسم اللغة
العربية وآدابها

بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في مشروع
النقد الأدبيّ والفنيّ موسوم بـ:

الكتابة الاعترافية في الأدب العربي الحديث دراسة لبعض النماذج

إعداد: **تحت**
إشراف: **الدكتور محمد**
بن دادة عبد الحكيم
قادة

لجنة المناقشة:

- الدكتور محمد عبّاسة
(جامعة مستغانم): رئيسا
- الدكتور محمد قادة - أستاذ محاضر أ (جامعة
مستغانم): مشرفا و مقررا
- الدكتور محمد دكار - أستاذ محاضر أ (جامعة
تلمسان): عضوا مناقشا
- الدكتور صدار نور الدين - أستاذ محاضر أ (جامعة
معسكر): عضوا مناقشا
- الدكتور عمار كحلي - أستاذ محاضر أ (جامعة
مستغانم): عضوا مناقشا

السنة الجامعية 1431هـ/1432هـ - 2010م - 2011م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



إهداء

إلى ربيع الأنبياء وسيد الرسل الأصفياء
إلى روح المصطفى صلى الله عليه و
...سلم

إلى زوجة الطاهرة خديجة أم المؤمنين
وسيدة نساء العالمين رضي
...الله عنها

كلمة شكر

- لله الحمد و الشُّكر على ما وهب من المنن و أسدى من النِّعم الظاهرة و الباطنة فله سبق الفضل على مَنْ خَلَقَ تكريماً منه دون سؤل من خلقه في الأزل فهو الأول و الآخر و الواحد الماجد .
- عرفانا مئّي بجميل الخلق الرفيع و التواضع الجمّ و القلب المعطاء و التوجيه العلمي السديد للأستاذ الفاضل الدكتور محمد قادة أتوجه إليه بجزيل الشكر و أسمى معاني التقدير .
- كما أتقدم بالشُّكر أيضاً للهيئة العلمية التي أشرفت على هذا البحث مناقشة و توجيهها و مناصحة علمية . و لجميع الأساتذة المؤطرين لمشروع الماجستير "النقد الأدبي والفني" بقسم اللغة العربية بجامعة مستغانم .
- أتوجه أيضاً بجميل العرفان و أسمى معاني التقدير لكل من الأساتذة: الدكتور بنكراد سعيد و الدكتور فيدوح عبد القادر و الدكتور صدار نور الدين على توجيهاتهم القيّمة و المصادر النافعة التي مكنوني من الحصول عليها و الاستفادة منها في هذا البحث .
- لا يفوتني أيضاً أن أتقدّم بخالص الشُّكر و الدّعاء لعمال المكتبات و مراكز البحث في جامعة مستغانم و معسكر و هران و الرباط و مكناس و الدار البيضاء بالمغرب و المركز الثقافي السعودي بالمغرب و كذا الصديق بن تاج أحمد الذي جلب لي مراجع باللغة الفرنسية غير متوفرة في بلادنا هدية منه بقلب سمح .

- الشكر كلَّ الشُّكر لجميع الأصدقاء و الإخوة و الزملاء الذين حفّزوني على العمل و الجهد و التنقيب لإنجاز هذا البحث .

تمثّل الكتابة الاعترافية منجزاً أدبياً مهماً لدى مختلف الثقافات و الشعوب، لأنها تتبع من صميم الذات و تتعبر من الإحساس العميق بجذلية الذات مع ملابسات الحياة و معطيات التاريخ، فطبيعة البشر تجنح لتتوين التجارب الشخصية و الخبرات الحياتية كما أن الكتابة الاعترافية تتميز بطابعها الحميمي من خلال عملية البوح و المكاشفة للخبايا النفسية التي يتعاطاها الكاتب مع المتلقي .

لقد اكتسحت الكتابة الاعترافية مجالات رحبة في المشهد الثقافي العربي سواء على مستوى الكتابة الإبداعية أم على مستوى التلقي حيث تحظى بمكانة مرموقة لدى القراء بمختلف شرائحهم الاجتماعية و الفكرية وكذا مستوى خرق الحدود الاجناسية حيث تتردد أنفاسها في مختلف الأعمال الفنية ، فهي تارة في الرسائل و تارة في السيرة الذاتية و تارة في اليوميات و أخرى أدب الرحلات و مع ذلك لم يتموضع اصطلاحياً و لم يحظ جهازه المفاهيمي بهيكله دقيقة .

إن هذا البحث الموسوم بـ « الكتابة الاعترافية في الأدب

العربي الحديث » دراسة لبعض النماذج « يروم الإجابة على جملة من الإشكالات و إثارة أخرى، يأتي في سلم أولوياتها - منهجياً - محاولة إيجاد تعريف يحدد ملامح و خصائص هذا الجنس الأدبي ، فما هي الكتابة الاعترافية أو " الأدب الاعترافي " بداية ؟

إلى أي مدى ترتبط الكتابة الاعترافية بالحس التاريخي لدى الشعوب و هل حظوظ الشعوب متفاوتة من هذا الحس و بالتالي هو مؤشر على غزارة النتاجات الأدبية الاعترافية أو ضحالتها أو غيابها لدى شعوب أخرى ؟

هل ثقافة الاعتراف مغيبية حقيقة من حاضرنا و ماضينا بفعل قهري و إكراهات سياسية و دينية و أخلاقية ؟

هل حقيقة - كما يرى بعض الدارسين - أن الكتابة الاعترافية لا وجود لها في تراثنا العربي القديم و أنها فن غربي تم استيراده على شاكلة بقية المستهلكات بحكم التردّي الحضاري الذي يشهده و اقننا العربي المعاصر على كثير من الأصعدة الحياتية أم هي فن له جذوره الممتدة و قدمه الراسخة في المشهد الأدبي و الفكري الإبداعي التراثي ؟ هل حقيقة أن حضور هذا النوع من الأدب في حياتنا مرجأ إلى إشعار آخر بحكم موضوعاته المتعلقة بالدين و السياسة و الجنس ؟

هل الحديث عن الدين و السياسة و الجنس " طابوهات " تم وضعها تحت المقصلة و أمام أعين الضمير الجمعي العربي و بالتالي هي عناصر مغيبية بشكل مطلق من ذهنية الكاتب العربي ، مهما كان وضعه في السلم الاجتماعي ؟ هل بالضرورة أن النتاج الأدبي و الفني للمبدع العربي لا يرتقي إلى وسامية " الكتابة الاعترافية " إلا إذا تم الاجتهاد في بلورته و تفصيله على مقاسات ما كتب " القديس أوغسطين " و " جون جاك روسو " و " فردريك نيتشه " و " شارل بودلير " و غيرهم من رموز و أعلام الفكر الغربي في اعترافاتهم ؟ ما هي الفضاءات التي نالت حيزاً كبيراً في الكتابات الاعترافية و ما هي أبعادها الإنسانية المتنوعة ؟ ما هي البواعث الحقيقية الواعية القصصية و غير القصصية للكتابة الاعترافية ؟

ما هو موقف المنظومة السياسية و الاجتماعية و الدينية من الكتابة الاعترافية ؟ هل من الضروري أن تكون الكتابة الاعترافية في الثقافة العربية نسخة مطابقة للكتابات الاعترافية الغربية ، أين مكن الالتباس ، وكيف يمكن تصحيح المفاهيم

و توجيه مسار الكتابة نحو الخلق و الإبداع دون الوقوع في فخ التقليد والاستنساخ المنافي لسياقاتنا الثقافية و مرجعياتنا الحضارية ؟

لقد شكّلت الكتابة الاعترافية هاجسا موضوعيا حفزني على البحث، رغم ما يحقّه من مخاطر، فهو جنس أدبي حديث النشأة لا يملك من العراقة والتأصيل ما تملكه أجناس أدبية أخرى لها الحضور القوي و المتميز في مجال الدراسات النقدية .

أما الدّراسات التي تعرّضت للكتابة الاعترافية فهي محصورة كمّا ، لا تكاد تسمع لها همسا ، نذكر منها: " اعترافات أديبنا في سيرهم الذاتية " لعلي عبده بركات و " اعترافات الغزالي " للدكتور عبد الدايم أبو العطا البقري ، و " السيرة الذاتية في الأدب العربي " لتهاني عبد الفتاح شاكور حيث تناولت الكاتبة سيرة فدوى طوقان باعتبارها تمثل نموذجا "لأدب الاعتراف عند المرأة العربية "و كذلك "أدب السيرة الذاتية " للدكتور عبد العزيز شرف حيث خصّص فصلا للسيرة الذاتية و الأدب الاعترافي ، و خارج نطاق السيرة الذاتية لا نكاد نعرث على دراسة تتناول الكتابة الاعترافية عبر تمظهراتها في النصوص الإبداعية المتنوعة .

كما دفعني إلى البحث في هذا الموضوع ما يردّه الكثير من الدارسين في كون "الأدب الاعترافي " أو " الكتابة الاعترافية" لا وجود لها في أدبنا العربي قديمه أو حديثه ، و مثل هذه المقولات و الأحكام، تحتاج إلى وقفة متأنية تعيد النّظر في طبيعة الأسس التي تحاكم إليها الدارسون في استخلاص هذه الآراء و تقرير هذه الأحكام التي قد تتجاوز الحكم النقدي الإبداعي إلى خلفيات لها دلالاتها النفسية، يضاف إلى هذا كله، كون الكتابة الاعترافية لم تتل في إطار البحث الجامعي في الجزائر أسهما من الأهمية التي نالتها أجناس أدبية أخرى، مثل الشعر و الرواية حيث تقلبت بين مختلف المناهج النقدية بحثا و دراسة و عناية .

ارتأيت أن تنتظم لبنات المعمار المنهجي لهذا البحث في ثلاثة فصول ينضوي تحت كل فصل منها مبحثان مهدت لهما بمقدمة ضمّنتها حديثا عن المحاور العامة للبحث و أهم الإشكاليات التي سيتولى الإجابة عليها ثمّ الأسباب الكامنة وراء اختيار هذا الموضوع .

تناولت في الفصل الأول الكتابة الاعترافية في الأدب العربي فجعلت من المبحث الأول منه مهادا لإثارة الإشكال المصطلحي أملا في الوصول إلى تحديد ماهية الكتابة الاعترافية أو ما يصطلح عليه البعض بالأدب الاعترافي ثمّ ربطت بين الكتابة الاعترافية وبين الحسّ التاريخي لدى الشعوب ثمّ قدّمت فكرة تاريخية عن أصول الكتابة الاعترافية و روافدها في الأدب العربي .أما المبحث الثاني فتعرضت فيه لمختلف الفضاءات التي شغلت مساحات كبرى من الأدب الاعترافي، كالفضاء الإنساني و الروحي و السياسي . أما الفصل الثّاني فتناولت فيه الحديث عن بواعث الكتابة الاعترافية و أهمّ الأشكال التي تمظهرت فيها ففي المبحث الأول تعرضت للبواعث و الدوافع الواعية القصصية و غير الواعية المتعددة للكتابة الاعترافية، النفسية منها و الاجتماعية و السياسية. أما المبحث الثاني فتعرضت فيه لتمظهرات الكتابة الاعترافية أي أهمّ الأشكال التي جعل منها بعض الكتاب و عاء لتجاربهم الاعترافية كالسيرة الذاتية و الرواية . أما الفصل الثالث فقد حوى رسدا لرؤية الأخر للكتابة الاعترافية و ذلك ضمن مبحثين اثنتين، المبحث الأوّل يبسط النقاش حول موقف المنظومة السياسية و الاجتماعية و الدينية من الكتابة الإعرافية، ثمّ في المبحث الثاني بيّنت فيه خصائص الكتابات الاعترافية الناجحة و سرّ هذا النّجاح ضمن خصوصياتها الفنيّة و أبعادها الإنسانية و أخيرا قدّمت فكرة عن الفرق بين الكتابة الاعترافية من المنظور الغربي و المنظور العربي مع بيان الحدّ الفاصل بين الكتابة الاعترافية و حقل الفضيحة ثمّ كان مآل هذه الدراسة خاتمة سردت فيها أهمّ النتائج التي تمّ التوصل إليها .

تمّ الاستناد في هذه الدراسة على مدوّنة اعترافية متنوّعة الأشكال و المضامين، حاولت أن أحقق فيها مبدأ الشمولية و التوّع من منطلقات متعددة، فمن منطلق الامتداد التاريخي للكتابة الاعترافية اعتمدت على بعض المصادر الثّرائية منها : "المنقذ من الضلال - لأبي حامد الغزالي و"الاعتبار" - لأسامة بن منقذ و " رسالة الصداقة و الصديق " لأبي حيان التّوحيدي و " طوق الحمامة " لأبن حزم الأندلسي، و"التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا" لابن خلدون و غيرها من كتب الثّرات التي شكّلت الإرهاصات الأولى للكتابة الاعترافية في أدبنا العربي و من منطلق الأطر الجغرافية اخترت نصوصا لأدباء من المشرق و من المغرب، كالجزائر و المغرب و مصر و العراق و سوريا و فلسطين و السعودية كما اخترت نصوصا ذكورية و أخرى نسوية يتقاسمها كتاب من مختلف الأعمار، شباب كهول و شبوخ أما عن المادة الاعترافية فتتوّعت بين الفضاء الإنساني الرّوحي و الاجتماعي و السياسي و أما عن القوالب و الأوعية الفنيّة فتراوحت بين اليوميّات و السّير الذاتية و الرّواية .

إنّ محاولة البحث عن الإجابات الموضوعية المقنعة لهذه الإشكالات هو المبتغى من انجاز هذا البحث و تدوين هذه السطور ،حادينا في التّناول و الدراسة هو منهج مركب بين المنهج الاستقرائي الذي لا يعتمد على المعطيات الثقافية كمسلمات غير قابلة للتّحليل و التّفاش و لا يتموقع في خندق فكري محدد ينتصر لرأي معين بل يبسط النصوص بسطا أفقيا للدراسة و التّحليل و الاستقراء و الكشف عن مضامين و فضاءات الكاتبة الاعترافية ثمّ المنهج الفنيّ الجمالي الذي يقف على عصاره المحمولات الجمالية التي تتفجر من النصوص المدروسة ،و هذا المزج المنهجي فرضته طبيعة الموضوع و طبيعة النصوص المعالجة التي لا تنتمي إلى فصيلة جمالية واحدة متجانسة تبعاً لشرائح كتابها و مستوى أدائهم الإبداعي و الفني وإن كانوا جميعا يشتركون في التجربة الاعترافية الخصبة و الغنية ذات الأبعاد الإنسانية المتعددة، إنّ هذه الدراسة تعتمد في أول ما تعتمد على استقراء و استتطاق ما كتب في تراثنا القديم و المعاصر من نصوص لها عميق الصلة

بالموضوع المبسوط للنقاش ثم مساءلة الواقع بمختلف تشعباته بعيدا عن الأحكام المسبقة التي قد تكون نتاج تعصب لقناعات راسخة، بحكم تراكمات التنشئة و الانتماء الحضاري تارة أو وليدة انبهارات فكرية ووجدانية - شعورية أو لا شعورية - من المنجز الغربي بترسانته الفكرية سواء في المجالات التكنولوجية أم في مختلف الحقول الفكرية و الفنية . فإن وفقت في بلوغ مرحلة الإقناع واستكناه الحقيقة التي تطمئن إليها النفس ويستريح لها العقل فذاك المبتغى و الأمل المنشود و إلا فهي محاولة صوت، ينضم إلى صوت القافلة التي تكرر ثقافة الأسئلة و تعتمد إلى إثارة الإشكالات الايجابية المثمرة و لعلها تستكمل بمزيد من البحث و المساءلة و التثاقف و أملي أن أفيد من ملاحظات أساتذتي الكرام، ضمن الهيئة العلمية التي تشرف على مناقشة هذا البحث .

أما عن الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث فمن دون شك الإشكال المصطلحي بحيث تتضارب الآراء في تحديد ماهية الكتابة الاعترافية ، فهناك من الدارسين من يفضل عدم الخوض في هذه الإشكالية أصلا، ناهيك عن الآراء المتناقضة بين الدارسين في فهم و تلقي هذا المصطلح فبين دُعاة إثبات هذا الصنف من الكتابة في الأدب العربي و بين نُفاته قديما و حديثا .

أود أن أوجه جزيل شكري و عظيم امتناني للجنة العلمية الموقرة التي قبلت مناقشة هذا البحث كما أقدم خالص العرفان و التقدير إلى الأستاذ الدكتور محمد قادة الذي تبنى هذا البحث إشرافا و توجيهها و رعاية ، بتواضع جم و قلب معطاء و خلق رفيع، كما أقدم أسمى معاني التوقير و المودة إلى كل من الأستاذ الدكتور: بنكراد سعيد ، و الأستاذ الدكتور عبد القادر فيدوح و الأستاذ الدكتور صدار نور الدين الذين منحوني من وقتهم الثمين و توجيهاتهم القيّمة الحادية إلى الصواب كما زودوني . بمراجع كثيرة ساعدتني على انجاز هذا البحث .

. و على الله القصد و هو المستعان

مستغانم - الاثنين 15 شعبان 1431هـ / الموافق 26 جويلية 2010 م

الكتابة الاعترافية في الأدب العربي تتجه إلى باحة البحث الأكاديمي بخطى ونيّدة، منقطة بجملة من الإشكالات العالقة، منها إشكال التداخل الأجناسي فهي تتماس مع خطابات متعددة، وأجناس كثيرة كالسيرة الذاتية و اليوميات و المذكرات و أدب الرحلات و يضاف إلى هذا إشكالية التوصيف و التحديد للخصائص الكتابية التي تميزها عن غيرها من الكتابات و منها أيضا اعتبار هذا النوع من الكتابة "الانتمية للكتابة الإبداعية" فهي لا تزال في الأرفف الأخيرة من اهتمامات الدارسين، بناء على نظرة دونية تجعلها خارج حضيرة النصوص الإبداعية، لأنها لم تبلغ مرحلة النضج الجمالي و الفني الذي يؤهلها كي تبسط أمام مشرحة الدراسات النقدية أو أن تكون موضوعا لها، هناك اعتبار آخر ينفي وجود كتابات اعترافية أصلا في الأدب العربي و إن كانت أقرب إلى التجارب السيرة الذاتية، لكنها لم تصل بعد إلى مستوى الكتابة الاعترافية التي تتطلب شروطا أساسية، تنصدها القدرة على البوح و مكاشفة الذات و تعريتها، بصرف النظر عن العوائق و الإكراهات الاجتماعية و السياسية و غيرها التي يمارسها الأخر على الذات الكاتبة و نظرا لطبيعة المسالك المتشعبة لهذا البحث بدالي الإشارة إلى بعض الأسس و المنطلقات التي لا بد منها ضمن هذا المدخل الذي يحدد معالم البحث و أطره الكلية و المساحات التي يشتغل فيها .

بداية ينبغي أن لا نغفل حقيقة واقعية نابعة من طبيعة المشهد النقدي العربي مؤداها أن الكتابة الاعترافية أو " أدب الاعترافات " جنس أدبي ملتبس ، لم يحظ بعد بدراسات و بحوث أكاديمية تضبط جهازه المفاهيمي و تمنحه تعريفا بيّن القسّمات و اضح المعالم و لعل هذا الانجاز الطموح مرهون برهانات مستقبلية، تخضع لعاملين اثنين، عامل الزمن و الصيرورة التاريخية لمنجز المتابعات النقدية من ناحية و حجم النتاجات الإبداعية الاعترافية من ناحية أخرى .

الكتابة الاعترافية تنتمي فنيا إلى العائلة السردية ، فالفعل السردى بتقنياته المتنوعة وسيلة لأخراج " تجربة الأنا " أي التجربة الذاتية الفردانية في رحلتها من دهاليز المخبوءات المظلمة و من العذابات و العزلة و الانطواء إلى عالم الأخر بوجه جديد محمل بالكثير من الإثارة و الروح الاستكشافية للعوالم المتعددة الأبعاد و عليه

¹ «فالسرد في حقيقته هو « تفكير بالأصابع ، فما تخطه الأصابع يترجم عن وضعيات محمّلة بانفعالات من كل الألوان تترصد الكتابة الاعترافية ما يتعلق بالذات فالمجال الذي تتشكل فيه الأحداث هو مجال الكتابة عن الذات التي لها مقصديتها و مرجعياتها الاجتماعية و النفسية و الروحية و الأخلاقية ، ضمن منطق انتقائي ذاتي صرف بمعنى أن الكاتب و هو يسرد وقائع و أحداث لا يحكى أي شيء و لا كل شيء وإنما يسرد ما يراه ذا أهمية من منظوراته الحكائية الخاصة التي قد تلقى مع قناعات المتلقي و اهتماماته و قد لا تتقاسم معها هذا الاهتمام .

المتن الاعترافي متن لا يخلو من مستويات ، مستوى تاريخي فردي تركز عليه الكتابة بيد أنه ينزاح بين الفينة و الأخرى للحديث عن الأخر فالذات و هي تمارس البوح و المكاشفة تقدّم ضمنا اعترافات أيضا عن الأخر، و هو و هو يؤن تحت وطأة الإكراهات السياسية و الاجتماعية، فالإنسان كائن اجتماعي يحقق وجوده من خلال الاحتكاك و التفاعل مع الأخر، ضمن شبكة اجتماعية و نفسية معقدة و مترامية الأطراف .

يمكن اعتبار الكتابة الاعترافية كتابة خارج المنهج، فهي لا تهادن الواقع و لا تخضع لرقابته و سلطته إنها تسعى للانفلات من الرقابة المؤسسية و الاجتماعية القيمية و الذاتية أيضا ، فهناك كتاب أمضوا عقدا مع القارئ بغية البوح القصدي الواعي لقضايا اهتمّهم شخصا، كما كانت هاجسا لجيل بأكمله فجاءت اعترافاتهم تسجيلا يظهر فيه الاكتراث الواعي للتجربة الكتابية و أبعادها المتباينة على مستوى التلقي الواعي .

وردت كلمة " اعترافات " أو " اعترافاتي " ضمن فصل من فصول بعض السير الذاتية " كما هو الشأن بالنسبة للعقاد في سيرته الذاتية " أنا " بيد أنها تتحى باتجاه اعتراف شاذ لا نكاد نجد له نظيرا في " أدب الاعترافات " سواء في الأدب العربي أو آداب أمم أخرى فهي تتحى باتجاه تمجيد الذات إذ أن كتابها يقدمون أنفسهم عبر الكتابة عن ذواتهم في صورة هي

أقرب إلى النموذج النبوي الذي عُصم من كل الهفوات والأخطاء والزلات و انتهى إلى أرقى ما يمكن أن تصل إليه الكمال البشرية .

تتمظهر الكتابة الاعترافية في صور شتى و تتردد أنفاسها في نصوص إبداعية متعددة فقد تبدو من خلال السيرة الذاتية و قد ترتدي ثوب اليوميات أو المذكرات بل أحيانا نلمس ديبها في الأعمال الروائية ، فقد اعترف الكثير من الكُتاب أنهم

هم الأبطال في أعمالهم الروائية و أن المادة الخام لمنجزاتهم السردية هي حياتهم الخاصة و أن الشخصيات الثانوية هي محيطهم الأسري و الاجتماعي والمهني ليس إلا . مع رتوشات بسيطة من عالم الخيال المبدع

يفترض في الكتابة الاعترافية تدوين الحقائق المتعلقة بالذات بكل صدق، غير أن مفهوم الحقيقة يبقى دائما نسبيا ،ذلك أنّ حيز المتخيل الذاتي في العمل الاعترافي هو الآخر جزء من حقائق الذات و قد تفرز الكتابة الاعترافية " الكتابة المضادة " و تعني بها ردّ فعل ينقض لبنات العمل الاعترافي من الأساس ، كما حدث للكاتب "لويس عوض" مع شقيقه رمسيس عوض الذي رأى في كتاب أخيه لويس "سنوات التكوين " مجانية صارخة للصواب و الحقيقة ، كما حدث أيضا في كتاب "حياة كفاح " لتوفيق المدني حيث برزت كتابة مضادة تصنف كتاب " توفيق المدني " في خانة التحريف و التزييف و مع نجيب محفوظ في كتابه الذي ضمّ اعترافات أشرف عليها صديقه الدكتور رجاء النقاش الذي هو وجه ، من أبرز الوجوه النقدية البارزة في الساحة الأدبية العربية .

الكتابة الاعترافية لون من ألوان الكتابة يروم إثبات الوجود ففعل الكاتبة في حد ذاته بشكل وسيطا من الوسائط المتعددة لإثبات الذات و معاناتها و صدامها مع الآخر ، كأن الكتابة محاولة لترميم معمار ما لم يتح تجسيده على أرضية الواقع ، كما أن الكتابة الاعترافية فضاء فسيح لتجربة إنسانية خصبة لها جذورها في الواقع بمختلف تشعباته الاجتماعية و النفسية و الأخلاقية و الدينية فمن الكتاب من جعل محور كتابته الاعترافية مرحلة الطفولة و ما طوقها من حرمان و مأسى و هناك من عبر عن مرارة الغربة و الهجرة السرية في دول أوروبا و هو اجس الخوف و الدُعر التي انتابتهم أمام شرطة الحدود في المطارات و محطات المطرو و وكذا الأعمال الشاقة التي مارسوها في الورشات ، و هناك من بسط الاعتراف عن أجواء الاعتقال و مكابدة السجن و أشكال الإهانة المادية و المعنوية في ظل الأنظمة الاستبدادية التي تمارس القهر و الاضطهاد ضدّ حرية الرأي و حرية الكلمة و الإبداع ، كما عبّر كُتاب آخرون عن الرّحلات الروحية و عن المحطات التي استوقفهم بحثا عن الحقيقة ، وكيف تفرّقت بهم السبل في تيه روحي رهيب و ارتحلت ذواتهم من ملة إلى أخرى، من عقيدة إلى عقيدة ممارسة لطقوس تعبدية متعددة بحثا عن ملاذ آمن و سكونية روحية تبدد أجواء القلق و تعيد للروح توازنها و انسجامها و ثمة صنف آخر و صف معاناة

المرض و ما يصاحبه من ألم جسدية مبرحة لا تهدأ ليل نهار ثم كيف تبلغ هذه الألام ذروتها ، حين يطلّ الكاتب الاعترافي على عتبات الموت و يبدأ في ملاحظة العدّ التنازلي لمشهد الرّحيل خطوة خطوة ، و الانسحاب من الحياة في صمت . و لعل هذا الصنف من الكتابات هو من أصدق و أخصب الكتابات التي تضع بين يدي الدارسين سواء في حقل النقد الأدبي أم في حقول معرفية أخرى نفسية أو اجتماعية مادة خصبة تمنحنا جملة من الوسائل التي تتيح الاقتراب من حقيقة الإنسان ، و التمكن من فهم عوالمه الداخلية المترامية الأطراف .

لا ترتبط أن الكتابة الاعترافية بسنّ محدد من عمر الإنسان كما أنها غير خاضعة لتسلسل زمني ، يبدأ بمرحلة الطفولة فالشباب فالكهولة و هكذا وفق الزمن الطبيعي التي تنتظم ضمن سننه الأحداث ، بل تتأسس الكتابة الاعترافية على

سرد تجارب ما ، بقصدية ذات أبعاد نفسية و اجتماعية و روحية و إبداعية و غيرها كما أنّها تتأسس انطلاقا من وعي ذاتي عماده التجربة المعاشة بكل تفاصيلها الجوانية و دقائقها الاستبطانية و من هنا وجدنا أنّ بعض الكتابات لا تكتفي إلا ببعض المحطات التي لها وزن خاص في حياة الكاتب ، كما أن عملية الكتابة في حدّ ذاتها غير مرتبة بسن و لا بجنس معين ، حيث نصادف عبر المتون الاعترافية التي استندت عليها الدراسة كُتابا من شرائح اجتماعية مختلفة و من أعمار متباينة شباب في مقتبل العمر أو شيوخ أو كهول أو نساء ، كل يسجل اعترافات لمرحلة أو لتجربة ما مختلفة .

تركزت بصماتها العميقة في حياته و وجدانه . أعطى الاحتكاك بالثقافة الغربية دفعا كبيرا للكتابة الاعترافية فالنقلة النوعية التي عرفها الفكر الإنساني، من خلال الوعي بالتاريخ الذي انتقل من مركزية الاعتداد بالماضي و التأسيس عليه و تمجيده و اعتباره قيمة في حد ذاته سواء من الناحية القيمة الفكرية و الفلسفية أم من الفئبة الجمالية إلى الإمساك بزمام الحاضر الذي تتفاعل معه الذات الإنسانية و اعتباره محور العملية الإبداعية، و لا شك أنه في خضم هذه الفهوم و التحوّلات وفي ظل مناخ الحرية الذي بدت ملامحه للوجود برزت النزعة الفردانية التي جعلت من الذات محورا لأي عمل إبداعي و فني بما في ذلك الكتابة الاعترافية .

ترتبط الكتابة الاعترافية على تباين بواعث كتابتها و تعدد المشارب العلمية و التوجهات الفلسفية و الفكرية لأصحابها بمحتوى إيدولوجي معين « فالتعرّف إلى الذات و التعريف بها، مشروع لا يمكنه أن يفصل مطلقا عن معالجة القضايا الإيديولوجية المهيمنة على البيئة ، التي تحتضن الذات و تغذيها ، إذ لا معنى للكيان الفردي أصلا خارج علاقات التفاعل الممكنة و الكائنة بينه و بين العالم الخارجي ، الذي فيه ينشد تحقيق آماله و طموحاته ، و منه يستمد العديد من مقوماته و سماته الفردية »² فالكتابة الاعترافية على الرغم من كونها كتابة عن الذات التي تروم إثبات الوجود و تأكيد

الهوية، بكل خصوصياتها إلا أنها تتحى بفعل عناصرها ومكوناتها الإيديولوجية إلى بناء الكيان الجمعي بناء عقلانيا سليما يستند إلى أسس الديمقراطية و حرية الرأي و التفكير و تشييد صرح العدالة الاجتماعية سواء عند المفكرين و المثقفين اليساريين أو الليبراليين أو رموز النظرية الثالثة التي توثت لعالم جديد تحكمه ضوابط إسلامية تستند إلى الوحيين الشريفيين و من هنا شكلت الكتابة الاعترافية سواء في الأدب العربي أو الأدب الغربي - كما سيتضح من خلال النماذج المدروسة - رؤيا متميزة لمشروع نهضوي تبنته أجيال في سياقات حضارية محددة حيث حمل لواءها مجموعة من الأدباء و المفكرين في الغرب أمثال "جون جاك روسو" و في الأدب العربي " طه حسين في " أيامه " ثم سار على هذا النسق جمهرة غفيرة من الكتاب في الأدب العربي الحديث .

تنزاح الكتابة الاعترافية نحو البوح و المكاشفة و تعرية الذات و هي تقدم الإنسان بكل الركام العاطفي و النفسي و التناقضات الناتجة عن جدل الذات بالواقع و هذا ما ينأى بها عن الأنموذج التمجيدي الذي يجعلها بعيدة عن الطرح الموضوعي لذلك نحاقت هذه الدراسة النموذج التمجيدي الذي لا يخلو من تفضيم الذات و تعظيمها دون مبررات موضوعية تفقدها دء الحميمية الذي هو الخيط الأساسي بين الذات الكاتبة و المتلقي .

ترتبط الكتابة الاعترافية بمستوى سقف الحرية المتاح في المجتمع فالكثير من الكتابات الاعترافية ظلت ردا من الزمن في الدرج المغلق للمبدعين، ترقبا لزمان نشرها أمام الإكراهات السياسية و في هذا السياق يمكن أن نلاحظ الكم الضخم من الكتابات الاعترافية التي ظهرت بعد زوال الحكم الناصري في مصر و بعد أحداث أكتوبر في الجزائر و بعد اعتلاء محمد السادس العرش الملكي بالمغرب فقد تحولت الكتابات الاعترافية على تنوع الأشكال الفنية التي تقمصتها إلى محاولات لترميم الذات الممزقة التي نيل من كرامتها و إنسانيتها من ناحية و إلى محاكمة تاريخية لمرآة سياسية مارست الاضطهاد و غيبت حرية الكلمة و الرأي من ناحية ثانية ، كما أن كتابات أخرى تقلنت من وراء القضب و نشرت خارج بلدانها الأصلية و كأنها وثائق سرية، ولم تعد إلى موطنها الأصلي إلا بعد عقود من الزمن، مع عودة هامش الحرية للساحة السياسية و الفكرية و الإبداعية .

الكتابة الاعترافية تعبير صادق و حاد عن مجموعة من التجارب التي عرفتها الذات الساردة، إذ يجنح بعض الكتاب نحو الصدام مع الواقع كما تسعى بعض الكتابات الأخرى للتصالح مع الذات و التصالح مع الواقع و البحث عن وسائل و إمكانات تحقق التوازن بين الذات و الواقع بعيدا عن العيبية أو شهوة الانتقام و التشفي في الآخر، سواء كان هذا الآخر، ذات عينية أو مؤسسية أو شبكة من النظم السياسية و الاجتماعية و الأخلاقية ، فهي في جدل مستمر بين نقض بعض البيدييات الاجتماعية و محاولة تأسيس واقع جديد و قد ساهمت وسائل الإعلام و بشكل خاص الفضائيات كل الإسهام في إعطاء دفع قوي و سند ركين للكتابة الاعترافية بأن باتت تطرح قضايا مسكوت عنها و قد لاحظنا هذا الزلزال القيمي و آثاره في إحداث تغيرات جذرية في الجراة على تناول بعض القضايا في أشد المجتمعات تحفظا و تمسكا بالأعراف و التقاليد و ليس أدل على ذلك مما حدث في الدول الخليجية منذ العقد الأول من هذا القرن .

قد تكون التجربة الاعترافية المعاشة متوازية مع زمن الكتابة و قد يعمد المؤلف إلى الاسترجاع الداخلي للأحداث المروية التي اختزلتها الذاكرة و التي أصبحت جزء من الذات الساردة ، و بين زمن الكتابة و بين زمن الحدث مسافة شاسعة فالمادة المسرودة تحكى بذات مزدوجة ذات الطفل و ذات السارد في سن الأربعين، ذات الشاب و الذات الساردة في سن الخمسين، ذات المعتقل السياسي في سن الأربعين و الذات الساردة في سن الشيخوخة و هي تتعم في أجواء الحرية و تأخذ من نسائها الندية و هذا من شأنه أن يشكل مناخا إبداعيا متميزا تتلخ فيه تجارب العمر من طفولة و شباب و كهولة لتثمر ذات منسجمة ، سوية، بصيرة بحاضرها و ماضيها و مستقبلها ، تتلمس طريقها للتصالح مع الآخر و تمكينه من الاقتراب منها و فهم عوالمها ترسيخا لثقافة الحوار و الانسجام و التقاهم و بعيدا عن مناخ الصدام الذي يفضي إلى المآسي و دركات الشقاء .

الكتابة الاعترافية في الأدب العربي الحديث ليست كتابة منبئة، مبتورة الأصول، بل هي ممدودة الصلة برافدين اثنين ، الرافد التراثي العريق ممثلا في تجارب كثيرة نذكر منها التجارب الروحية و النفسية لأبي حامد الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال " و التجارب لعاطفية لابن حزم الأندلسي في كتابه " طوق الحمامة " و " صيد الخاطر " لابن الجوزي و "رسالة الصداقة و الصديق " لأبي حيان التوحيدي و " كتاب الاعتبار " لأسامة ابن منقذ و غيرهم كثير - كما سنسبسط النقاش فيه لاحقا - وأما الرافد الثاني فهو الرافد الغربي حيث تأثر الأدباء و المثقفون العرب بالمنجز الاعترافي الغربي كما يظهر ذلك في كتابات لويس عوض ، و أحمد فارس الشدياق في مؤلفه " الساق على الساق " و طه حسين في رائعته " الأيام " حيث يشكل هذا المؤلف النص التأسيسي للكتابة الاعترافية .

الكتابة الاعترافية جنس حوارى³ يجمع بين حوار الذات مع الأنا ضمن تداعيات الذاكرة و تفاعلها مع عنصر الزمن و لعبة الاسترجاع من ناحية، كما أنها من ناحية ثانية حوار مع الآخر فهي تكتسي متعة خاصة منشؤها الجسور الحميمية التي يمدها الكاتب مع القراء من خلال عملية البوح و الهمس في أذن القارئ حيث يجعل من الذات المنتجة للخطاب صديقا يستحق الاهتمام و الإصغاء ذلك أن ثقة ما تتولد لدى الإنسان - شعوريا أو لاشعوريا - حين يحظى بمن يمنحه أسرارها دون معرفة سابقة و عميقة و من ناحية أخرى أيضا تنتمس الكتابة الاعترافية مع انساق خطابية متعددة : الشعر ، النثر ، السرد ، ومن الشعر ما هو من الفصيح ومنه ما هو من الملحون سواء كان مرويا أي من مخزون الذاكرة أو كان من إبداع الكاتب الاعترافي نفسه و لهذه الظاهرة الفنية امتداد تاريخي واضح من لدن أبي حيان التوحيدي إلى ابن

حزم الأندلسي إلى ابن خلدون إلى المعاصرين الذين تعرضت لهم هذه الدراسة منهم مصطفى شعبان ، رشيد نيني ، عمار بلحسن ، فدوى طوقان ، العربي باطما

إن المادة الاعترافية قد تكون ميثوقة في نصوص إبداعية متنوعة القوالب و البناءات ، سواء كانت سردية أم وصفية أم إخبارية أم محاورات بيد أن هذه الدراسة تتناول الاعتراف باعتباره بنية مهيمنة و ليست عنصرا رديفا لمكونات بنائية أخرى ، كما ركزت الدراسة أيضا على المنهج الإبداعي لغة لا مضمونا فهناك كتابات اعترافية رائدة و خصبة لم تتعرض لها الدراسة لأنها كتبت بغير اللغة العربية ، رغم أن كتابها عرب مثل كتاب "اعترافات عربي طيب" لكاتب فلسطيني الأب و ألماني الأم و كذلك الشأن بالنسبة " مذكرات أميرة عربية " لسالمة بنت السيد سعيد بن سلطان فالكتاب بمحتواه الاعترافي عربي خالص بيد أنه كتب مثل سابقه باللغة الألمانية . ثمة نقطة حساسة ينبغي الإشارة إليها في هذا السياق و هي أنه إذا تم الاعتماد على الحقل النظري الذي وضعه بعض النقاد نكتشف أحيانا مؤشرات لا تتسجم مع محتوى المتن الاعترافية إذ نرى الكثير من الكتابات و من خلال العتبات النصية أو الميثاق الذي عقده المؤلف مع القارئ يحيلنا إلى أن المتن سيرة ذاتية أو يوميات أو رواية ، غير أن هذا المستوى التطويري سرعان ما يتبدد و لا يتبث أمام التعامل مع المتن الذي يحيلنا بعد القراءة إلى حقول أخرى "فالخيز الحافي" لمحمد شكري دون غلافه " سيرة ذاتية روائية " و "دم الغزال " لمرزاق بقطاش كتب على الغلاف رواية و أعمال أخرى على الغلاف شيء و في العتبات شيء آخر بيد أن المتن يحيلنا إلى كتابات اعترافية من الطراز الأوّل و لعل هذا ما يدفع بالحديث عن فوضى التجنيس في بعض الأعمال السردية بشكل خاص

ارتكزت هذه الدراسة على ترصد فعل الكتابة و ما يحويه من عناصر استبطانية للذات و كشف شلال مكوناتها الداخلية و فضاءاتها الإنسانية المتدفقة تدفقا طبيعيا يترأى من خلاله تيار الوعي الحي الذي يضع لبنات التجربة الاعترافية تحت المحك بصرف النظر عن كاتبها و موقعه في السلم الاجتماعي و الإبداعي ، فالذين كانت لنا وقفة مع متونهم في هذا البحث ليست أسماءهم بالضرورة من الأسماء اللامعة في دنيا الأدب ، فمنهم الطبيب و الصحفي و الشاعر و الأديب و الفنان فهم جميعا شركاء في التجربة الاعترافية من حيث مادتها الإنسانية الخصبة و لكنهم مختلفون من حيث الأداء الفني و الأسلوبي و عليه فهم صنفان إذا جاز التعبير "احترافيون " و "هواة " فالاحترافيون هم أديب لهم أشعار أو روايات أو قصص أو دراسات أي سبق لهم الخوض في التجربة الإبداعية أما الهواة فهم الذين ولجوا عالم الكتابة عبر الكتابة الاعترافية . و على كل فكلاهما قدم كتابات راقية في عمقها و صميمها لأنها ساهمت في خطوات حثيثة للاقتراب من العوالم الداخلية الذات البشرية و منحت علم النفس و علم الاجتماع على وجه الخصوص مساحات متجددة للدراسة و التحليل بما يمكن من رسم المزيد من معالم الطريق نحو الحق و الخير و الجمال ، يضاف إلى هذا اعتبار آخر هو أن فعل الكتابة يتخطى أسوار الزمان و المكان و يتجاوز حدود الأجيال فلا نتصور أن أبا حامد الغزالي أو أبا حيان التوحيدي أو جون جاك روسو أو القديس أوغسطين كانوا على علم مسبق بأن ما كتبوه سيكون له وجود و اهتمام يمتد تأثيره على وجدان القراء على اختلاف لغاتهم . و أعراقهم امتدادا تاريخيا يصل مداه إلى القرن الحادي و العشرين .

إشكالية المصطلح

التجربة الإبداعية في عالم الأدب، هي تعبير عن الحياة وعن صورها المتعددة وجوهها المتنوعة التي لا تخلو من الحديث عن الذات وعن معاناتها وهي تتلمس طريقها في تحقيق منجزاتها المادية والمعنوية والنفسية. وفي هذا الصدد نلاحظ أنّ الكتابة الاعترافية باعتبارها شكلا من أشكال التعبير الإبداعي والأدبي تواجه صعوبات جمة، منها الإشكاليات الفنية والأخلاقية والاجتماعية ومن الإشكاليات الفنية غياب الجهاز المفاهيمي الذي يضبط المصطلح ويحدد له تعريفا دقيقا، واضح القسّمات ولو بشكل نسبي، ولتتضح الرؤية أكثر نعرض بعض التعريفات لفهوم الكتابة

- أن يعترف الإنسان أمام ربه بما اقترفه من ذنوب **confessions** الاعترافية يقول محمد الداوي « الاعترافات - طالبا منه التوبة والمغفرة وفي هذا الإطار اعترف القديس أوغسطين ... بسرته للإجاص وضعف استعداده الفطري لتحمل مهمة القساوسة، اعترف "روسو" بسرته واستيهاماته ونزواته وإهماله لأبنائه والفرص التي أهدرها ويمكن أن تجمل الغاية من الاعترافات فيما يلي: الإدانة الذاتية، والإشادة بالرحمة الإلهية، وتقديم شهادة عن تحول جوهرى في الحياة الشخصية»⁴ في حين يرى الدكتور عبد العزيز شرف أن الكتابة الاعترافية هي وظيفة من وظائف السيرة الذاتية بعد الوظيفة التواصلية « الوظيفة التواصلية حيث تبدأ بكسب ثقة القارئ وتوثيق الصلة بين الكاتب ومرسلا والقارئ مستقبلا... إنّما كتب من أجل أن يوجد رابطة ما بيننا وبينه وأن يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته حديثا يلقي منا أدنا واعية لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله... وهذه الوظيفة التواصلية تحقق للكاتب الوظيفة الاعترافية التي تتيح له أن يفضي بمكونات حياته»⁵ أما الدكتور يحي إبراهيم عبد الدايم فيرى في الكتابة الاعترافية لون من التراجم الذاتية إذ يقول: «و هناك لون آخر من ألوان الترجمة الذاتية وهو الاعترافات تحتذي تقاليد الاعتراف الديني ... صيغت في أساليب أدبية ترمي إلى هداية الناس تعزّزها حقائق روحية للتجربة الذاتية المباشرة»⁶ ويقدم الكاتب نماذج متعددة في هذا السياق من الأدب الانجليزي " جورج مور " اعترافات شاب و من الأدب الفرنسي اعترافات "جون جاك روسو" و من الأدب الروسي اعترافات "تولستوي" ⁷ . و أما الدكتور علي عبده بركات فيرى أنّ الكتابة الاعترافية تشكل النواة والجنور الأساسية للسيرة الذاتية بما تنفرد به من مكاشفة الذات وإماطة اللثام عما تنطوي عليه من سرائر لا يعرف كنهها غير كاتبها التي هي من أسرار حياته⁸، وتظهر صورة الاختلاف أكثر سنسوق بعض النصوص التي على الرغم من الشهرة التي حققتها على مستوى التلقي وعلى الرغم من مضي مدة زمنية طويلة منذ صدورها إلا أنها تبقى مثار جدل بين النقاد والدارسين في مسألة تصنيفها أجناسيا. فعلى سبيل المثال نرى الدكتورة تهاني عبد الفتاح شاكر تقرر أثناء دراستها لكتاب فدوى طوقان "رحلة جبلية رحلة صعبة" و "غربة الراعي" لإحسان عباس قائلة: «هذا وأردت أن أتناول أشكالا مختلفة من السيرة الذاتية فكانت سيرة فدوى طوقان نموذجا لأدب الاعتراف عند المرأة العربية وسيرة ⁹ «إحسان عباس تمثل نموذجا لسيرة العالم جليل اشتهر بالدقة والتحرى في دراساته النقدية والأدبية نرى الدكتور عبد العزيز شرف يصنف بعض العناوين في أدب الاعتراف إذ يقول في كتابه أدب السيرة الذاتية « الأسلوب السهل الممتع الذي تميز به كتاب الأدب الاعترافي في تراثنا الحديث من أمثال طه حسين في -الأيام- والعقاد في -أنا - و أحمد أمين -حياتي- و أنيس منصور في -صالون العقاد- و ثروة أباطة في كتابه- ذكريات لا مذكرات و توفيق الحكيم في كتابه - سجن العمر-¹⁰؛ فنفس العناوين قد يصنفها بعض النقاد والدارسين ضمن السيرة الذاتية قد يذهب البعض الآخر إلى تصنيفها ضمن الأدب الاعترافي أو الكتابة الاعترافية وقد يدرجها البعض الآخر ضمن الرواية ويمكن في هذا

4 محمد الداوي - الحقيقة الملتبسة قراءة في اشكال الكتابة عن الذات - شركة النشر و التوزيع المدارس - الدار البيضاء - الطبعة الأولى 2007 - ص 12 / 13

5 عبد العزيز شرف - أدب السيرة الذاتية- ص 89

6 يحي إبراهيم عبد الدايم - الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث - دار النهضة العربية - (د . ت) ص 17

7 المصدر نفسه - ص 20

8 علي عبده بركات - اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية - مطبوعات تهامة - الطبعة الأولى - - 1982- ص 15

9 تهاني عبد الفتاح شاكر- السيرة الذاتية في الأدب العربي . المؤسسة العربية للدراسات و النشر - الطبعة الأولى 2002 ص 6

10 إحسان عباس فنّ السيرة - دار الثقافة بيروت - (د ب ت) ص 151

السياق أن نرى مدى الاختلاف الحاصل و عدم جلاء الرؤية الفنية في تصور النقاد لكتاب طه حسن " الأيام " فبعض الدارسين يرى فيه النص التأسيسي الأول لفن السيرة الذاتية المكتملة فنيا، و البعض الآخر يراه أدبا اعترافيا محضا وصنف آخر يراه أقرب إلى القصة منه إلى السيرة الذاتية كما هو الشأن لدى الدكتور أحسان عباس في كتابه- فن السيرة¹¹، بل و يبقى هذا الكتاب إلى يومنا الناس هذا موضع سجال أجناسي. و لعلّ قمة الاضطراب في عالم التلقي و التصنيف الأجناسي تتجلى بصورة أوضح في العمل الابداعي " الوسية " للدكتور حسن خليل حسن فقد كتب على غلافها الأمامي (رواية) و على غلافها الخلفي (مذكرات) و داخل المتن (سيرة ذاتية) و تشتت في عالم التلقي بين طرائق و طوائف النقد قددا ،الأولى : تقول أنّ "الوسية" رواية مكتملة العناصر الروائية ،و الثانية : ترى أنّها سيرة ذاتية و الثالثة تقول أنّها مزج بين السيرة و الرواية ،وأطلقوا عليها الرواية السيرة و الكتابة الاعترافية المحضة التي يندر مثلها في الأدب العربي الحديث .

التعريف اللغوي

ورد في لسان العرب في مادة (ع ر ف) جملة من المعاني نذكر منها : « العرفان : العلم و عرّفه يعرفه عرفه و عرفانا و 12 « معرفة و اعترفه

أعرّف فلان فلاناً وعرّفه : إذا وقّفه على ذنبه ثم عفا عنه «
و عرّفه الأمر : أعلمه إياه. وعرّفه بيته : أعلمه بمكانه. وعرّفه به : وسمه ، و اعترف القوم : سألمهم، وقيل: سألمهم عن خبر ليعرفه؛ قال بشر بن أبي خازم:

أسأله عميرة عن أبيها **** خلال الجيش ، تعترف الركابا

قال ابن بري: ويأتي تعرّف بمعنى اعترف؛ قال طريف العبيري

تعرفوني أنني أنا ذاكم **** ساك سلاحي ، في الفوارس معلم

وربما وضعوا اعترف موضع عرف ، كما وضعوا عرف موضع اعترف ، وتعرفت ما عند فلان أي تطلبت حتى عرفت. وتقول: أنت فلاناً فاستعرف إليه حتى يعرفك

وقد تعارف القوم أي عرف بعضهم بعضاً. وأما الذي جاء في حديث اللطية: فإن جاء من يعترفها فمعناه معرفته إياها بصفتها ، وإن لم يرها في يدك

يقال: عرف فلان الضالة أي ذكرها وطلب من يعرفها فجاها رجل يعترفها أي يصفها بصفة يُعلم أنه صاحبها. وفي حديث ابن مسعود: فيقال لهم هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون: إذا اعترف لنا عرفناه أي إذا وصف نفسه بصفة نحقق بها عرفناه. وقوله عز وجل: « وإذ أسر النبي إلى بعض أرواحه حديثاً فلما نبأ به و أظهره الله عليه عرف بعضه و أعرض عن بعض » الآية رقم [3] سورة التحريم

:والعراف: الكاهن؛ قال عروة بن جزام

13 « فقلت لعراف اليمامة : داوني **** فإتاك إن فعلت ، لطبيب

وفي الحديث: من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد، صلى الله عليه وسلم. أراد بالعراف المنجم أو الحازبي الذي يدعي علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه

11 احسان عباس فنّ السيرة - دار الثقافة بيروت - (د ب ت) ص 151

12 محمد مطور - لسان العرب - دار الحديث القاهرة - الطبعة 2003 - الجزء السادس - ص 194 -

13 ابن منظور - لسان العرب - ص 195

وعُزف الرمل والجبل وكلّ عالٍ ظهره وأعالیه، والجمع أعرف وقوله تعالى: « وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ » الآية رقم [46 . سورة الأعراف . و الأعراف في اللّغة: جمع عُزْف وهو كل عال مرتفع ¹⁴ .

يتضح من خلال التقلبات الاشتقاقية لمادة [ع رف] أنّها تفيد معنى الإعلام و الوصف والتوضيح و التسمية للأشياء كما تتضمن معنى الإقرار بالذنب. و هي أيضا المكان أو الشيء العالی الذي يعلم حقيقته الناس من خلال موقعه ، العالی البادي للعیان الذي لا يخفی على أحد، ومنه عُرف الديك و عُرف الفرس و غيره و على هذا الأساس يكون الاعتراف كشف المرء لحقيقة بواطن نفسه . و تسمية أشياء تتعلق بها ، و الإخبار عن دقائقها و جعلها في متناول الآخرين دون أي إكراه أو سلطة قهرية خارجية .

التعريف الاصطلاحي

يرى الدكتور محمد صابر عبيد أن الاعترافات هي « سرد نثري استعادي يندفع فيه الراوي الذاتي إلى منطقة مثيرة وحساسة وخطيرة في سيرته الذاتية، يروي فيها مثالب شخصيته وأخطاها وخطاياها وسلبياتها بأسلوب اعترافي صريح، من دون مبالاة للمواضيع الاجتماعية والقيم الأخلاقية التي يمكن أن تخل بها أو تجرحها، وجرأة تتفوق على أي حرج يمكن أن يضعه في موضع اجتماعي لا يحسد عليه. يستخدم السرد الاعترافي الآليات والتقانات والطرائق ذاتها التي يستخدمها السرد السيرداتي، غير أنه يتدخل على نحو أعمق في طبقات الشخصية الجوانية، ولا سيما طبقة المسكوت عنه مُظهراً إيّاها على السطح النصي، كما يتطابق مع السرد السيرداتي في آلية التطابق بين الراوي والمؤلف والشخصية. وبهذا يمكن القول إن السرد الاعترافي هو سرد سيرداتي يتصدّ الإثارة والنقد الذاتي اللادع وتعرية الذات، مما يجعله يدور على المستوى النوعي في فلك السيرة الذاتية، إلا أن الاحتكام إلى الميثاق الذي يحدده الكاتب في وصف مروية الذاتي هو الذي يحدد النوع السيرداتي بين الاعترافات والسيرة الذاتية»¹⁵ يرى صادق العمري « أن الكتابة الاعترافية هي شكل من أشكال السيرة الذاتية و أن الذي يميزها عن السيرة الذاتية المحضة هو أن كاتبها أكثر صراحة وجرأة في الكشف عن الذات والتصريح بالمثلث وتبلغ هذه الصراحة والجرأة حد البوح بما يظن به الكاتب عادة ولا يكشف عنه من أحداث أو معتقدات أو ميول عاطفية أو جنسية أو مشاعر خاصة أو أخطاء أو آثار... ويبدو لنا أنّ الذي يميز السيرة الذاتية عن الاعترافات هو الميثاق الذي يعفده المؤلف مع القارئ فهذا الميثاق هو الذي يحدد نوعية النص الذي نحن بصدده هل هو سيرة ذاتية أم اعترافات؟ »¹⁶ و ترى الفيلسوفة و الكاتبة الاسبانية "ماريا زمبرانو" (1904-1991) «أنّ أي فنّ هو نوع من الاعترافات المحوّرة¹⁷... فالكتابة الاعترافية جنس أدبي يتكفل بإيجاد الطريق الذي يقرب بين الحياة والحقيقة فوجود هذا الجنس الأدبي مرتبط بمدى التوافق أو التناظر الحاصل بين الحقيقة و الحياة فإذا حدث التوائم و الانسجام بينها ضمن الصيرورة الزمنية فلا حاجة للكتابة الاعترافية أمّا إذا تمّ التباعد بين الحقيقة و الحياة فوجود الكتابة الاعترافية يصبح أمراً ضرورياً. ولعلّ القديس أوغسطين هو أول من أسس الكتابة الاعترافية على هذا النحو و بهذا المفهوم»¹⁸ في حين يعتقد الدكتور جابر عصفور « أن فن الكتابة الذاتية نشأ في الأدب الغربية من فكرة الاعترافات المترسخة في الديانة المسيحية التي ترتبط بالتطهر الروحي كوسيلة لراحة الضمير ، و الاعتراف بهذا المفهوم ليس غامضاً عند الأوروبين الذين مارسوه بصراحة شديدة في أشكال أدبية متعددة وسجل في المذكرات والرسائل والسير الذاتية وهناك أعمال كثيرة من هذا النوع الأدبي مثل اعترافات القديس أوغسطين و اعترافات جان جاك روسو و نيتشه و بودلير»¹⁹. و ترسيخاً لنفس الفكرة و التصور يرى أحمد الجندي أنّ « الأدب العربي مليء بالكتابات الذاتية من خلال كم كبير من الأدباء و المثقفين دونوا سيرهم الذاتية في كتب و روايات، لكننا في عالمنا العربي نعاني خلطاً واضحاً بين السيرة الذاتية وما يسمى بـ «أدب الاعتراف»

14 المصدر نفسه ت 197

محمد صابر عبيد - مظهرات التشكل السير ذاتي - ص 151 - 152 15

خليل شكري هياس - السيرة الذاتية - المفاهيم و الحدود - مجلة الموقف الأدبي - اتحاد الكتاب العرب . العدد 404 - كانون 16 الأول 2004

17 (La confession genre littéraire . maria zambrano. Edition Jérôme million. Page 31 (ترجمة شخصية)

18 (La confession genre littéraire . maria zambrano. Edition Jérôme million. Page 27 (ترجمة شخصية)

19 أحمد الجندي - أدب الاعتراف سباحة ضدّ تيار المجتمع العربي - جريدة النهار - العدد 870 - 9 فبراير 2010

فإذا كانت السيرة الذاتية هي تاريخ حياة الإنسان خصوصاً هؤلاء الذين لهم أدوار مؤثرة في المجتمع ويجد الناس متعة في معرفة بداياتهم ومشوار حياتهم، فإن أدب الاعتراف يقوم على البوح والإفصاح والمكاشفة من جانب الكاتب أو المبدع الذي يتصدى له، وهذا النوع من الأدب يأتي في طليعة ومقدمة الأدب الغربي، حيث دونه أصحابه بصراحة مؤلمة وربما بنوع أقرب إلى تطهير النفس أو جلد الذات، وهذا غير موجود على الإطلاق في أدبنا العرب²⁰.
و يحاول الأديب خيري شلبي أن يحدد الفرق بين السيرة الذاتية و الكتابة الاعترافية فيقول: « هذا النوع الأخير يعد ركناً من أركان الكتابة الذاتية لكنه ترسخ لدينا خلط بين السيرة و الاعتراف، فالسيرة هي تاريخ حياة ومشوار المبدع أو الأديب، ولا يكون مطالباً فيها بالكشف عن حياته الخاصة وتفاصيلها الدقيقة، لما في ذلك من صدمة للمجتمع، أما أدب الاعتراف فهو جنس أدبي يقرّر من خلاله صاحبه البوح والإفصاح حتى يريح ويستريح وهذا الجنس الأدبي مليء بالأشواك ولذلك لم يطرقه سوى قلة من الأدباء العرب رغم أنه شائع في الغرب ويعتبرونه في مقدمة الإبداع الأدبي من ناحية القيمة²¹.» والمصدقية

إنّ الملاحظات التي يكمن تسجيلها حول التعريفات المقترحة أنّها لا تركز على أي تقنية كتابية خاصة أو أساليب خطابية معينة تميّز الكتابة الاعترافية بقدر ما تركز على طبيعة المضامين و المحتويات السردية الاعترافية إذ ترى في الكتابة الاعترافية وجهاً من وجوه السيرة الذاتية ليس إلا مع فارق في كون الكتابة الاعترافية تتميز بالمادة الاعترافية الخصبة الجريئة التي تجعل اهتمام كاتبها يتناول أعماق بواطن الذات أكثر من أي شيء آخر كما يرى الدارسون والنقاد أنّ المادة الاعترافية ينبغي أن تتمحور حول الأخطاء والهفوات و الزلات التي عرفتها مسيرة الكاتب الحياتية في مختلف المجالات سواء تعلق الأمر بالأسرة أو الدراسة أو التجارب العاطفية أو الممارسات الجنسية و حتى ما يمكن أن يصنف في خانة الفضائح، هذا فضلاً على الميثاق الاعترافي الذي يعقده الكاتب مع قرائه . و فضا لهذه الإشكالية نشير إلا أن هذا الجنس الأدبي لا يملك من العراقة ما تملكه أجناس أدبية أخرى احتاجت إلى أماد زمنية شاسعة كي تتبلور و تأخذ شكلها الفني النهائي بل هو فن بصدد التأسيس ولذلك تعددت أشكال الكتابة فيه ولم تستقرّ إلى حدّ الآن على شكل واحد كما تعددت تعريفاته و إن كان بعض النقاد يتحاشى الخوض في التعريف تفديداً للولوج في تداخلات مفاهيمية و منهجية يصعب الخروج

20 أحمد الجندي - أدب الاعتراف سباحة ضدّ تيار المجتمع العربي - جريدة النهار - العدد 870 - 9 فبراير 2010

21 أحمد الجندي - أدب الاعتراف سباحة ضدّ تيار المجتمع العربي - جريدة النهار - العدد 870 - 9 فبراير 2010

الحسن التاريخي و ثقافة الاعتراف

يرى البعض أن الحديث عن الذات مرفوض في السلم القيمي، منفي من أبجديات الخلق العربي الإسلامي، و لذلك يصدر الناس الحديث عن أنفسهم بأشكال من الاستعانة بقولهم " أعوذ بالله من قول أنا " و أنّ هناك غيابا لثقافة الاعتراف، يقول محمود تيمور « نحن الشرقيين نحيا في دنيانا هذه و على أخلاقنا و سلوكنا قناع غليظ قلما نقول ما نعتقد و قلما نصارع بما نجد و قلما نعتبر عما تطويه السرائر كلنا مستتر يداجي و يوارب»²². ثقافة الاعتراف إذا مغتبية بسبب وجود الأفتعة الاجتماعية الملازمة للإنسان منذ لحظات الميلاد الأولى. فالمجتمع يجبرنا على وضع جملة من الأفتعة التي تلازمنا طيلة الحياة و التي تحجب شخصيتنا الحقيقية عن الناس و فكرة القناع الذي نرتديه، يُظهر للآخرين صورة غير الصورة الحقيقية لذواتنا، و يخفي عن الأعين شخصيتنا الحقيقية التي تكون في معظم الأحيان عكس هذا القناع فالشخصية و القناع متلازمين و لكنهما متضادتان، فالمرء في بيته له صورة ما مع أقربائه، لكنّه أمام الآخرين يحتاج إلى ارتداء هذا القناع. فهناك قناع لإحياء الليالي الدينية حيث يظهر قناع الورع و السكينة و روح التدين و الخشوع و في حفلات الأفراح هناك قناع السرور و إظهار الفرحة أمام الآخرين و في المدرسة قناع و أمام الضيوف قناع وهكذا دواليك... و من هذا المنطلق فإن كل كتابة اعترافية شخصية ستفهم في المنظور العربي، بشكل مخطوء، و ستؤول لصالح الحطّ من شأن المبدع أو النيل من كرامته الشخصية و سيستخدم الاعتراف ضده يوما بمعنى من المعاني، كما حصل للشيخ الندوي و سعيد حوى و غيرهم، حيث تحولت المذكرات الشخصية و القصصات إلى دليل بين يدي القاضي لإدانة الكاتب المبدع الواقف في قصص الاتهام، و مثل هذه الممارسات لها دلالتها ولها تاريخ الطويل في الضمير الجمعي العربي. يضاف إلى هذا أنّ الذهنية العربية اُعتبرت إشاعة السرّ خطأ جسيماً يزري بالكرامة و المروءة كما اُعتبرت الاحتفاظ به فضيلة كبرى. و هناك أدبيات تجسدت عبر الحكم و الأمثال و الأشعار و غيرها تملأ الصفحات الطوال، تتعلق بضرورة كتمان الأسرار الذاتية حتى ولو كلف ذلك المرء ثمنا نفسياً و اجتماعياً باهظاً، كقولهم: « لا تظهر كوامن صدرك بإذاعة سرّك، فيمكر بك حاسدك، و يظهر عليك معاندك. من حصّن سرّه فله من تحصينه خلّتان إمّا الظفر بما يريد و إمّا السلامة من العيب»²³ و لعلّ هذا أيضا سبب من أسباب الاهتمام الكبير بالتورية و الكنايات و المجازات ما شاكلها من أساليب البيان التي يمارسه الأفراد قصد إخفاء نوازعهم. و ميولا تهم و حقائق أنفسهم.

الحقيقة أنّ هذه الآراء فيها جانب من الصواب و لكن تبقى صلتها بالحقيقة نسبية، تبعا للمحيط الذي قيلت فيه و المناخ الاجتماعي و السياسي و قصدية السياق الذي وردت فيه و على سبيل المثال مقولة: " أعوذ بالله من قول أنا " و إن كانت متداولة على الألسنة رائجة في أساليبنا الخطابية غير أنّها ليست مبررا لفصل القول فصلا قاطعا بعدم وجود حديث عن الذات و بالتالي تبرير نفي ثقافة الاعتراف في المجتمع العربي، ذلك أنّ العبارة في حدّ ذاتها ليست إلا تمهيدا للحديث عن الذات و تأكيدا له، ثمّ هناك خلط في التعامل مع القيم و المفاهيم فالذي يسمّيه البعض أفتعة ما هو إلا تجسيد للموروث القيمي الذي يجعل لكل "مقام مقال" وفق أدبيات معينة، تهندست عبر أجيال من خلال التجربة الحياتية و الممارسة الأخلاقية التي

إن تخلى عنا المجتمع غرق في فوضى تتمحي فيها الضوابط و يقع العدوان على كرامة الإنسان. و إذا تصفحنا تاريخ المجتمع العربي وجدنا مواقف و تجارب اعترافية كثيرة سواء في مرحلة ما قبل الإسلام أو في خضم التحولات التي أحدثها الدين الإسلامي في المجتمع بالقيم الجديدة. فالمعلقات نتاج فني إبداعي و وثيقة تاريخية تعطينا بعض الملامح لشخصية الإنسان العربي و ثقافته و ممارساتها الفئّية و الاجتماعية و الخلقية و هي لا تخلو من مادة اعترافية كما هو الشأن عند امرئ القيس أو عنتر بن شداد أو طرفة بن العبد سواء في مناخ الفر و الكر أو لقاء الأحبة و الندمان و مجالس الشراب، كما أننا نجد في المجتمع الإسلامي ترسيخا لثقافة الاعتراف بغية بناء إنسان يرتقى إلى أعلى درجات الكمال الإنساني لقد صاغ الدين الجديد الإنسان وفق قالب إنسانية عالية من طراز خاص، لم تألفه المجتمعات و لا الحضارات السابقة من قبل. كان الرجل أو المرأة يأتي للنبي صلى الله عليه و سلم و يطلب منه أن يقيم عليه الحد لأنه وقع في حد من حدود الله، يقول النبي صلى الله عليه و سلم لزيد الذي أراد أن يشفع في حد من حدود الله « و أيم الله، لو أن

تذكر كتب السيرة أيضا أن رجلا جاء للنبي صلى الله عليه و سلم و قال له ادع الله لي فإني كسول، نؤوم فقال له أحد الصحابة فضحت نفسك فرد عليه المصطفى فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة²⁵ و قد جاءه يوما أحد الشبان فقال له يا رسول الله ائذن لي بالزنا! فقال له أترضاه لأمك قال لا. قال أترضاه لأختك... قال لا فقال: فكيف ترضاه لبنات

22 علي عبده بركات - اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية - مطبوعات تهامة - الطبعة الأولى 1982 - ص 15

23 شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن الوبري - نهاية الأرب في فنون الأدب - دار الكتب المصرية - ص 84

24 حديث شريف رواه البخاري عن عائشة .

25 محمد الغزالي - فقه السيرة - ص 150

المسلمين؟ ثم عالج الموقف برحمة و رفق النبي الكريم و ذاب الموقف في زحمة الحياة الخصبه المليئة بالتحويلات العظيمة التي ترفع من مستوى الإنسان . و هذا عمر بن الخطاب يقف ذات يوم على المنبر و يذكر نصيب الجدة في الميراث فيرتفع صوت من أصوات النساء في المسجد أخطأت يا عمر، فإن الرسول لم يقسم بما قسمت. فلم يجد بدا من أن يصرح في المسجد و أمام الملأ بقوله أصابت امرأة و أخطأ عمر على الرغم من أنه خليفة المسلمين و إمامهم و حاكمهم المسموعه كلمته. و حتى فكرة الأفتعة التي يثيرها البعض حول المجتمع العربي الإسلامي مردودة فقد سعى الإسلام للقضاء عليها حين أسس أبجديات لصياغة إنسان سوي يتطابق مظهره الخارجي مع باطنه و حذر كثيرا من أن تكون للإنسان شخصيتان شخصية تتشكل من مظهر خارجي أمام الناس و شخصية أخرى مناقضة لها، بل عد هذا من النفاق الذي يفرضي بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار. و لعل هذا السر في دعائه صلى الله عليه و سلم « اللهم ارزقني علانية صالحة و اجعل سريري خيرا من علانيتي » . و إذا تتبعنا المادة الاعترافية في النتاجات الأدبية فسرها ماثلة في كل فن من الفنون. في الرسالة و في القصيدة في الفقه و في كتب أهل التربية و الرياضة الروحية و سنورد نماذج من تراثنا العربي الإسلامي كما سنلحق ذلك بتثبيت عناوين كثيرة من المدونة الاعترافية العربية فقيديما و حديثا.

ثمة مسألة أخرى يثيرها بعض الدارسين و هي أن الكتابة الاعترافية مرتبطة بالحس التاريخي لدى الشعوب، أي بقدر ما يكون لشعب ما إحساس عميق بالتاريخ فإن الحديث عن الذات أو حتى عن الغير سيسجل حضورا قويا في الساحة الأدبية و الفكرية

و بقدر ما يكون هذا الإحساس ضعيفا أو منعدما بقدر ما تختفي الكتابة السيرية أو الاعترافية ، فالشعوب التي تحرق جثث الموتى من أبنائها و عظمائها أمة لا تملك حسنا تاريخيا . أما الأمم التي يسجل فيها الأفراد تجاربهم و سيرهم سواء على الورق أي الكتابة العادية أو على الصخور نحتا و تشكيلا إنما هي أمة ناضجة لها إحساس عميق بالتاريخ فما حظ المجتمع العربي من هذه الميزة ؟

أتصور أن الإنسان العربي اهتدى بفطرته إلى الكثير من الطرق التي يحفظ بها تجاربه و خبراته التي أنتجت عملية التفاعل مع معطيات الحياة، فقد اهتدى إلى استحداث الأوزان و القوافي كشكل فني لصياغة تجاربه الفكرية و الوجدانية و ذلك أنها أقرب إلى النفس و أسهل للحفظ و أبقى في الذاكرة لما تتضمنته من إيقاعات موسيقية لا تتوفر في النصوص النثرية، يضاف إلى هذا المنزلة التي حظي بها الشاعر و رواة الشعر و حفاظه و وضعهم في السلم الاجتماعي، و كل هذه الآليات لم تكن في حقيقة الأمر إلا رد فعل لما يفرضه الواقع الاقتصادي على الإنسان العربي من حياة الترحال و التنقل بحثا عن الماء و الكلأ في بيئة صحراوية قاحلة و مترامية الأطراف. و مع البعثة المحمدية زاد تعمق الحس التاريخي لدى الإنسان العربي فقد تضمن القرآن الكريم محور القصص- و هو أوسع المحاور القرآنية - الذي استعرض تجارب الأفراد و الجماعات و معاناتهم من لدن آدم إلى صاحب الرسالة الخاتمة، عليهم جميعا أذكى الصلاة و التسليم . ناهيك عن الدعوة القرآنية للقراءة و توجيه الإنسان المسلم للكتابة فضضارات الشعوب و الأمم لم تزدهر و ترتقي إلا بحركة التدوين و الكتابة و من هنا وجدنا توجيهات القرآن الكريم للمسلمين بضرورة الاهتمام بتقيد المعرفة و تدوينها، يبدو ذلك من خلال بيان عظمة القلم و شرف الكتابة حيث يظهر بجلاء جلال هذا الشرف في معرض القسم به قال الله تعالى : « ن و القلم و ما يسطرون»²⁶ و قوله تعالى أيضا : «الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم»²⁷ لقد تكرست لدى الإنسان العربي المسلم فكرة واضحة و دقيقة عن قيمة التجارب الإنسانية الماضية و ضرورة الاستفادة منها و من هنا نشأت فكرة الوعي بالتاريخ سواء في إطاره الفردي أو الجماعي «فالتاريخ ذاكرة الأمة و هو مستودع تجاربها و عقلها الظاهر و الباطن و خزانة قيمها و مآثرها و أساس شخصيتها الغائرة في القدم و الممتدة مع الزمان ... و عندما يقول الناس فلان ليس له مهاد يبني عليه و لا تقاليد ينبعث منها و لا تراث يستمد منه عرفنا أنه زعيم يرتجل سيرته و مسلكه دون أساس و لا مقياس»²⁸ لقد أسس القصص القرآني لفلسفة ذات استراتيجيات عميقة وبعيدة الأغوار مؤدى هذه الفلسفة أنه «لابد من معرفة أن الذي وقع في الماضي لا يعني بالضرورة صناع هذا الماضي و حدهم فقط بل هو خطاب يُعنى به كل فرد في هذا الكون ، منه تستلهم العبر و تؤسس المقاييس التي يوزن بها الحاضر و المستقبل ... و قد بين القرآن الكريم أن هنا عقلا يتكون من التجربة و السير في الأرض و من الرحلة إلى الماضي و بين أن الإنسان الذي تقوم معرفته على قراءات سريعة و أحكام نظرية أضعف حسا من إنسان له معاناة في الدنيا و تجارب مع الناس»²⁹ من هنا كانت « دراسة التاريخ فريضة دينية و هي إلى جوار ذلك فريضة إنسانية ... بل إنها ضرورة بقاء و سياج لحياتنا و رسالتنا»³⁰ و على الرغم من كل هذه الأدلة الدامغة يذهب البعض إلى نفي الحس التاريخي عن المجتمعات العربية و يرى تركزها في الثقافة الغربية .

26 سورة نون الآية رقم : 1

27 سورة العلق الآية رقم 4/5

28 محمد الغزالي - المحاور الخمسة للقرآن الكريم - دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع - عين مليلة . (د.ت) - ص

122

29 محمد الغزالي - المحاور الخمسة للقرآن الكريم - دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع - عين مليلة . (د.ت) - ص

123

30 المصدر نفسه - ص 124

لقد تحدث في هذه المسألة كثير من الدارسين سواء منهم العرب أم المستشرقين منهم الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه الموت و العبقورية حيث خصّص فصلا عن الترجمة الذاتية في العربية و تحدث عن الإحساس بالتاريخ فبين أنّ ثمة « فارق بين الرّوح السّامية و الرّوح الآرية ، و يذهب إلى أنّ عناصر الرّوح الأولى منفصلة عن بعضها البعض لا تتفاعل و لا يتأثر الواحد منها بالآخر إلا بمقدار . بينما هي في الرّوح الثانية مرتبطة كأقوى ما يكون الارتباط ، محدّدة كأقوى ما يكون الاتحاد . ومن هنا كان الشعور بالشخصية لدى أصحاب الرّوح السّامية شعورا غامضا بعض الغموض مضطربا قد خلا من القوّة و الوضوح ، لأنّ الشعور بالشخصية قائم على الشعور بالوحدة بين أجزاء الحياة الروحية لفرد من الأفراد³¹ ثمّ يواصل في نفس السياق مقرّرا أنّ الأريين قد اهتموا قديما و حديثا بالذات في النّشاط الكتابي و الفكري « حتى ارتفعوا به إلى فن من فنون الأدب الرفيع ... لأن شعورهم بشخصهم شعور قوي و واضح يدفعهم إلى التعبير عنها و يكاد يحملهم على هذا حملا . أما الساميون ، و يهّمنا منهم العرب هنا فإنّ ما كتبه في هذا الباب يعدّ قليلا و حتّى هذا القليل لم يبلغ الغاية التي قصد إليها من هذا النّوع من الأدب و نعني بها التعبير عن الشخصية كوحدة روحية لها كيائها الخاص و ميزتها الروحية التي تميّزت بها»³² الحقيقة أنّ ثمة اتفاق بين الدارسين أنّ الكتابة عن الذات سواء كانت سيرة ذاتية أو اعترافات هي ثمرة هذا الحسّ التاريخي فهو الأب المنجب للسير³³ غير أنّ الخلاف يتمحور حول أسبقية الشعوب و حظها من هذا الحسّ و بالتالي منجزها من الكتابة عن الذات يقول جورج ماي : « يتفق مؤرخو السيرة الذاتية على أنّ موضوع دراستهم قد نشأ في أوروبا و أنّه ينتمي إلى الثقافة الغربية ... إن السيرة الذاتية إنّما ظهرت أساسا في أوروبا الغربية و في منطقة تأثيرها، شأنها في ذلك شأن مرض الرّهي فإن صادف مثلا أن كتب بعض الشرقيين قصص حياتهم فما ذلك إلا لأنّ عدوى الثقافة³⁴ » الغربية قد سرّت إليهم لأنهم كما قال جورج فوسدروف قد جعلوا أتباعا لعقلية غير عقليتهم

الحقيقة أنّ الكثير من هذه الآراء لا تتطرق من حكم منطقي موضوعي مؤسس، بقدر ما تتطرق من رؤية عنصرية تحمل طابعا عرقيا لا يخلو من صيغة ثقافة كلونيالية استعلانية لا ترى إلا منجزها المركزي فهي تنصّد الثقافة و الوعي عبر التاريخ و بقية الشعوب تبع لها و لمنجزها . و طائفة أخرى من تتساق وراء هذا التيار فتجرد ذاتها من أي منجز كما تبخس أصحاب الإرهاصات الأولية للكتابة عن الذات جهدهم و منجزهم ، و على كل فإنّ الرّيادة الثقافية و الحضارية قد يحمل مشعلها شعب من الشعوب لفترة ما لكن سرعان تنتقل إلى أمة أخرى كما يشهد التاريخ بذلك و أن الحضارة و الثقافة دول عبر الصيرورة التاريخية، وليست ملكا مطلقا لشعب من الشعوب و لا حكرها لجنس دون جنس .

كثبت سوسن الأبطح في جريدة الشرق الأوسط مقالا بعنوان " لا عيب أن يكون أدب السيرة الذاتية مستوردا " و اصفة دراسة الباحثة الدكتورة تهاني عبد الفتاح بالذي يريد أن يلعب بالنار دون أن يحترق كما ارتأت أنّها تصيّد النصوص للاستدلال على أنّ الكتابة عن الذات و تواجد الأنا في الأدب العربي له جذور في تراثنا العربي الإسلامي و أنّه زعم لا تؤكّده القرائن التاريخية قائلة: « إذ ليس من المنطق في شيء أن يرى إلى الشاعر الجاهلي الذي يفتخر بقبيلته ويمدحها على أنه إنما يفتخر بنفسه من خلالها لشدة التصاقه بها . و تحسب أبياته و كأنها جزء من تراث العرب في كتابة السيرة الذاتية، كما جاء في الكتاب، و يحرم المتنبي من هذه الحظوة . وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نضم إلى رواد السيرة في التراث العربي أبا نواس و أبا العلاء المعري و غيرهما كثيرين . و الباب الذي تفتحه تهاني عبد الفتاح شاكر في كتابها لمناقشة هذا الموضوع، وهي هنا شريكة للعديد من الباحثين العرب المرموقين، من قبيل إرضاء الذات العربية المكسورة و جبر خاطرها أكثر مما يصمد أمام اختبار النصوص نفسها . فليس عيباً أن يكون أدب السيرة بمعناه البوحي الحديث غربياً و ان نعترف بأن «أنا»³⁵ العربي كانت مختبئة في أدبنا على مرّ مئات السنين خلف ضمائر الجماعة

لقد تبني الكثير من الدارسين أمثال إحسان عباس و تهاني عبد الفتاح شاكر و "رووكي تيتز"³⁶ و غيرهم كثير موقفا منصفيا يعكس سعة الاطلاع و التحرر من الأحكام المسبقة لذلك سلمت آراؤهم من النظرات الاستشراقية التي انتشرت في القرن التاسع عشر و التي حمل لواءها " جورج جاسدوف" حيث تتبنى فكرة المركزية الثقافية الغربية المثال للإبداع و قد وجدت هذه الآراء قبولا لدى الدارسين و

31 عبد الرحمن بدوي - الموت و العبقورية - (د.ت) - ص 115/116

32 عبد الرحمن بدوي - الموت و العبقورية - ص 115/116

33 إحسان عباس - فن السيرة - دار الثقافة - ط ب ت - ص 9

34 جورج ماي - السيرة الذاتية - تعريب محمد القاضي - عبد الله صولة - بيت الحكمة - 1992 تونس - ص 23

35 سوسن الأبطح - لا عيب أن يكون أدب السيرة الذاتية مستورداً - جريدة الشرق الأوسط - 4 سبتمبر 2002 العدد 8681

36 تيتز رووكي - في طفولتي دراسة في السيرة العربية - ترجمة طلعت الشايب - الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - الطبعة 2002 - ص 23

المتقنين العرب و في مقدمتهم عبد الرحمن بدوي حيث تابعهم شبيرا بشبر في مقولاتهم .كما قرّر ذلك في فصل من فصول كتابه الموت و العبقريّة يضاف إلى هؤلاء طائفة أخرى من المتقنين العرب الذين لا يرون بأسا في نفي المنجز التراثي و تقزيمه و لعلّ مردّ هذه الآراء شدّة الانبهار بالمنجز الثقافي الغربي دون و النظر فيما عند الآخر دون الاكتراث لما بين اليد بصرف النظر عن قيمته ما دامت في الغرب نماذج بديلة و هذا وجه من محنة حضارية عبر عنها الدكتور عبد العزيز حمودة في كتبه المرايا المقعّرة و المرايا المحدبة .

لا شك أنّ طبيعة مفهوم الأنا في الثقافة العربية، و السلطة الأسرية و الاجتماعية و النظرة الدينية و السلطة السياسية كلّها لها دور و تأثير على الثقافة و الإبداع كما أنّ طبيعة المادة الاعترافية في حدّ ذاتها نسبية من قيم إلى قيم و من حضارة إلى أخرى و من مناخ سياسي و أخلاقي إلى آخر لكن لا يعني هذا التخلّي عن الموروث التراثي و نفي منجز الكتابة الذاتية بدعوى أنّها لا تخضع للمواصفات التي حدّد معالمها رواد الثقافة الغربية و تبقى خارج حلبة المنجز الفكري و الإبداعي نردّد أصوات الغير دون أدنى وعي و لعلّ في النصوص التي سنسوقها في المبحث الموالي مزيدا من جلاء الرؤيا و ضبط المعالم .

الكتابة الاعترافية : أصولها و روافدها

الكتابة الاعترافية هي كتابة عن الذات و قد تتمظهر في أشكال أدبية مختلفة و ألوان خطابية متعددة ، وفي هذا المبحث سنحاول الوقوف على الأصول والإرهاصات الأولية للكتابات الاعترافية في التراث العربي .و الواقع أننا إزاء هذه القضية أمام آراء مختلفة و متضاربة ، تصل أحيانا إلى درجة التناقض بحيث يلغي بعضها بعضا ، فمن مؤكد لوجود هذه الكتابات في التراث العربي القديم و من ناف لها سواء من الدارسين العرب أم المستشرقين ، غير أن العرض التاريخي لمنجز الكتابات الذاتية الموثوث في أمهات الكتب العربية ، على اختلاف الحقب التاريخية و العصور الأدبية هو وحده الكفيل بالإجابة المقنعة على هذه المسألة و كل ذلك مستنده النصوص الموثقة التي لا يداخلها أي شك توثيقي .

إننا لا نكاد نعثر على مدونة ذاتية في العصر الجاهلي و ذلك لاعتبارات تاريخية معروفة لا يكاد يجهلها أحد و هي أن العرب كان مجتمعهم مجتمعاً بدوياً رعويًا ، يعتمد في نمطه المعيشي على الترحال و التنقل بحثًا عن الماء و الكلأ ، و فرص الكتابة و التدوين لم تتح لهم ، كما هو الشأن عند شعوب أخرى لكنهم مع ذلك ملكوا . في إطارهم التاريخي - بدائل عن التدوين ، تجسدت من خلال القصيدة الشعرية ، حيث اهتموا إلى صيغة توفيقية بين الحاجات الفنية و الضرورات الاجتماعية و النفسية حيث صارت القصيدة و عاء فنيًا للتجربة الذاتية في مختلف مناحي الحياة النفسية و العاطفية و غيرها أو في الصراع مع الطبيعة أو مع الآخر ضمن الصيرورة التاريخية التي تفاعل معها الإنسان العربي و ما وصلنا كان شعرا لأنه أيسر للحفظ بما يتضمّن من خصائص فنية إيقاعية، يشكل الوزن و القافية و الروي أبرز سماتها .ومن الإرهاصات الأولية للكتابة عن الذات ، ما رواه الصحابي الجليل سلمان الفارسي عن نفسه فقد أورد الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد قطعة أسندها إلى ابن عباس : « تحدث سلمان الفارسي في هذه القطعة من السيرة الذاتية عن نسبه ، و حب والده له و خوفه عليه ، ثم أسباب تركه للدين المجوسي و اعتناقه النصرانية . وتحدث عن تبشير الأسقف النصراني له بأنه قد أظله زمن نبي جديد و قد ذكر له الأسقف صفات ذلك النبي فوجدها سلمان في سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلم »³⁷ هذه أولى المحاولات التي نعثر عليها في القرن الأوّل الهجري و التي نرى كتابها يحتقون بالحديث عن ذواتهم ثم نرى قطعاً أخرى متناثرة في طيات أمهات الكتب التراثية ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وكتاب "عيون الأنباء في

طبقات الأدباء " لابن أبي أصيبعة حيث يورد اعترافات ابن سينا(370هـ - 427هـ) على لسان تلميذه أبي عبيدة الجوزجاني إذ يصرح بجملة من السلوكات المتناقضة التي كانت تحكم حياته الشخصية و العلمية كقوله حين يستغل عليه فهم بعض المسائل العلمية : « وكلمًا كنت أتحير في مسألة أو لم أظفر بالحدّ الأوسط في قياس ، ترددت إلى الجامع، و صليت و ابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق منه، و تيسر المتعسر . و كنت أرجع بالليل إلى داري و أشتغل بالكتابة و القراءة، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلي قوتي ، ثم أرجع إلى القراءة، و مهما غلبني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعينها، حتى أنّ كثيراً من المسائل اتّضح لي و جوهها في المنام، و كذلك حتى استحکم معي جميع العلوم العلوم»³⁸ و من الرسائل الاعترافية، ما كتبه أبو حيان التوحيدي (414 هـ)

في مؤلفه " رسالة الصداقة و الصديق " حيث تحدث عن ماهية الصداقة و أبعادها النفسية و الاجتماعية الأخلاقية كما بين أنها عملة نادرة يصعب الظفر بها في مجتمع مادي يموج بالفتن و تفتك بأواصره الصراعات الطّاحنة سواء بين عامّة الناس أم بين خاصتهم من الملوك و الأمراء و الأدباء ، يقول : « فأما الملوك فقد جُلّوا عن الصداقة ، و لذلك لا تصحّ لهم أحوالها ، و لا توفي بعهودها ، و إنّما أمورهم جارية على القدرة و القهر و الهوى و الاستحلاء و الاستخفاف ، و أمّا خدمهم و أوليائهم فعلى غاية الشبه بهم و نهاية المشاكلة لهم .»³⁹ ثم ينتقل إلى الاعتراف بالحال التي آلت إليها نفسه ، من شطف العيش و قلة ذات اليد، بل يصل به الأمر إلى الشكوى من الجوع و الحرمان و من أبسط حقوق العيش الكريم، في قوله : « و من أين يظفر بالغذاء و إن كان عاجزا عن الحاجة ... و كيف يحتال في الحصول على طمرين للسنتر لا للتجمّل ... و كيف يستعان بمن لا يعين و يُسكنى إلى غير رحيم ... و من العجب أننا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق و الأسف و الحسرة و الغيظ و الكمد ...»⁴⁰ على الرّغم من الوجاهة العلمية لأبي حيان و النباهة الفكرية و البصمات الخالدة التي تركها في عصره إلا أن الشعور بالوحدة و التهميش و شبح الحرمان ظلّ يلازمه طيلة فترات حياته ، فهو رهين قبضته التي لا يملك الفكّك منها ، حتى في أماكن العبادة ، حيث يفترض أن تزول الوحشة و تذوب الفوارق بين الناس إذ يقول : « و الله لربّما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلّي معي، فإن اتفق فبقال أو عصّار ، أو ندّاف أو قصاب و من إذا وقف بجانبني أسدرني بصنانه ، وأسكرني بننته ، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب الخلق ، مستأنسا

37 تهاني عبد الفتاح شاكر- السيرة الذاتية في الأدب العربي -المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت - الطبعة الأولى 2002 ص 38/ 39

38 تهاني عبد الفتاح شاكر- السيرة الذاتية في الأدب العربي - ص 43/

39 أبو حيان التوحيدي-رسالة الصداقة و الصديق - ص 34

40 المصدر نفسه - ص 34

بالوحشة ، قانعا بالوحدة... محتملا الأذى يائسا من جميع ما ترى ، متوقعا لما لا يد من حلوله ، فشمس العمر على شفا و
41 «... ماء الحياة إلى نضوب و نجم العيش إلى أفول

لقد نال منه مركب النقص نبلا عظيما ، و بلغ به اليأس في المحطات الأخيرة من حياته إلى أن يحرق كنبه نكاية بمن
أنكروا فضله و علمه و لم يمتكوه من أن ينبوأ المنزلة الرفيعة التي تليق به و بأمثاله ، يقول في هذا الصدد بمرارة و بشيء
من التشفي و رثاء الذات المنكسرة : « إني جمعت أكثرها للناس و لطلب المثالة منهم و لعقد الرياسة بينهم و لمد الجاه
عندهم فحرمت ذلك كله... لقد اضطررت بينهم بعد العشرة و المعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء و إلى
التكفف الفاضح عند الخاصة و العامة و إلى بيع الدين و المروءة و إلى تعاطي الرّياء بالسمعة و النفاق و إلى ما لا يحسن
42 «... بالحر أن يرسمه بالقلم و يطرح في قلب صاحبه الألم

ثمة كتب تراثية أخرى هي من صميم الكتابات الاعترافية التي موضوعها الذات الكاتبة منها كتاب " طوق الحمامة "

لاين حزم الأندلسي (384هـ - 456هـ) إذ يقول الباحث المغربي عبد الرحيم العلمي : « يكاد يجمع الدارسون على أن
رسالة ابن حزم الأندلسي طوق الحمامة لا تقتصر قيمتها على ما اشتملت عليه من نصوص أدبية و قيم إنسانية حضارية
فحسب بل في تلك الحكايات الكثيرة التي يرويها و التي تكشف الكثير من جوانب الحياة الأندلسية و توقفنا على أسرار
الحكام و خبايا القصور...»⁴³ ثم يضيف إلى جانب هذه القيمة قيمة أخرى تتجلى في «اشتماله على كثير من الأخبار التي
تلقي الضوء على حياة ابن حزم نفسه و على محيطه فقد كان يتسم بالجرأة و الصراحة بشكل مثير ، مما جعله أكثر إلى
الاعترافات أو السير الذاتية و هي حقائق ما كان غير ابن حزم الاعتراف بها و له من جلال الشيب و وقار الفقه ، و هيبة
العلم ، بل أنّ هذه الاعترافات جاءت في الكتاب من الكثرة بحيث جعلها بعضهم دليلا على أن الكتاب عبارة عن مذكرات
شخصية»⁴⁴. قد سرد ابن حزم حياته و قدم لنا فكرة عن الكيفية الحسنة و الصارمة التي انتهجها والده في تربيته حيث
كانت هذه التربية أمام أعين الرقباء و المرابين و الموجهين الذين كانوا في معظمهم نساء يقول في طوق الحمامة

و لقد شاهدت النساء و علمت من أسرارهن ما لا يعرفه غيري ، لأنني ربيت في حورهن و نشأت بين أيديهن و لم
اعرف غيرهن ، و لا جالست الرجال إلا و أنا في حد الشباب و حين تقيل وجهي»⁴⁵. كما وصف ابن حزم الأندلسي
المحن التي عصفت به و بأسرته في مناخ التقلبات السياسية و الفتن التي سحقت كل من وقف في وجهها أو تصادف مع
طريقها حيث اضطر في نهاية المطاف إلى مغادرة قرطبة التي صارت مسرحا للخروقات و الانتهاكات من قبل الحيوث
البربرية و قنذاك ، فالقرب من الملوك و السلاطين و مجالستهم نعمة تزيد المرء علوا و جاها بيد أنها قد تتحول إلى نقمة
يدفع ثمنها العلماء و الأدباء و في هذا الصدد يقول : « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات و باعتداء
أرباب دولته ، و امتحنا بالاعتقال و الترقيب و الاغترام الفادح و الاستتار ، و أرزمت الفتنة و ألفت باعها و عمت الناس و
خصتنا»⁴⁶ ولنصغي إلى ابن حزم الأندلسي و هو يعترف في موضع آخر من الطوق بتجربة عاطفية إذ يقول : « ودعني
أخبرك أنّي أحد من دهي بهذه الفادحة و تعجلت له هذه المصيبة ، و ذلك إني كنت أشد الناس كلفاً و أعظمهم حبا تجارية لي ،
كانت فيما خلا اسمها نعم ، و كانت أمنية المُنمّي و غاية الحسن خلقاً و خلقاً و موافقة لي ، و كنت أبا عذرها ، و كنت قد تكافأنا
المودة ففجعتني بها الأقدار و اخترمتها الليالي ، و مرّ النهار ، و صارت ثالثة التراب و الأحجار ، و ستي حين وفاتها دون
العشرين سنة ، و كانت هي دوني في السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا تجرد عن ثيابي و لا تقتر لي دمعة على جمود
عيني و قلة إسعادها و على ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد و طارف ، و ببعض
أعضاء جسمي العزيزة علي مسارعا طائعا ، و ما طاب لي عيش بعدها ، و لا نسيت ذكرها و لا أنست بسواها ؛ و لقد عفا حبي
47 «... لها على كل ما قبله و حرم

ابن حزم هو ابن حزم العالم الفقيه المجتهد و مع ذلك هو الإنسان الرقيق الذي يسجل هزات عاطفية و رجّات قلبية
اعترضته في الحياة و تركت بصماتها العميقة في وجدانه ، و على الرغم من مرور السنوات الطوال ، فهو يسجل هذه
التجربة العاطفية المؤلمة حيث تعلق بامرأة أحبها حبا جمّا ثم فارقت الحياة و تركت فراغا مهولا في حياته لم تعوضه

أبو حيان التوحيدي - رسالة الصداقة و الصديق - ص 34 41

42 أبو حيان التوحيدي - رسالة الصداقة و الصديق - ص 35

43 عنوان المقال - عبد الرحيم العلمي - مجلة الإحياء - يناير 2000 - العدد 15 - ص 257

السيرة الذاتية في كتاب طوق الحمامة لابن حزم - عبد الرحيم العلمي - مجلة الإحياء - يناير 2000 - العدد 15 - ص 44
257

45 ابن حزم الأندلسي - طوق الحمامة في الألف و الآلاف - تحقيق فاروق سعد - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت -
طبعة 1972 - ص.....

46 - ابن حزم الأندلسي - طوق الحمامة في الألف و الآلاف - تحقيق فاروق سعد - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت -
طبعة 1972 - ص 111

المصدر نفسه - ص 216/217 47

امرأة أخرى كما تركت جرحاً لم يندمل على الرغم من مرور السنين و لعلّ مساحات البوح التي استعرضها ابن حزم في كتابه طوق الحمامة شكل من أشكال التحايل على الذات لتضميد هذا الجرح الكبير و من عالم العواطف إلى عالم الرّوح و الاعتقاد مع تجربة اعترافية لشخصية أخرى لها الحضور القوي في عالم الفلسفة و التّصوف و التربية الروحية ، مع أبي حامد الغزالي (450هـ - 505هـ) في كتابه " المنقذ من الضلال " . لقد عاش الرجل في مجتمع متدين تحكمه أعراف إيمانية و مسلمات اعتقادية لا يرقى إليها أي شكّ، لكن ومع ذلك فقد مرّ بمحنة روحية و نفسية عنيفة، شديدة الوطأة ، حملته على الشك في كل شي فساح سياحة فكرية و روحية انطلق فيها من الصفر بحثاً عن تأسيس منهج يصل فيه إلى الحقيقة التي يطمئن إليها القلب و العقل . يقول في كتابه المنقذ من الضلال : « لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق ، و قد أهدقت بي من الجوانب ، و لاحظت أعمالي - و أحسنها التدريس - فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة و لا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى بل باعثها و محرکها طلب الجاه و انتشار الصيت ، فتيقنت أنني على شفا جرف هار ، و أنني قد أسفيت على النار . إن لم اشتغل بتلافي الأحوال فلم أزل أتفكر فيه مدة ... لا تصدق لي رغبة في الآخرة بكرة إلا و يحمل عليها جند الشهوة، فصارت الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام و منادي الإيمان ينادي الرّحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل و جميع ما أنت فيه من العلم و العمل رياء ... ثم يعاود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة ، و إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال... فلم أزل أتردد إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي حتى أدرس يوماً واحد تطيباً للقلوب المختلفة إليّ فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم و تعدى إلى ضعف»⁴⁸

هذه الاعترافات هي أقرب إلى المناجاة حيث نرى الحوار الداخلي الذي يديره الغزالي مع ذاته ، إنه نوع من التفكير العميق الباطني الذي يسبر أغوار النفس غير أنه يتم بصوت مرتفع يتاح للغير أن يسمعه فهو يقيم مساره الرّوحي و العلمي رغم السنّ التي بلغها و رغم الشاؤ الذي تبوّأه في السلم الاجتماعي . أننا نشعر بعمق مأساته و هو يصوّر المشقة و العنت الذي لحقه من أزمته إذ نراه يبذل جهداً جبّاراً ليقدم درساً لمريديه فقد انعقد لسانه و لم يعد يملك القدرة على التدريس ، و ما يفعله بعد كل هذا العنت لم يكن في حقيقة الأمر إلا تطيباً للقلوب الملنّقة حوله بغية الاستضاءء بهديه و علمه بل تقاومت أزمتة النفسية حين نال المرض منه فانقطع عن الأكل و مال جسمه إلى الضعف يمثل هذا المقطع الذي بين أيدينا مثالاً حياً للتجارب الروحية و القضايا الفكرية و الاعتقادية التي شغلت طائفة من النّاس و منهم الغزالي حيث عكف على البحث عن الحقيقة في جوّ من الشكّ و رحلة من المعاناة إزاء الهواجس الضامنة التي تبحث عن الرواء و ذلك بمعرفة الذات معرفة باطنية دقيقة واضحة و معرفة العالم الخارجي الذي يرتبط بهذه الذات و يتفاعل معها تأثيراً و تأثراً ثم معرفة الله الذي برأ هذه الذات . إنها رحلة في عوالم الشكّ و حرق الاضطراب بين عالم الغيب و الشهادة تأسيساً لمنهج في الحياة يقوم على اليقين و الاجتهاد العقلي بصرف النظر عن العوائق الناتجة عن شهوات النّفس الراجعة في الدّعة و الرّضا بما هو مألوف أو الصدام مع الآخر من أهل الأهواء و البدع و التقليد و كلّ هذا الجهد يفضي في نهاية المطاف إلى الدعوة إلى الله و نيل الحظوة منه سبحانه و تعالى .

و من الكتب التراثية التي سجّل أصحابها تجارب ذاتية اعترافية ما كتبه أسامة بن منقذ (488 هـ - 584 هـ) في مؤلفه " كتاب الاعتبار " فقد كان فارساً و مقاتلاً و أدبياً لامعاً في عصره و في هذا الكتاب يروى الكثير من مغامراته و رحلاته و حروبه و مخالفته للإفرنج في العصر الأيوبي سواء في الشام أم مصر ، كما يروي تجارب تتعلّق بتربيبته و بعلاقته بوالده يقول : « و ما رأيت الوالد - رحمه الله - نهاني عن قتال و لا ركوب خطر ، مهما كان يرى فيّ و أرى من إشفاقه و إيثاره لي »⁴⁹ و يروي في هذا السياق أن الإفرنج قد احتجزوا رهائن من المسلمين فقال له والده : « اتبعهم بمن معك و ارموا أنفسهم عليهم و استخلصوا رهائنكم ، فتبعتهم و أدركتهم بعد ركض أكثر النّهار و استخلصت من كان معهم ... و عجبت من قوله : ارموا أنفسهم عليهم »⁵⁰ هكذا يروي الفتى كيف ألقى به الوالد في خضم المخاطر و المعارك لأن طبيعة العصر كانت تقتضي ذلك ، حفاظاً على الوجود الذاتي و العقدي ، أيام الحروب الصليبية التي كان التّزال فيها شديداً بين الإفرنج و المسلمين ، ثم يضيف في موقف آخر و في سياق الكلام عن والده : « و مرّة كنت معه ، وهو واقف في قاعة داره ، وإذا حيّة عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحيّة و صعدت إليها وهو يراني ولا ينهاني ، و أخرجت سكيناً صغيراً من وسطي و طرحتها على رقبة الحيّة وهي نائمة و بين وجهي و بينها دون الذراع ، وجعلت أحزّ رأسها ، و خرجت فالتقت على يدي إلى أن قطعت رأسها و ألقيتها إلى الدار وهي ميتة ».⁵¹ و على العموم فإن

أبو حامد الغزالي - المنقذ من الضلال و الموصل إلى ذي العزة و الجلال 48
مجموع الروائع الإنسانية . الطبعة الثانية . بيروت 1969 - ص 36 - 37

أسامة بن منقذ - كتاب الاعتبار - حرّره فيليب حتى - مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة - 1930 ص 103 49

أسامة بن منقذ - كتاب الاعتبار - حرّره فيليب حتى - مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة - 1930 - ص 103 50

الكتاب يحمل بين دفتيه الحديث عن الذات في النشأة و التربية و العلاقة مع الوالد و مواجهة الأخطار في الصيد و الحروب و
هو من نفائس الكتب التراثية العريقة .

أما فيما يتعلق بالاعترافات الإبداعية و الفكرية فيمكن أن نسجل ما ورد في مقدمة الفيلسوف الأندلسي الكبير ابن
طفيل(المتوفى 581 هـ) في رسالته المشهورة "حي بن يقظان" حيث يشير إلى الأصول و المصادر التي استقى منها
فلسفته و عمله الفني العملاق الذي نال به من الشهرة ما فاق كل اعتبار على مر العصور و الحقب التاريخية حيث ترجم
كتابه إلى لغات عديدة في العالم . يقول في مقدمة هذه الرسالة : « و لا شك عندنا أنّ الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة
القصوى و وصل تلك المواصل الشريفة المقدّسة ، لكن كتبه المضمون بها ، المشتملة على عدم المكاشفة، لم تصل إلينا ولم
يتخلّص لنا نحن الحقّ الذي انتهينا إليه ، و كان مبلغنا من العلم تتبع كلامه و كلام الشيخ أبي علي و صرف بعضهما إلى
بعض و إضافة ذلك إلى الآراء التي نبغت في زماننا هذا و لهج بها قوم من منتحلي الفلسفة حتّى استقام لنا الحقّ أو لا
بطريق البحث و النّظر ثمّ وجدنا منه الآن، هذا الذوق اليسير بالمشاهدة و حينئذ رأينا أنفسنا أهلا لوضع كلام يؤثر عنّا
« ... هذا هو اعتراف ابن طفيل⁵² عن مصادرهِ الفلسفية التي أسس عليها عمله الإبداعي الخلاق و مع ذلك لم ينتبه أحد
من الدارسين العرب و لا غيرهم إلى هذه القضية الهامة التي قد تحيلنا إلى مباحث تاريخية و فلسفية لها من الأهمية
الايستمولوجيا وزنا خاصا لا يمكن الاستهانة به، خاصة في التعرّف على دقائق المنحى البياني لمسار الفلسفة العربية
الإسلامية و اللّبنات الأساسية التي شكّلت قواعدها و منطلقاتها .

و كتاب "صيد الخاطر" لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (510 هـ / 592 هـ) قد تضمّن اعترافات عرضها
في صورة لوحات رائعة تتداخل مع مشاهد تأملية و أخرى تربوية و وعظية، ذكر فيها معاني السعادة و الرّاحة النّفسية و
أسبابها و صور عن التجارب و الاحتكاك مع الخلق و كيفية مداراتهم للخروج بأقلّ الضّرر و عن كيفية علاج الرغبات
الجامحة التي تمارس ضغطا على النّفس كالإسراف الجنسي ، و الهواجس القلبية و المخاطر الروحية و كيفية التعامل مع
الوقت و استثماره قبل الرّحيل من هذا الكون يقول: «تفكرت فعلت أن النّفس لا تقف عند حد بل تروم من اللذات ما لا
منتهى له، كلّما حصل لها عرض برد عندها و طلبت سواه ، فيفنى العمر و يضعف البدن و يقع النقص و يرق الجاه ، و لا
يحصل المراد و ليس في الدنيا أمل ممّن يطلب النّهاية في لذات الدّنيا و ليس في الدّنيا على الحقيقة لذّة و إنّما هي راحة
من مؤلم ...»⁵³ ثمّ يواصل الحديث عن ضرورة الاعتدال في مطالب الجسد و الوسطية في النّيل من المباحات حفظا للوقت
و البدن و توجيه مسار العمر للنّيل من لذات الفكر و العلم و الرّوح لأنها الدّ و أنفع يقول: «و قد قيل لبشر: لم لم تتزوّج؟
فقال: علاماذا أغرّ مسلمة ، و قد قال الله تعالى: " و لهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف " و المسكين من دخل في أمر قبل
الدخول و رأى حبة الفخ فبادر طالبا لها ناسيا تعرقل الجناح و الذبح ... و مجموع ما قد بسطته حفظ البصر عن الإطلاق
و يأس النّفس عن التحصيل ... خصوصا من قد علت سنه ، و علم أنّ الصّبيّة عدو له ، متمنية هلاكه و هو يربّيها لغيره... و
⁵⁴ « في هذا ما يردّ العاقل عن التعرّض لآفات

عندما نصل إلى القرن التاسع الهجري نجد مؤلّف ابن خلدون الموسوم بـ « التعريف برحلة ابن خلدون شرقا و غربا »

هو آخر حلقة من الحلقات التي تنتمي إلى سلسلة الكتابة عن الذات و التي تنطوي على مادة اعترافية خصبة تتصل بحياة
ابن خلدون و بمحيطه الأسري و الاجتماعي و السياسي حيث يصور مشاهد من المحن التي ألمّت به كغرق أهله في السفينة
و فقده لوالديه عبر موجة الطاعون التي اجتاحت المدينة و مدى إصراره على محاربة الفواجع و اليأس بعلو همّته في
طلب العلم و الصبر على العوارض و القواطع ، لقد ولي القضاء بمصر لما توسم فيه السلطان نباهة و فراسة لكنه واجه
معارضة من الحساد و ذوي الأهواء و المصالح الذين حاكوا له المؤامرات و المكائد ، فقال مصوّرا هذا الحال: « فكثرت
الشغب عليّ من كل جانب، و أظلم الجوّ بيني و بين أهل الدولة . و وافق ذلك مصابي بالأهل و الولد ، وصلوا من المغرب

51 - أسامة بن منقذ - كتاب الاعتبار - حرّره فيليب حتى - مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة - ص - 1930 - ص

103

52 خليل محمد إبراهيم - اعترافات ابن طفيل - الموقع الإلكتروني - www.badr.today.Com

عبد الرحمن بن الجوزي - صيد الخاطر - تحقيق الشيخ محمد الغزالي - مكتبة رحاب - الجزائر - (د.ت). ص 320/321
- ص 320 - 321 (د.ت)

عبد الرحمن بن الجوزي - صيد الخاطر - تحقيق الشيخ محمد الغزالي - مكتبة رحاب - الجزائر - 54
- ص 322/323 (د.ت)

في السفين ، فأصابها قاصف من الريح فغرقت ، و ذهب الموجود و السّكن و المولود ، فعظم المصاب و الجزع ، و رجح الرّهد ، و اعتزمت على الخروج من المنصب ، فلم يوافقني النّصيح ممّن استشرته ، خشية من نكير السّلطان و سخطه....»⁵⁵ بل إنّ ابن خلدون يذكر في بعض الأحيان تفاصيل دقيقة تعرض لها في حياته و خاصة في أسفاره إذ عاش متنقلا بين المدن و الأمصار باحثا عن السكينة و الاستقرار بعد أن ادلهمت به الخطوب من إمارة إلى أخرى، و لم ينجُ حتى من اللّصوص و قطاع الطّرق يذكر أنّه كان مقيما ببسكرة و بسبب الوشاة قرّر الرّحيل إلى المغرب و في سفر اعترضه اللّصوص « اعترضونا هناك ، فجا مّا من نجا على خيولهم إلى جبل "دبدو" ، و انتهوا جميع ما كان معنا ، و أرجلوا الكثير من الفرسان و كنت فيهم ، و بقيت يومين في قفره ضاحيا عاريا إلى أن خلصت إلى العمران و لحقت بأصحابي »⁵⁶ لقد صوّر ابن خلدون اضطراب العوارض من حوله - و ما أكثرها و أثقلها على الكاهل - بيد أنّه كان يملك القدرة الهائلة على امتصاصها بشكل أو بآخر فهو يتعزّى أحيانا بالحج و الإقامة في البلد الحرام و تارة بالعكوف على مجالس العلم و غيرها مما يسّلي عن المصاب.

أمّا ما بعد ابن خلدون ،فأنّنا إذا استثنينا كتاب " لطائف المنن و الأخلاق " لمؤلفه عبد الوهاب الشعراني الذي هو أقرب إلى الكتابة التمجيدية للذات ،فأنّنا لا نكاد نعثر على كتابة ذاتية ذات بال و أهمية سواء أكانت ذات طابع اعترافي أو سير ذاتي محض ذلك أنّ شمس الفكر و الأدب بدأت نحو الأفول ،حيث ذبلت القرائح و جفّت منابع الإبداع الأصيل ،و صار الأداء المتقن للغة هاجسا لدى الكُتّاب ،فحملهم على اللّهث وراء المحسنات البديعية و الصّور البيانية البرّاقة التي لا تعدو أن تكون شقشقة لفظية ،تتم عن خواء فكري و عطب إيداعي مما حدا بالدارسين إلى تسمية هذه العصور بعصور الضعف و الانحطاط .

و على العموم فإن النّماذج التراثية المقدّمة تؤكّد أنّ العرب حازوا كتابات ذاتية و اعترافية على امتداد العصور و أنّها تناولت قضايا متعددة و متنوعة في المجال الاجتماعي و الرّوحي و النّفسي و إن كانت تفتقر إلى الشمولية من حيث التّنال و العمق في استبطان الذات الكاتبة على نحو ما نلمس في الكتابات المعاصرة إلا أنّها كتابات إبداعية رائعة تشكّل إسهاما كبيرا في ميراث الأدب العالمي إذا ما تمّ الاحتكام إلى المقاييس الموضوعية التي لا تهمل الإطار التاريخي الذي أنجزت فيه هذه الكتابات .

أفاق العالم العربي بعد عصر الضعف على وقع المنجز الحضاري الغربي و على دوي آلاته الصاخبة في مختلف مناحي الحياة و كان من الطبيعي جدا كما تقتضيه السنن الكونية أن حدث اتصال بين حضارة الغرب و ثقافته و بين العالم العربي الذي بدا يستيقظ من سبات حضاري و يأخذ طريقه نحو الحياة فيستأنف العطاء و الضخ في ميراث الحضارة الإنسانيّة ، فاستقاقت المواهب الكسيحة و العزائم المخدّرة و بدأت تبرز كتابات ذاتية و اعترافية تنهل من ينابيع التراث

55 عبد الرحمن بن خلدون - التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا - ص 279

56 عبد الرحمن بن خلدون - التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا - ص 233

العربي الإسلامي و تتغذى أيضا من جداول الحضارة الغربية فكتب « محمد بن عمر التونسي (1789م/18..) كتابه " شحذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان " و ذلك بإيحاء من طبيب فرنسي اسمه " بيرون " »⁵⁷ كما كتب أيضا رفاعة الطهطاوي (1801م-1873م) " تخلص الإبريز في تخلص باريز " و هو من نفائس النهضة العربية الحديثة ضمّنه الكاتب تجارب ذاتية و ملاحظات عن مشاهداته و احتكاكاته إبان وجوده في باريس، ضمن بعثة علمية لكن الكتاب و إن حوى تجارب ذاتية غير أنها أقرب إلى الشهادة التاريخية أو أدب الرحلة منها إلى أدب الاعترافات، ثم كتب أحمد فارس الشدياق (1801- 1887) " كتابه الساق على الساق " الذي يمكن اعتباره من بواكير الكتابة الاعترافية في عصر النهضة الحديثة و قد طبع هذا الكتاب بصيغ متعددة منها الصيغة التي اقترحها الدكتور عماد الصلح فجعلها "اعترافات الشدياق في كتاب الساق على الساق " « تأكيداً لجنس الكتاب الأدبي واستناداً إلى أن الشدياق نفسه عندما نشر

58 " la vie et les aventures de feriac : الطبعة الأولى من كتابه جعل عنوانه

أودع الشدياق في هذا الكتاب حياته الخاصة و ما تعجّ به من عواطف و انفعالات و أحوال و تنقلات و مشاهدات و آراء في الحياة و المرأة و المجتمع و السياسة و الدين لم يتورع في تناول أي شيء يراه جديراً بالحديث أو الوصف أو التحليل و التعليق يذكر أنه ذهب إلى أحد القساوسة ليعترف له بما فعل و فكر ، و منها نظمه للقصائد الغزلية التي يرى القس أنها تبعث على الإغرار بالمعاصي لكن الشدياق يرفض حرقها للتكفير عن ذنوبه قائلاً: « كيف أحرق في ساعة واحدة ما سهرت فيه ليالي متعددة و حرمت فيها من الكرى و كابدت جهداً... فكنت إذا نظمت البيت من القصيدة يُخيل إليّ أنّي قطعت مرحلة إلى محلّ المتغرّل بها »⁵⁹ يقول في مشاهداته لبعض العادات و التقاليد الفرنسية : « ربما صاحب الرجل امرأة من نفس الدار التي يسكنها لأن ديار هذه المدينة العامرة أصغرها يحوي في الأقلّ عشرين نفساً ما بين رجال و نساء أمكن الرجل أني يعاشر إحدى جاراته بل المتزوجون في هذه الديار لا يأمنون على نسائهم و بناتهم... لهذا كان أهل باريس أقلّ غيرة على

60 « نسائهم من جميع الناس

يمضي الشدياق في كتابه على هذا النمط ، و اصفا مغامراته و مشاهداته ميّناً إعجابه بحضارة الغرب بما فيها من نظام و احترام للوقت و بدور المرأة و مكانتها في المجتمع لكنه في نفس الوقت لا يخفي سخريته من عادات الغربيين في كثير من

تهاني عبد الفتاح شاكر - السيرة الذاتية في الأدب العربي - ص 62 57

عماد الصلح - اعترافات الشدياق في كتابه الساق على الساق - دار الرائد العربي - بيروت - الطبعة الخامسة - 1982 - 58

ص : ب

أحمد فارس الشدياق - الساق على الساق - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - (دت) 59

ص 146

أحمد فارس الشدياق - الساق على الساق - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - (دت) - ص 629 60

مناحي الحياة واشتمزازه من مظاهر الفقر و الحرمان و غلبة النزعة الفردية و روح الأنانية و افتقار العلاقات الاجتماعية لمعاني المودة و الإنس الموجودة في الشرق العربي ، بيد أنّ كل هذا كما يقول إحسان عباس: « غارق في غمار الاستطرادات و المترادفات اللغوية و في السخرية و المجونو من أبرز خصائصه رحابة صدره لتلقي المدنية الحديثة و نظرته إلى المرأة و سخريته برجال الدّين و نقده لبعض العادات عند الغربيين و الشرقيين على السواء، و غرامه باللّغة و

⁶¹«إسرافه في التّورية و التّلميحَات الجنسية ،كل هذه تقسد عليه الاسترسال و تعرقل متعة السرد حين نصل إلى بدايات القرن العشرين يواجهنا زحم الأحداث السياسية و الاجتماعية و الفكرية الذي تمخضت عنه ثورات عنيفة عمّقت الإحساس بالذات و جنحت لنشدان الحرية و الطموح لتأسيس مشروع مستقبل الإنسان العربي و تبلورت على شكل دعوات فكرية و سياسية و اجتماعية حمل لواءها جيل من المتقنين و الكتّاب ، فكان ممّا أفرزه هذا الرّخم تدفق في الكتابات الذاتية الاعترافية المفعمة بروح الثورة و التمرد على أعراف الواقع و مسلماته ، المتسمة بالجرأة و الصراحة في التعبير عن الذات، فظهر كتاب " اعترافات" لعبد الرحمن شكري سنة 1916 هذا الرجل الذي ارتبط اسمه بمدرسة الديوان و كان معلما بارزا من معالم التجديد الفكري و الفنّي في العصر الحديث ،لكنه عاش محروما من متع الحياة ، ناقما عليها ،يرى الوطن كالسجن كما يرى أن أذواق العامة من الناس فاسدة ، تستحق الاحتقار و عدم الاكتراث ، ثم ظهر كتاب " قصة حياة " لعبد القادر المازني ، ثمّ لطفي السيّد "قصة حياتي "غير أن كتاب " الأيام" لطفه حسين وإن كان محلّ تنازع أجناسي بين الدارسين حيث يرى البعض أنه النصّ التأسيسي للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث في حين يرى آخرون أنّه اقرب إلى العمل الروائي⁶² يبقى هذا الكتاب من أبرز الكتابات الاعترافية في العصر الحديث لما تضمّنه من مكاشفات صريحة و اعترافات حميمية مسّت جوانب متعدّدة و خصبة من حياة الكاتب كما شملت مراحل متباينة من عمره يضاف إلى ذلك كلّ أسلوبها القصصي الشيق و قدرة صاحبها من امتلاك متعة السرد ،و لعلّ هذا السبب من وراء النّجاح الباهر الذي حقّقه على سواء على مستوى التلقي عموما أم على مستوى الاهتمام الواسع الذي حظيت به من قبل الدارسين و النّقاد كما سنتعرض إليه بالتحليل في الفصل الثالث . ثمّ كتاب "أوراق العمر " للويس عوض ، مذكرات طبية لنوال السعداوي " أيام من حياتي "الزينب الغزالي ،" ذكريات الأدب و الحبّ " لسهيل إدريس ، "ساعات من حياتي" لطاهر طنّاحي ، " سيرة حياتي " لعبد الرحمن بدوي ،" هذه تجربتي وهذه شهادتي " لسعيد حوى ، "غربة الرّاعي " لإحسان عبّاس الذي يعتبر أيضا أوّل ناقد عربي يقف عند السيرة الذاتية و أصولها ، "رحلة جبلية ..رحلة صعبة " لفدوى طوقان ، " أيام معه " لكوليت خوري ضمّنتها تفصيل علاقتها بالشاعر نزار قباني ، ثمّ مرّة أخرى تكتب نوال السعداوي " أوراق

إحسان عباس - فن السيرة - ص 130- 131 61

في حياتي " ثم الكاتب الجزائري عمّار بلّحسن " يوميات الوجد " يصور فيها رحلته مع المرض و الألم و في نفس السّياق يكتب الكاتب المغربي العربي باطما صراعه مع الألم و اللّحظات الأخيرة من حياته ، في جزأين " الألم " و " الرحيل " ، ثمّ يكتب الصحفي و الكاتب السوري فرج بيرقدار " خيانات اللّغة و الصّمت " يصور فيها تجربة الاعتقال و مرارة السّدجن في ظل غياب حرية التعبير ثمّ الكاتبة السعودية عالية مكّي " مذكرات امرأة في السجون السعودية " ، يكتب أيضا الكاتب و الشاعر العراقي عبد القادر الجنابي " تربية عبد القادر الجنابي " التي تتجاوز حدّ الاعتراف إلى حقل البذاءة التي تتنافى مع الذوق و يشترك في هذا السّياق مع الكاتب المغربي محمد شكري في مؤلفه " الخبز الحافي " ثمّ الكاتب العراقي نمير عبد العزيز الأعرجي " رحلة في قبول الذات " يستعرض فيها رحلته الروحية التي تغصّ بالشكوك و التردد بين الإيمان بالغيب و بين رفضه و إنكاره و التمسك بعالم الشهادة فقط ، ثمّ يسجّل الكاتب المغربي رشيد نيني " يوميات مهاجر سرّي و مصطفى شعبان " أمواج الروح " يجسد كل منهما تجربة الهجرة السرية إلى أوروبا و مأساة التواجد في التّراب الأوروبي بطريقة غير شرعية و ما ينجم عنه من عذابات مادية و معنوية تدعو إلى رثاء الذات و إعادة النظر في رؤيتنا للحضارة الغربية و قيمها ، و ختاماً لهذه القائمة نذكر كتاب " دم الغزال " لمرزاق بقطاش و تجربة الاغتيال و النجاة بأعجوبة من رصاص الإرهاب إبان العشرية السوداء الدامية .

و على كل فإنّ القائمة طويلة جدّاً في هذا الصّدّد و أنّ المدونة الاعترافية العربية قد تنوّعت في قوالها و أساليبها بين القالب التقريري الإخباري و بين الأسلوب المقالّي الوصفي و بين القالب السردي القصصي الجّدّاب و بين الأسلوب التحليل كما سيّضح لنا ذلك في الفصل الثالث . هذا من جانب و من جانب آخر فإنّ مدونة الأدب الاعترافي العربي مدونة ضخمة لها امتدادات و جذور في التّراث العربي الإسلامي و قد بيّنا ذلك من خلال بعض النّماذج، كما أنّها تعدّت من الثقافة الغربية حيث أنّ معظم الذين طرّقوا هذا الباب من الكاتبة الذاتية ، عاشوا في أوروبا درسوا بها و تأثروا بأعلامها و رموزها . الفكرية و الإبداعية كالشّدياق و طه حسين و علي الطنطاوي و سلامة موسى و عبد القادر الجنابي و غيرهم .

الفضاء الإنساني

لقد اعتبر الكاتب و الفيلسوف الفرنسي " الفريد دو موسيه " الألم مصدراً من مصادر العظمة في الإنسان و أكّد على هذا المعنى في مقولته الشهيرة : « لاشيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم » هذه المقولة ، احتفظ بها الفرنسيون و نحتوها تحت تمثاله القابع في إحدى المقابر الباريسية، كما أنّ الفيلسوف " كير جارد " قد أسهب في الحديث عن أهمية الألم في الحياة الإنسانية .. فقد تقطن إلى أنّ الآلام النفسية التي نعانيها هي التي تخلع على وجودنا الشخصي كل ما له من فردية و أصالة .. فالتجارب الأليمة التي يعانينا المرء تصبح ثروة باطنة تدخّر لها الذات للمستقبل و تتسلح بها ضدّ ما يستجد من الهجمات⁶³ من هذا المنطلق وجدنا أنّ الكثير من الكتاب يركزون في اعترافاتهم على محطات الألم في حياتهم كمرحلة الطفولة و تجربة المرض و الغربة، و لعلّ من الملفت للنظر أنّ الحديث عن الارهاصات الأولية للوعي الطفولي هي من المساحات التي نالت حيزاً كبيراً لدى الكثير من كتّاب الاعترافات التي لم تكن كتاباتهم في حقيقة الأمر إلا ردة فعل الطفل الصغير بقلم الطفل الكبير الذي لم يتمكّن من تجاوز مرحلة من مراحل حياته، فبعد أن خرج منها تاريخياً و جسدياً يعود إليها مرة ثانية يبحث عن شيء ما يسترد مفقوداً أو يعيد الاعتبار إليه و ربما هذا ما يفسّر العنّبات النصّية الكثيرة التي جعلت من الطفولة شارة حفاقة لها مثل " من الطفولة " للطاهر بن جلون " طفل من القرية " لسيد قطب " أيام الطفولة " لإبراهيم عبد الحلّيم و غيرهم... بل إنّ بعض الكتابات لا يتحدّث فيها أصحابها إلا عن مرحلة الطفولة و ما اكتنفها من مكابدات و محن كما سيأتي الحديث عنه لاحقاً، و لعلّ هذا أيضاً ما حدا بالكاتب السويدي " تينز رووكي " أن يعنون دراسته لمجموعة

63 أحمد بن طامه - فن السيرة الذاتية (علامات و أسس) - منشورات دار ما بعد الحداثة - فاس الطبعة الأولى 2006 -

من الأعمال و الكتابات السير ذاتية العربية بـ " طفولتي " إشارة منه إلى الحضور القوي الذي نالته مرحلة الطفولة في الكتابات الذاتية سواء كانت سير ذاتية أو اعترافية محضة . ولتسليط الضوء أكثر على هذه النقطة الحساسة اختارنا بعض الكتابات التي بسطت الحديث عن الأم و معاناة الطفولة منها " الخبز الحافي " لمحمد شكري، "رحلتي رحلة جبلية صعبة " لفدوى طوقان .

محمد شكري كاتب مغربي معاصر، لم يتعلم القراءة و الكتابة إلا في العشرين من عمره ومؤلفه " الخبز الحافي " عرف النور من خلال ترجمته إلى الانجليزية و الفرنسية و الإسبانية قبل أن يشق طريقه إلى قراء العربية . في هذا الكتاب يقدم لنا محمد شكري صورة عن الطفولة المغتالة و الكرامة الإنسانية المهذرة في أجواء معتمة ، موبوءة بالفقر و الجوع و الإدمان و التشرذ و الجريمة في أشنع صورها . دون إنذار مسبق يصدم البصر في الأسطر الأولى من الكتاب لغة صاعقة، تخترق وجدان القارئ و تكتسح أبعد نقطة منه، إذ يستهل الكاتب منته بقوله : « أكي موت خالي و الأطفال يكون من حولي، لم أعد أبكي عندما يضربني أحد أو أفقد شيئاً... لم استطع أن اكف عن البكاء ، الجوع يؤلمني و أتقيأ فلا يخرج من فمي غير خيوط من اللعاب»⁶⁴ مشاهد الجوع و مظاهره المقرفة تدفع بالأسرة إلى الهجرة إلى مدينة طنجة حيث سيحقق الحلم الموعود « سنهاجر إلى طنجة هناك خبز كثير»⁶⁵ هكذا قالت الأم كي تخفف من الأم الجوع التي تمزق أعشاء ابنها، لكن سرعان ما يتبخر الحلم و تدفع خيبة الأمل إلى البحث عن لقمة في المزابل المدينة، « حين يشتد عليّ الجوع أخرج إلى مزابل المدينة أفنش عن بقايا ما يأكل . وجدت طفلاً يقات من المزابل مثلي في رأسه و أطرافه بثور، حافي القدمين و ثيابه متقوية، قال لي : مزابل المدينة أحسن من مزابل حينا و زبل التصاري أحسن من زبل المسلمين... عثرت على دجاجة ميتة ضمنتها إلى صدري و ركضت إلى بيتنا»⁶⁶ لكن سرعان ما تقنكها الأم منه لأنها جيفة و المسلم لا يأكل الجيفة، هكذا تبلغ المأساة ذروتها حين تتحول المزابل إلى ميدان للسجال و المفاضلة في عالم الطفولة، فمزابل التصاري، أي الأوروبي المحتل أحسن حالا من مزابل المغاربة الذين يعيشون حياة ضنكة تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، ومع محنة الجوع تضاف محنة أخرى أشدّ ضراوة و إيلا، فعالم الطفولة عالم ملائكي يفترض فيه أن يلقى الطفل رعاية و حنانا لكن مرة أخرى يقدم لنا الكاتب محمد شكري صورة عن هذه الطفولة المعذبة من خلال شخصية الأب السلبى و القاسى، « دخل أبي و جدني أبكي على الخبز ، أخذ يركلني و يلكنني.... اسكت اسكت... رفعتني في الهواء، خبطني على الأرض، ركلني حتى تعبت رجلاه و تبلل سروالي»⁶⁷.

إن الألم الذي يتوزع الذات الطفولية يتخذ أشكالاً و أبعاداً متباينة ألام جسدية، ألام نفسية، ألام روحية، و فالضرب و اللكم و التعذيب، هي مفردات من قاموس الأبوة القاسية «أبي يعود كل مساء خائبا، نسكن في حجرة واحدة . أحيانا أنام في نفس المكان الذي أتفرص فيه . إن أبي وحش ، عندما يدخل لا حركة ، لا كلمة إلا بإذنه كما هو ، كل شيء إلا بإذنه لا يحدث إلا بإذنه كما سمعت الناس يقولون يضرب أمي بدون سبب أعرفه...»⁶⁸ و من الألام الجسدية إلى الألام المعنوية من خلال مشهد الجريمة، «أخي يبكي يتلوى ألما ، يبكي الخبز يصغرنى ، أبكي معه، أراه يمشي إليه، الوحش يمشي إليه، الجنون في عينيه، يدها أخطبوط لا أحد يقدر أن يمنعه ، أستغيث في خيالي، وحش مجنون !منعوه !يلوي اللعين عنقه بعنف، أخي يتلوى، الدم يتدفق من فمه، أهرب خارج بيتنا تاركا إياه يسكت أمي باللحم و الرّفسن . اختفيت منتظرا نهاية المعركة ، لا أحد يمرّ ، أصوات ذلك الليل بعيدة و قريبة منّي، السماء، مصابيح الله شاهدة على جريمة أبي.»⁶⁹ الطفل الصغير يهرب من البيت لاثدا بالشارع و قلبه يطير فرقا من الجريمة، لا يستفيق إلا مع مشهد الدفن، «أخي منعوش في حصار بين ذراعي الشيخ ، أبي و راءه و أنا خلفهما حافيا ، أعرج ، يضاعه في حفرة مبللة ، أرتجف و أبكي ، لطحخة دمّ متخثرة حول فمه يختفي وراء التراب، صار ربوة منسية»⁷⁰ نلاحظ أنّ الكاتب يقدم لنا من خلال هذه المقاطع صورة عن البنية النفسية للأب التي تتسجم و تتطابق تماما مع بنية النظام الاجتماعي الذي انبثقت منه و مفارقاته و كأنّ الابن يحاول عبر الكتابة « الإنتقام من سلطة الأب متماهية في الوقت ذاته معها في القسوة و العدوانية ممّا يعطيها شعورا عاما بالارتياح و التّفيس ممّا هي فيه من غبن و قهر»⁷¹ و من مشهد الموت و الدفن إلى مشهد التّميز ، حيث الإحساس بالتهميش و الاحتقار الذي يمارس الآخرون على عالم الطفولة، بل إن الأمر ليستقل حتى يمتد إلى عالم الموتى و القبور «التقطت أعصانا من الريحان من فوق القبور الجميلة و وضعتها على قبر أخي... تألمت

محمد شكري - الخبز الحافي - دار الساقى - بيروت - الطبعة الثامنة - 2004 - ص 9 64

65 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 9

66 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 10

67 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 10

68 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 12

69 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 12

70 المصدر نفسه - ص 13

71 أحلام واصف مسعد - مرايا الأب و السلطة - قراءة سوسيو ثقافية في السيرة الذاتية العربية المعاصرة دار أزمنة -

الأردن - الطبعة الأولى 2006 - ص 66

للقبور المنسية، تكسوها نباتات وحشية بعضها منهار، حتى هنا عندهم الأغنياء والفقراء»⁷² الإحساس بالظلم، من البعيد والقريب وغيرها من الأحاسيس، تتراكم في نفسية الطفل لتتجرأ أسئلة محرجة للألم «لماذا لا يعطينا الله مثل ما يعطي للآخرين؟»⁷³ تقف الأم مذهولة أمام أسئلة الطفل الصغير تترجمه عن طرح الأسئلة، لأن المسألة مرتبطة بالزمن، لأنه عندما يكبر يعرف كل شيء، ثم يقدم لنا الكاتب صورة عن مشهد الاحتقار والإحساس بالدونية «بيني وبين أطفال الحي فوارق تجعلني أحس أنني أقل منهم رغم أنني كلهم بائس مثلي... يقولون عني هو ريفي جا من بلاد الجوع والقتالة»⁷⁴ إن الطفل الصغير تتراكم لديه أحاسيس الاحتقار والإهانة، لأنه ريفي جائع، يأكل الحيفة وهو في نظر أهل المدينة نازح يحمل معه أطنانا من السذاجة وصنوفاً من الأوبئة والأمراض تتوالى الصور عن محنة الطفولة لتبلغ ذروتها مع مشهد الانحراف والسرقة «شجرة إجاوص كبيرة تغريني كل يوم، ذات صباح باكر ضبطني صاحب البستان أسقط له إجاوصاته الكبيرة الناضجة، بقصبة طويلة، هو يجرنني، وأنا أحاول باكيا التخلص منه... قال لزوجته: ها هو البرغوث الذي يفسد لنا شجرة الإجاوص يفسد أكثر مما يأكل مثل الفأر»⁷⁵. لقد غدا الطفل الصغير الجائع فأرا يفسد، بل هو أحقر من ذلك في نظر صاحب البستان بل هو حشرة ضارة. ومن المفارقات العجيبة أن الطفل يعترف أن صاحب البستان الذي حبسه في البيت أقل قسوة من أبيه بل يتمنى لو كان أباه الحقيقي، ثم يعبر الكاتب إلى رصد معالم الشقاء الذي مرّ بها طورا طورا، وذلك من خلا ل وصف المهن التي باشرها، من عمل السخرة عند الجيران الاسبانيين، ثم عاملا بالمقهى، وسط الحشاشين والسكراري، من السادسة صباحا حتى ما بعد منتصف الليل، ثم عاملا شاقا في الورشات «أدفع عربة يد مشحونة بالطين أو القرميد ثماني أو تسع ساعات في اليوم، انسلخت راحتني ودميتا، خشن وجهي بالشمس والغبار واشتد جسمي مثل الطبل»⁷⁶ يخترق عالم التشرّد أكثر فأكثر، يعمل مساح أذوية في المقاهي والحانات ثم بائع صحف، حملا في المحطات، فلاحا يتلم الأرض بالمحراث وهو عمل لا يتقنه، فتتاله لعنات متوليات وشتائم من صاحب الأرض طيلة النهار. إن هذه الضغوطات الحياتية المستمرة وأدت إحساسا بالغرابة والوحدة في هذا الوجود غير العادل في نظر الطفل الصغير، فباتت الذات المعذبة لا ترى في الوجود سوى صورة للتمزق والعذاب يقول الكاتب: «وحدي أراني في مرآة نفسي، العالم يبدو لي مرآة كبيرة مكسرة وصدئة أرى فيها وجهي مشوها»⁷⁷ تدفع الآلام الحادة بالطفل الصغير إلى أن تتولد لديه نزعة عدوانية اتجاه الغير، يتسلق شجرة، لكنه يفشل في ذلك، يسرق صحيفة من نطف من المرأب، «أفرغت الصحيفة كلها على جذعها وأشعلت النار، منظر اللهب بدا لي رائعا... تخيلت أن النار ستمتد وتمتد حتى تحرق كل الأشجار»⁷⁸ لقد تحوّل مشهد النار الذي هو مشهد مروّع ومخيف، إلى مشهد جميل ورائع وهذا ما ينم عن شذوذ في الطبع ونزعة عدوانية دفينية، تتمنى حرق كل شيء في طريقها. إن الذات الطفولية المعذبة تنتقم في عالم الأماني من الغير، فكما حرقها بالتهميش والجوع والأعمال الشاقة والتشرّد فهي تهتدي إلى حرقه والانتقام منه ولو في عالم الخيال والأمني، إنه حلم الضعيف في عالم الأقوياء القساة.

ومن المشاهد الحية التي تملأ فضاءات النص الاعترافي لدى محمد شكري مشهد التشرّد والبحث مأوى في الليالي الشتائية الباردة، النوم قرب المخبزة بحثا عن الدفء وعلى مقاعد المقاهي، التي يعمل فيها الساعات الطوال ليل نهار، يروي أنه أوى إلى فندق متميز يقتسمه البشر والدواب، فنصفه العلوي للبشر ونصفه السفلي اصطبيل للدواب، مساحة مشتركة بين البشر والبهائم، مفارقة أخرى عجيبة، تشهد على الكرامة الإنسانية المهانة، يتسقط في إحدى الليالي على وقع نفايات الحيوانات التي تكتسح جسده، لأنه لم ينم في القسم العلوي، بل بات مع الدواب، استيقظ مذعورا يبحث عن قطعة صابون ليغسل جسده حتى لا يمرض كما نصح له النزلاء، في هذه اللحظة المأساوية تذكر مقولة أبيه الفاسي حين يذكره باستمرار أن النوم والأكل في البيت لابد أن يدفع ثمنه. تنتهي رحلة الكاتب إلى السجن يقبع فيه لاهثا، شاتما للشرطة: «لقد اصطادونا كما تصطاد الفئران»⁷⁹. وفي السجن بدأ محمد شكري يتعلم الحروف ويلج عالم القراءة والكتابة. الكتاب في صميمه وعبر كل المشاهد والمواقف السردية يجسد رحلة الجوع التي مسّت شغاف وجدان، و لذلك ليس من باب الصدفة أن يختار لفظ " الخبز الحافي " عنوانا

72 محمد شكري - الخبز الحافي - دار الساقى - بيروت - الطبعة الثامنة - 2004

- ص 15

73 المصدر نفسه - 18

74 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 17

المصدر نفسه - ص 19 75

76 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 39

77 محمد شكري - الخبز الحافي - ص 31

78 المصدر نفسه - ص 55

79 محمد شكري - الخبز الحافي - دار الساقى - بيروت - الطبعة الثامنة - 2004

- ص 187

لكتابه، فهذه العتبة النصية ذات انتشار واسع في المغرب العربي خاصة في الأوساط المسحوقة اجتماعيا فهي بتركيبها المجازي " الخبز الحافي " أي خبز وحده يأكل كوجبة للفقراء، يدفع ألام الجوع و كأن العنوان اختزال لطفولة الكاتب التي أضنها البحث عن أبسط لقمة تقيم صلبه . حينما نفق على العمل الأدبي الذي أنجزه محمد شكري " الخبز الحافي " باعتبارها شكل من أشكال الكتابة الاعترافية، نرى له شهرة طبقت الأفاق، و دراسات نقدية أعطته حفا من الدراسة و التشريح ما لم يتح لغيره، بل و قد بلغت درجة الاستهلاك، و لعل النيل من المقدس و تجاوز الأعراف الاجتماعية و الدينية و الأخلاقية هو الذي صنع هذه الشهرة خارج البلد الأصلي للكتاب حيث عرفه قراء الفرنسية و الانجليزية و الاسبانية قبل قراء العربية، بيد أن ثمة سببا وجيها لا يمكن تجاهله وهو الأحداث الطفولية المروعة و القاسية التي يصعب تصوّرها في مجال الخيال، فكيف إذا كانت واقعا يوميا عاش الكاتب حيثياته و تقاصيله، هل هي رحلة لجد الذات أم هي إدانة للأبوة السلبية الظالمة، أم للأعراف الاجتماعية التي تتلاشى فيها معاني العدالة و التضامن، لعل هذا ما نفق عنده بالتفصيل في الفصول اللاحقة أثناء الحديث عن بواعث الكتابة سواء عند محمد شكري أو غيره ممن ولجوا عالم الكتابة الاعترافية في الأدب العربي الحديث .

و من عالم الأبوة القاسية و التّشرد و الجوع إلى عالم الأمومة السلبية مع الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان (1917- 2003)، لقد عاشت فدوى حياة مأساوية تعجّ بالنكبات، حيث توفي والدها ثم توفي أخوها ومعلمها إبراهيم ثم احتلت فلسطين إبان نكبة 1948، تلك المآسي المتلاحقة تركت أثرها الواضح في نفسياتها كما يتبين لنا من كتابها "رحلة جبلية... رحلة صعبة" تقدّم لنا فدوى طوقان صورة مخالفة عن الأمومة المثالية التي يخزنها أي إنسان في ضميره وجدانه، تقول فدوى طوقان: «خرجت من ظلمات المجهول إلى عالم غير مستعدّ لتقبلي. أمي حاولت التخلّص مني في الشهور الأولى من حملها بي. حاولت وكرّرت المحاولة ولكنها فشلت. عشر مرات حملت أمي، خمسة بنين أعطت إلى الحياة وخمس بنات، ولكنها لم تحاول الإجهاض قط إلا حين جاء دوري... هذا ما كنت أسمعها ترويه منذ صغري... كانت مرهقة متعبة من عمليات الحمل والولادة والرضاع⁸⁰ فالعلاقة بالأم فاترة، هشّة و حين تبحث عن البديل في أبيها لا تجد العوض و لا الدفء الذي تحلم به « ظلّ البعد النفسي الذي يفصلني عن أبي شاسعا، وظلّ الصمت هو لغتنا المشتركة، لم أكن أحمل لأبي عاطفة قوية، ظلّ شعوري تجاهه أقرب ما يكون للحيادية»⁸¹ هكذا تبدأ فدوى كتابها رحلة من المعاناة و الاضطهاد الطفولي، رحلة وجودية مطبوعة بالرّفص و-القهر منذ لحظة الولادة... فمع الولادة تولد أيضا عقدة الأوثنة فهي مرفوضة كأنثى قبل أن ترفض على أساس أنّها ابنة هذا المشهد يحيلنا إلى مشهد الواد الذي يعيش في لا شعور الصّمير الجمعي العربي منذ عدّة قرون مشهد التّدسية و التّغيب و قد يتخذ أشكالا متباينة عبر الممارسة اليومية فالشاعرة فدوى تلاحظ أنّ الأب حين يطلب منها شيئا لا يخاطبها بشكل مباشر بل بضمير الغائب و كأنها لا تملك حضورا في المكان و لا حضورا في البيت الذي هو في معظمه من الأبناء حيث تظهر فيه سلطة الرجل قوية واضحة. ثمّ تنتقل بمزيد من المرارة البوح بمشاعر في غاية الدقة و الخطورة لأنها تستبطن عالم الطفولة و تسترجع لحظات الاغتراب التي عاشتها بين أقرب المقربين إليها، بيد أنّهم كانوا أبعد البعيدين عنها، حين شعرت كأنها شيء ما في البيت كالآثاث، جامد لا روح فيه، يقع في مكان ما، تقول: «لم تكن الظروف الحياتية التي عاشتها طفولتي مع الأسرة لتلبي حاجاتي النفسية، كما أنّ حاجاتي المادية لم تعرف في تلك المرحلة الرضى والارتياح... لقد ظللت أتلهف للحصول على دمية تغمض عينيها وتفتحها وكنت استعويض عن دمية خرجت من مصنع بدمية تصنعها لي خالتي أم عبد الله وابنة الجارة علياء من مزق القماش وقصاصاته الملونة.... وكان شحوبي ونحولي مصدرا للتندر والفكاهة، وإطلاق النعوت الجارحة عليّ! تعالي يا صفراء، روجي يا خضراء... ابنة عمي شهيرة كانت تكبرني بأربع سنوات وحين مانتت في الرابعة عشرة من العمر بمرض الروماتيزم لم يهزني موتها! كانت تعذبني بترفعها وتعاليتها عنّي. ترشقني باستمرار بنظرات عدائية قاسية، وقد نشأنا في نفس الدار والبيئة ولم أكن لأهتدي إلى سبب كرهها لي، فقد كانت مدلّلة من قبل والديها وتتمتع بالحبّ والاهتمام اللذين ظللت أتوق إليهما في طفولتي، كان لها قرطان ذهبيان يتدليان على جانبي عنقها الأبيض وكنت أحب حركة القرطين وهما يرقصان كلما حركت رأسها! وكم تمّنيّت لنفسي مثل هذين القرطين البراقين الرّاقصين، ولكن هيهات، فما كان أحد ليغني بتلبية حاجاتي المادية دعك من حاجاتي النفسية»⁸²... لقد أحست منذ اللحظات الأولى للوعي الطفولي أنّها في عالم ينبذها و غير مستعدّ لتقبلها، فتاريخ الميلاد الذي تحتفظ به الذاكرة عادة ولا تتساه، بل هو عند الكثير من الناس يوم احتفالي توفد فيه الشموع و تتهيأ له القلوب لصنع البهجة و السرور قد ضاع من ذاكرة الأبوين كما ضاع

80 فدوى طوقان - رحلتي... رحلة جبلية صعبة - دار الشروق للنشر و التوزيع - الطبعة الرابعة - 2009 - ص 12

81 فدوى طوقان - رحلتي... رحلة جبلية صعبة - دار الشروق للنشر و التوزيع - الطبعة الرابعة - 2009 - ص 14

82 فدوى طوقان - رحلتي... رحلة جبلية صعبة - دار الشروق للنشر و التوزيع - الطبعة الرابعة - 2009 - ص 21

الحنين من قبل « تاريخ ميلادي ضاع في ضباب السنين كما ضاع من ذاكرتيهما » أسأل أمي... لكن يا أمي في أي فصل؟ في أي عام؟ و تجيب ضاحكة كنت يومها أطهي "عكوب" هذه شهادة ميلادك التي أحملها»⁸³ إن حالات الميلاد المختلفة للفلسطينيين، لم تكن أحسن حظا في ذلك الزمان، إلا أن الكاتبة أبدت غرابة و امتعاضا من هذا الحدث من خلال التركيز الموجّه حيث تلخّ في مناسبات متعدّدة لإثارته، فيوم أرادت استخراج جواز السفر قالت لها والدتها «أنا أدلك على مصدر موثوق يمكنك التيقن من عام ميلادك، فحين استشهد ابن عمي كامل كنت في الشهر السابع من الحمل... قلت لها و أنا أضاحكها دليني إذن علي قبر ابن عمك فلم يبق أمامي إلا أن أستخرج شهادة ميلادي من شهادة قبر ابن عمك...»⁸⁴ مفارقات عجيبة أن تستخرج شهادة الميلاد من شهادة القبر. إن فدوى تمنح للحدث دلالات نفسية عميقة تتم عن حس مرهف، وعن رغبة في إظهار صورة الأم على غير مألوفها في الذاكرة و الوجدان الجمعي و كأن كل الجزئيات التي ترويه تحيل إلى معاني الموت و التهميش الذي تقاومه الشاعرة و من هنا اكتسب هذا الحدث دلالة نفسية لها أهمية عظمى في قيمة المعطيات النفسية التي ستشكل حياة الشاعرة الاجتماعية و القنبية فيما بعد، وقد كانت الشاعرة جدّ صادقة صدقا يبعث على الرثاء و الألم و هي تسرد الأحداث الجزئية من عالم الطفولة حين تعطيها مساحة مؤلمة. و على سبيل المثال فإن ضياع التواريخ و الأحداث تعتبر سمة عصرية بارزة في ذلك الزمان: «كانت أمي كجميع الناس في بلادنا، تؤرخ الوقائع بأحداث بارزة رافقت تلك الوقائع»⁸⁵ لكنّها في أعماقها كانت تشعر بواقع الظلم و الحرمان ولم تكن أبدا راضية عن تلك الطفولة، كما كانت تشعر شعورا حادا بمركب النقص تجاه بعض الأقارب، هذا النقص الذي تحوّل مع مرور الزمن إلى كراهية و حقد تبوح به الشاعرة دون أن تجد له تفسيراً، خاصة في معرض حديثها عن ابنة عمها التي لا تتوانى في التعبير عن مشاعر العداء تجاهها كردّ فعل طبيعي على ترفّعها و تعاليها عليها و نظراتها العدائية القاسية و التدلّل و الاهتمام الذي كانت تحظى به من قبل والديها و التي كانت فدوى تتوق إليه توقان الظمأ للماء الزلال. و ليس هذا فحسب بل تتفاهم مشاعر الرّفص للواقع الأسري و لصورة الأب لتشكل عقدة الإخفاء إزاء الأب كما يسمّيها بعض الدارسين «و قد عانت الكاتبة من عقدة الإخفاء حتّى بعد أن كان يطلب منها الأب كتابة الشعر السياسي بعد وفاة ابنه إبراهيم كانت تتجاهل هذا الطلب كردّ فعل انتقامي و جزائي لعملية التهميش و التغييب... و لم تنفك هذه العقدة على الرغم من شدّة الاضطرابات السياسية في الوطن العربي إلا بعد أقول نجم الأب و وفاته»⁸⁶ إن الحديث عن الطفولة عند فدوى هو مرادف للحرمان المادي و النفسي يتجلّى ذلك من خلال الحجم المخصّص للطفولة في كتابها و من خلال التركيز على الجزئيات التي هي في نظر الكثير منّا جزئيات عابرة قد تواجه أي طفل في مجتمع متخلف تنتشر فيه الأمية و الظلم الاجتماعي و يزرع فيه الوطن تحت وطأة الاحتلال. ربّما كانت طفولة فدوى و واقعها أفضل من كثير من طفولات أترابها، لكنّها ترى أنّ الظروف الحياتية التي عاشتها طفولتها مع الأسرة لم تلبّ حاجاتها النفسية، كما أنّ حاجاتها المادية - في تلك المرحلة - لم تعرف الرضى و الارتياح. و مع أنّ هذا المشهد لا يشير إلى طفولة مسحوقة، أو ظروف حياتية قاسية، إلا أنه يؤكد على طبيعة الإحساس لدى هذه الطفلة، هذا الإحساس المرهف الذي جعل شخصية الكاتبة تتشكل تحت ضغط المؤثرات النفسية.

ليست الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان وحدها التي كابدت المحن في عالم الطفولة و لا الكاتب المغربي محمّد شكري، بل إنّنا أمام كتابات اعترافية متعدّدة خصّص حجم منها كبيرا لمعاناة الطفولة و كأنّ المشهد يتكرر بنفس التفاصيل غير أنّ الأسماء والأشخاص و الأماكن هي التي تتغيّر ففي نفس السياق يصوّر عبد الحميد جودة السحار الأجواء التي رأى فيها عالم النور، و كيف تمّ استقباله من قبل الوسط العائلي، في مناخ نفسي مضطرب يموج بالرّفص و خيبة الأمل، هو شبيه إلى حد كبي، بعالم فدوى طوقان في رحلتها الجبلية الصعبة يقول الكاتب: «و علا في الغرفة بكاء و ليد جاء إلى الدنيا رغم أنّه يستقبلها بالوعيل ليبدأ رحلة الموت... فطنت أمي إلى ما في نبرات الأصوات من خيبة فسرى في جوفها خوف فراحت تفحص عن الوليد الذي وضع إلى جوارها فكفهر وجهها و أولته ظهرها في غضب قد كنت ذكرا و لم أكن أنثى كما كانت تتمنى.... أبت أن تلقمني ثديها حتى أتسرّب إلى بطن الأرض... أحاط النسوة بسرير أمي و أخذن يتوسّلن إليها... و وضعوني في حجرها.... فراحت تعتمر ثديها بين أصابعها ليتدفق اللبن إلى فمي فتدبّ الحياة في الكائن الذي بدأ ينتشبت بالحياة منذ أن عرف الهواء طريقه إلى رئتيه... و جنبت إلى الحياة غير راغب فيها و غير مرغوب في»⁸⁷.

83 فدوى طوقان - رحلتي... رحلة جبلية صعبة - ص 15

84 المصدر نفسه - ص 14 / 15

85 فدوى طوقان - رحلتي... رحلة جبلية صعبة - 13

86 أحلام واصف مسعد - مرايا الأب و السلطة - قراءة سوسيو ثقافية في السيرة الذاتية العربية المعاصرة ص 111

عبد الحميد جوده السحار - هذه حياتي - مكتبة مصر للطباعة - الطبعة 1974 87

يبدو لنا جلّيا الحظّ العاثر لدى طائفة من الكتاب ذكورا كانوا أو إناثا لأنهم جاؤوا إلى عالم مشحون بالمآسي و الأحران غير مستعدّ لتقبّلهم فلم تكن رحلتهم في الدنيا رحلة حياة و متعة و إنّما رحلة موت و عذاب لذلك نراهم يحرصون على جمع معلومات عن لحظات الميلاد من الوسط الأسري تتعلّق تارة بالأُم و تارة بالأبّ و أخرى بالإخوة وهكذا و معظم المشاهد الملتقطة تصبّ في اتجاه و احد ، هو استعراض للألم الوجودي الذي طحنهم سنوات طوال و عايشوا مآسيه دون أن تكون لهم أدنى يد فيه

الفضاء الروحي

القلق سرّ من أسرار الحياة و له ارتباط وثيق بأصل الوجود الإنساني، فقد وجد مع الإنسان السؤُول المتطلع إلى سبر أغوار المجهول و معرفة كنهه. و له مساحات متعددة فقد يبحر الإنسان فيها تارة باتجاه الروح و تارة باتجاه المادة غير أنّ ثمة حقيقة يجدها الإنسان المفكر في توعيته لذاته، وهي الشعور بقدرته على إخضاع كل شيء لفكره وتأملاته . فالقلق ظاهرة من الظواهر الإنسانية و هو روح الإبداع المتوقع في ذهن الإنسان و هو سرّ نجاحه، أو فشله في فهم أسرار الحياة وإدراك حقائق الوجود.

و في تاريخنا الإنساني ، نماذج كثيرة عبّرت عن هذا القلق الرّوحي وسعت لتأسيس قناعات و بناء إيمان راسخ بكبريات حقائق الوجود الإنساني. كان للقلق الروحي تأثير عميق في حياة الإنسان، منذ وجد على ظهر الأرض، فهو رفيق الأنبياء، و عنوان التّوبة نلمس ذلك على سبيل المثال في تجربة إبراهيم عليه السلام. فقد نظر إلى السّماء ، فرأى كوكبا، فقال: " هَذَا رَبِّي " ثمّ اتّبعه ببصره حتى غاب " فَلَمَّا أَقَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ " ثمّ نظر إلى القمر ، فرآه بازغاً، فقال: " هَذَا رَبِّي " ، ثمّ اتّبعه ببصره حتى غاب " فلما أفل قال لئن لم يَهْدِنِ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّالِّينَ ."

قال بعض المفسرين في قوله تعالى : " هَذَا رَبِّي " أي مولاي و مدبر أمري وذلك في مقام النظر و الاستدلال لنفسه كما روي في التفسير المأثور من عبادته عليه الصلاة والسلام لهذه الكواكب في صغره إتباعاً لقومه حتى أراه الله تعالى بعد كمال التمييز حجته على بطلان عبادتها و الاستدلال بأفولها وتعددها وغير ذلك من صفاتها على توحيد خالقها و أن ذلك كله كان قبل النبوة ودعوتها⁸⁸. و إن كان بعض المفسرين يرى أن إبراهيم عليه السلام قال « هَذَا رَبِّي » على وجه التَّنَزُّل مع الخصم قصد إقامة الدليل على بطلان عبادة غير الله... فالمقام مقام مناظرة من إبراهيم عليه السلام لقومه وبطلان إلهية هذه الأجرام العلوية و غيرها وأما من قال أنه مقام نظر في حال طفولته فليس عليه دليل⁸⁹ ومهما يكن فإن فكرة القلق الروحي و البحث عن اليقين هي فكرة قديمة ارتبطت بوجود الإنسان، فالقلق كان التربة الغنية، التي غذت عملية البحث عن الحق غير صورته المتجلية في مظاهر الكون، واستمرار التجربة و الإلحاح في طلب المراد هو الذي أثمر في نهاية المطاف بناء المعتقد وتأسيس المبدأ حتى و إن خالف الآخرين رغم عددهم و سلطتهم إذ قال - كما نصت عليه الآية القرآنية -: " يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجْهِي وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " .⁹⁰

الاضطراب و القلق، يتعاضم حول تجربة روحية قلقة، وإذا ما بحثنا عن المكان، الذي تأخذ فيه التجربة

88 محمد رشيد رضا - تفسير المنار - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية - (د ب ت) ص 557

89 عبد الرحمن بن ناصر السعدي - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - دار ابن باديس - الجزائر الطبعة الأولى - 1999 - ص 261

90 سورة الأنعام الآية رقم : 79

مكانها، إن صحَّ مدلول لها في عالم الفكر والروح هو القلب. ولعلَّ هذا السرُّ في سؤال إبراهيم عليه السلام لربه « رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي »⁹¹ و نظير هذا أيضا ما لمسناه عند نبي الله موسى: « قَالَ رَبِّ أَرِنِّي أَنْظِرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنْ أَنْظِرْ إِلَيْنَا الْجَبَلَ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ »⁹². فالقلب محكمة الإنسان العادلة، و هو الدليل الذي يقود الإنسان إلى السعادة الباطنة والسكينة الروحية. إذن فالقلق الروحي عند الإنسان قديم و له أهميته البالغة والكاتب المبدع حينما يقدم لنا تجربة اعترافية من هذا النوع هو في حقيقة الأمر يثري تجربتنا الحياتية، و يساعدنا على التّقدم و تطوير ذواتنا على مستويات متعدّدة .

ثمّة شيء آخر مهم تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد و هو أنّ هذه التجارب الخاصة، لا تتجلى عن طريق القمع، أو الاستبداد، و التّصعيد، اللذين يألّفهما الواقع الاجتماعي والفكري، و الثقافي، و الروحي أيضا، بل عن طريق تنامي قوى واعية، تبلغ الذروة بتبلور حقيقي عبر مسارات الزمن و التجربة الإنسانية الصادقة. و لقد عرفنا هذه التجربة في بعض ألوانها مع أبي حامد الغزالي وكتابه "المنقذ من الضلال" إذ اجتهد المؤلف في عرض و تحليل صراعه الروحي، و محاسبته لنفسه عما اقترفته من آثام، و ما بذله من جهد و سلكه من سبيل لتطهيرها و السمو بها، و كذلك " الفتوحات المكية" لمحّي الدين ابن عربي المتوفى سنة 638 هجرية، الذي يعتبر إلى جانب رسالته في مناصحة النّفس نموذجا للحديث الدقيق و العميق مع النفس و هواجسها و الروح و تطعاتها و غيرهم كثير في تراثنا العربي الإسلامي القديم و الكتابات المعاصرة أيضا. و في هذا المبحث سنلقي الضوء على شكل من الكتابات الاعترافية جعلت من هواجس الرّوح و البحث قناعات دينية تسكن إليها الروح و يطمئن لها القلب موضوعا لها و من هؤلاء اخترنا تجربة الكاتب العراقي نمير عبد العزيز الأعرجي الموسومة " رحلة في قبول الذات " وهي تشتغل في مساحات الفضاء الروحي و تجربة القلق الفكري و النّفسي النّاشئ عن ضرورة تأسيس منهج اعتقادي سليم بعيدا عن التقليد للأعراف المتوارثة أو سلطة الأسرة أو المجتمع هناك العديد من الكتابات الاعترافية التي استعرض فيها أصحابها تجربة القلق الروحي و رحلة البحث عن معتقد سليم تسكن إليه النّفس و تجد فيه سعادتها، نذكر من هذه الكتابات تجربة الكاتب الجزائري محمّد أزوار الموسومة بـ " كُنْتُ مَسِيحِيَا " و صف فيها سياحته الفكرية و الروحية و كيف أنّه انتقل من الدين الإسلامي إلى تبنّي الديانة المسيحية و بعد اضطراب و قلق نفسيّ مستديم و قراءات متعدّدة في الإنجيل و التوراة و القرآن عاد مرّة ثانية إلى الإسلام. كشف من خلال تجربته دور الحملات التبشيرية و جهود القساوسة في الجزائر و بشكل خاص في أوساط الشباب كي يحملوهم على تغيير دينهم تحت وطأة الإغراء المادي و المعنوي من ناحية و تهديدات الممارسات الإرهابية - باسم الإسلام - من ناحية ثانية و كذلك تجربة الكاتب التونسي محمّد التيجاني السّماوي الموسوم بـ " ثمّ اهتديت " ذكر فيه رحلته من المذهب السنّي إلى المذهب الشيعي بعد قراءات كثيرة و رحلات عديدة من تونس إلى العراق إلى مصر بحثا عن قناعات دينية صرفة، لكننا في هذا البحث أترنا الوقوف عند تجربة الكاتب العراقي عبد العزيز نمير الأعرجي لأنّها تجربة خصبة و ثرية و مكمّن خصوصيتها في عمق معاناة كاتبها من أجل تأسيس منهج عقائدي سليم يفضي إلى السكينة الروحية يضاف إلى هذا امتدادها الزماني و المكاني فقد أخذت من عمر الكاتب سنوات طوال، حملته على الانتقال من بلد إلى آخر عبر قارات ثلاث أمريكا و أوروبا و آسيا و كأنه رحالة في عصر الاكتشافات الجغرافية .

يرى الكاتب عبد العزيز الأعرجي أنّ رحلته الروحية لا تختلف عن الكثيرين لأنها في عمقها أيضا قصة الآخر في هذا العصر المشحون بالتوتر والضغوطات المادية والنفسية لقد عاش الكاتب معظم حياته مهاجرا تارة في كندا وتارة في ألمانيا وأخرى في بريطانيا بل يمكن القول إنه عاش في قارات ثلاث وفي العشرين عاما الأخيرة رحل إلى دواخل ذاته بحثا عن حقيقة يسكن إليها، فوجد أنّ أهم إنجاز للإنسان هو أن يقبل ذاته ويعود إلى فطرته. يقيم الكاتب تجربته الروحية قائلا: «أخذني سعبي هذا إلى ثلاث قارات وإلى أركان ذاتي، أخذني من إنسان مغلق إلى ما هو أوسع، وأخذني من الإلحاد إلى الإيمان، مررت في سعي هذا بالبودية والصوفية وتطرفت إلى كثير غيرها، كلما تقدّمت في رحلتي هذه ازددت تألقا وجمالا إذ كما يقترب أحدنا من الفطرة يتألق نوره ويزداد جماله»⁹³. يعترف الكاتب بداية أنّه كان ملحدا لا يؤمن بأيّ دين على الإطلاق بل كان ينكر وجود عوالم غيبية يقول الكاتب «مع حلول عام 1978 بدأت عن جديد أشعر أنني أسير في طريق يرصني الآخرين و لكنّه لا يشبع ما في داخلي، شعرت بفراغ يدعوني إلى تغيير ما أنا فيه... دخلت كندا مهاجرا ومن جديد هيا لي القدر الظرف لأنجح نجاحا باهرا... نظرت إلى المستقبل فرأيت أمامي إمكانية القفز إلى دائرة رجال الأعمال المرموقين في مدينة "فانكوفر" لكنّي تأملت الموقف وراجعت أولوياتي ماذا أعمل بهذا كلّ»⁹⁴ مشاعر القلق والتردد تسكن الكاتب وهو في حالة من الصراع المرير مع ذاته فداعي النفس يهتف بالإقبال على الحياة والاستزادة من المال والشهرة التي كانت تسبق الكاتب إلى المدينة التي يقصدها سواء في كندا أو بريطانيا أو ألمانيا يقول: «تحقق ما ظننته مرادي، المال، الجاه، البيت في الجزء المميز في المدينة لكن عن جديد السعادة ما استنشقت رحيقها، جوفي فارغ وما زال يحثني إلى أمان ما... حتى الزوجة والأولاد والأصدقاء وجدت أمانهم مشروطا يدعوني عند التجربة جربت إعطاهم فوجدتهم يريدونني، حاولت منعهم فوجدتهم يذموني»⁹⁵ إن حالة الفراغ الروحي تولد لدى المرء إحساسا مميزا يجعل الإنسان يفقد الثقة في كل شيء بل في أقرب المقربين حيث يخضعهم للتجربة وهذا مما يزيد في تعميق مأساة الإنسان وشعوره بعيشة الأشياء بما في ذلك العلاقات الإنسانية ف لحظة الفراغ تجعل الزوجة والأولاد والأصدقاء مجرد شريك مادي، استمرار العلاقة به مرتبط بالجاه والمال ولعلّ هذا الإحساس هو الذي يدفع بالكاتب لإخضاعهم للتجربة حتى يتأكد من صحة أفكاره وهو في نفس الوقت لا يزداد إلا ألما وحسرة في التعامل مع من لا يستحق التعامل يبدو أن الكاتب يعيش حالة من الظمأ الروحي لكنه يخطئ الطريق في الوصول إلى مبتغاه يقول: «رأيت أنّ كل ما أنجزته خذني، لم يف بما وعد أين ذهب؟ إلى متى الكذب؟ لا ملجأ من الحقيقة إلا إليها، بكيت ثم بكيت بكيت أطلب النجدة يقيم يبكي لعلّه يأتيه شيء ما»⁹⁶ حالة التوتر الروحي تتفاقم لدى الكاتب يغذيها الإحساس بالتفوق في المجال المادي في الذي يتحقق في عالم السفر والتجارة بيد أن الإحساس بالفراغ يتعاظم فيرى أنّ منجزاته المادية هي مجرد سراب خذله ولم يقربه شيئا من الحقيقة التي ينشدها لذلك ينتابه شعور باليتم وفقدان الملاذ الحامي والحاني الذي تسكن إليه النفس لذلك يتحوّل الكاتب في بعض اللحظات إلى طفل صغير يبكي بكاء مريرا لعلّه يحصل على مرغوبه الغامض الذي يسعي إليه باستمرار. الحقيقة أنّ الإنسان له تكوين وبناء خاص يختلف كثيرا عن بقية المخلوقات له احتياجات مادية ترتبط بطبيعة بعده الجسمي حيث يحتاج إلى الأكل والشرب والسكن وهي أشياء ضرورية لا تستقيم حياته بدونها وفي غيابها تضطرب حياته ويقع في خلل مستمر مع الآخرين الذين يتعامل معهم في معترك الكدح اليومي، بيد أنّ الحاجيات المادية وحدها لا تكفي فلا بد من حاجيات تشبع النهم العقلي من خلال الحصول على مقادير معينة من الممارسة العلمية والنشاط الفكري و يضاف إلى هذا التطلعات الروحية، فلروح أشواقها ومتطلباتها وهي ذات تأثير فعال وخطير على سير الجوانب الأخرى من حياة الإنسان بما في ذلك الجانب المادي المحض ولذلك نلاحظ ونحن نستعرض تجربة الكاتب العراقي نمير الأعرجي أنّه ملك الكثير من أسباب المادة التي يحتاجها الإنسان من مال وجاه وأسرة وبيت وما إلى ذلك من البهارج المغرية التي قد تدلّ فيها ظاهرها على من امتلك ناصيتها أنّه إنسان سعيد غير أنّ الاعتراف الصادق يحيلنا إلى معاني الإحباط واليأس والفراغ والظمأ الروحي الذي في ظلّ مكابذاته تفقد النفس استقرارها وسعادتها. يبدأ التّصالح مع الذات ويلوح للكاتب مخرج مما هو فيه من خلال الحوار المثمر مع الآخر فقد حدث أنّ التقى مع أحد أقارب زوجته بلبنان يقول عقب هذا اللقاء «خرجت إلى شرفة المنزل لأرى ما في الخارج، نظرت محدقا في الظلام الكاتب يؤكد عبر قرائن متعددة أنّه يعيش حالة من القلق النفسي مبعثها المشاعر المتناقضة التي تضطرم في داخله فهو يتعلّق بكل ما هو مادي ويربط به إيمانه وفي نفس الوقت ينفي وجود الغيبيات وهذا مكن المعاناة لكن بعد هذا اللقاء في لبنان مع قريب لزوجته حاول أن يكون صادقا مع ذاته «نداء الصّدق في داخلي دعاني لأصدق... أتى ما تحدّى نفسي لتصدق، فصدقت حينئذ شهدت بوجود الغيب تغيير عالمي توسع وجودي أسئلة كثيرة كانت عالقة في ذهني بلا إجابة عليها لتعقني بالمادة فقط أصبح جوابها الآن واضحا»⁹⁷ هكذا نلاحظ أنّ الكاتب وبعد أن اتخذ موقفا من عالم الغيب والروح وأقرّ بوجودهما أنتقل في حياته نقلة نوعية وكأنّه استرد مفقودا عزيزا وبدت له الحياة رسالة واتصال بكامل الوجود وممارسة التّكامل معه وشعر بسعادة عارمة وهو يسبح في عالم الروح والحقيقة الغيبية لكن عالم الروح والغيب له طرق عديدة وأصحاب الديانات والمعتقدات

93 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 8

94 المصدر نفسه - ص 26/27

95 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 28

96 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 8

97 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 32

كثير فإلى أين يتجه؟ و من من هؤلاء يملك الحقيقة ويديه قارب النجاة؟. وفي هذه المرحلة يبدأ الكاتب رحلة روحية ثانية بحثاً عن ملاذ روحي آمن تطمأن إليه الروح و يسكن إليه القلب و تقبل به النفس يقول «أواخر 1982 لجأت إلى مجموعة من البوذيين الكنديين كانت غايتي أن أتعلم التأمل بجدية ... التأمل تكتيك غايتته أن يدرك الإنسان ما يدور في نفسه، قلبه و باقي وجوده و ليس من السهل أن ندرك ما يدور في أنفسنا فإن أكثرنا محبوب عما يدور فيها و آلية سيطرتها علينا... حين تستحوذ النفس على المعتقدات التي في القلب تكون قد استحوذت علينا»⁹⁸. طريقه للبحث عن الحق مفضلاً أسلوب المجاهدة و الصبر يشعر أنّ عملية بناء الإيمان في النفس تحتاج إلى مجهود أكبر و قلب صادق يتجرد فيه الإنسان من كل الأهواء و الغرائز و يقف بقدم راسخة محملاً بالإصرار و الثبات لنيل المبتغى يقول الكاتب: «عملية إيمان نفسي و فطمها عن الدنيا كانت و مازالت شاقّة و بطيئة فكلما شاهدت آثار الحق في داخلها و فيما حولها أطمئنت و ذرت شيئاً من «تعلقها بأهوائها و تحركت نحوه»⁹⁹.

تشتد الأزيمة الروحية على الكاتب و تبلغ ذروتها فينتقل من مرحلة التأمل و الحصول على آلياته ضمننة التصور البوذي إلى اعتناق البوذية صراحة و ممارسة طقوسها و تعاليمها في المعابد يقول: «أنا و مجموعة من البوذيين زرنا ديراً بوذياً في شمال كاليفورنيا حيث كنّا نسعى للتقدم في هذا الطريق ، التّوم في المعبد حيث تمثال بوذا و التماثيل الأخرى... كل تمثال يمثل إحدى صفات البوذا ، الرّحيم ، المدمر...»¹⁰⁰ ومرة أخرى يكتب الكاتب بتجربة مريرة سلبية لأنّه يخطئ الطريق فممارسته للبوذية عن كذب أفضت به إلى رفضها و نقدها نقداً لاذعاً إذ ارتأى أنّها جانبية للصواب بعيدة عما يبحث عنه، فكثرة التماثيل هي مغالاة في تكريم البوذا و الممارسات التي يضيفها الناس و الأتباع تشوّه الحقائق و عبر الممارسة تخرج أتباعها من دائرة الروح إلى عالم التماثيل و المادة المجسّدة، ففي نظره أنّ البوذية و غيرها من الفلسفات الروحية دخلت عليها ممارسات و طقوس أعادت الإنسان إلى عالم المادة و أضافت له أوهاماً إلى أوهامه و زادت بعداً عن الحقيقة، لذلك نراه بعد التجربة البوذية يصل إلى قناعة مؤداها ضرورة التخلّي عن البوذية و البحث عن بديل آخر «منظر الشمع و التماثيل انطبع في ذهني ليولد التّواة التي زعزعت ثقتي و قناعاتي بالبوذية كطريق لي لأصل به على عمق الحقيقة فبدأت أراقب لعلّي أجد طريقاً آخر أصل به إلى مرادي»¹⁰¹ ينتقل الكاتب من جماعة إلى أخرى ليصل إلى ما يسمي "محاضرات العمل" في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يأتي أحدهم لتعليم الناس مقابل مبلغ مالي معين يحضر مجموعة من الأشخاص ويتحلّقون حول المحاضر في جوّ من الألفة و البساطة و على سبيل المثال يعلمهم كيفية إدراك الثور و ما هي العوائق التي تحول بين الإنسان و بين عالم الأنوار من خلال رؤية الألوان و التأمل فيها و ذكر الانطباعات التي تتركها في النفس لكنّ الكاتب وجد هذه الروحانية «روحانية سطحية لا تخدم مراده و لا تغوص في الحقيقة لأنّه لا يريد أن يعيش في عالم الورد و يتدوّق القشور فقط»¹⁰² يريد أن تصل الحقيقة إلى شغاف قلبه و يتدوّقها بلسانه، ثم انتقل الكاتب إلى دير للرهبان الكاثوليك الترابيست في ولاية "أوريغون" الأمريكية و خلال وجوده في الدير تعرّف على الرهبان و على طريقة عيشتهم ثم لم يلبث أن تركهم وتوجّه إلى اجتماعات الهنود الحمر الذين حسب زعمهم يمتلكون طرقاً للوصول إلى عالم الغيب «كانوا يحتفلون بطبيعة الغزال إذ أنهم يرون أنّ كلّ إنسان عنده من صفات حيوان أو أكثر فمن كان حيوانه الغزال تراه وديعاً أما الثعلب فمكّار و الفهد شرس... من باب الفضول توقفت يومين لأشهد ما يجري... إنهم يدعون الحقيقة و تراهم فرحين بما عندهم»¹⁰³ ينصرف عنهم لاعتقاده أن هذه الطريقة لا توصل إلى برّ الأمان و أثناء تقيّباته و ترحاله من مكان إلى آخر عبر القارات الثلاث يعود إلى لبنان مرّة أخرى لينتدش ضالته لأنّ هذا البلد تعرّف من خلاله على عالم الغيب و أقرّ بوجوده و كانت منه الانطلاقة للبحث في عالم الروح و الغيبيات و في لبنان و أثناء ذهابه إلى سماع محاضرة اعترض طريقه مسلحان أيام الحرب الأهلية سألوه عن هويته ثمّ أطلق عليه أحدهم رصاصة في فخذه كسرت عظمه و من عجب المفارقات أن الكاتب بدأ يتلمس طريقه إلى الإيمان بعد هذه التجربة المؤلمة التي نالت من جسمه و سببت له آلام جسدية حادة لكن يبدو أنّ معاناة الروح و ألامها كانت أعظم و أكبر لذلك فالكاتب يستسهل كلّ صعب و لا يبالي بأيّ محذور مقابل الوصول إلى الحقيقة و نشدان الاطمئنان الروحي. يقول «بدأت و أنا أتشافى أتردد على الحدائق العامة كنت أتأمل ما حصل لي و أراجع ذاتي و أنا على عكازين... الوجود له حسناته و لإلماذا خلقه الخالق؟ الوجود أرجعني إلى جسمي لأعيش على الأرض و انتبه إلى ما حولي من جمال، قادمي الوجود لأتواضع و أتخلّى عن مزاعمي و معتقداتي، لعلّ القرآن كتاب لم يتغيّر منذ 1400 سنة ، هو الخارطة التي تدلني إلى ما أنشده»¹⁰⁴ هنا يصل الكاتب إلى المحطة الأخيرة من رحلته الروحية و ذلك بالعودة إلى القرآن الكريم و تلاوته و التدبّر في معانيه يعقب هذا الأمر الدخول في الإسلام و ممارسة

98 المصدر - نفسه - ص 29

99 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول - ص 55

100 المصدر نفسه - ص 46

101 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 48

102 المصدر نفسه - ص 39

103 المصدر نفسه - ص 49

104 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 86

الصلاة ، كانت في البداية مجرد تجربة ، لكنّ الكاتب ارتأى أنّ رحلته طالته و قد جرّب كلّ الملل و النّحل و احتكّ بكل الطوائف فلم لا يجرب الإسلام و يبدأ بممارسة الشعائر الدينية

لعلّه ينال مرغوبه ومراده الذي جاب من أجله القارات و أخذ من عمره وجسمه و ماله و طاقاته الشيء الكثير ، يقول عن هذه التجربة «جلست لأجمع نفسي و أتمالكها لأدخل هذا الدين، نطقت بالشهادة و في ذلك اليوم قبلت الإسلام كمنهج نهائي اتبعه و في ذلك الصباح صليت بنية الاستمرار في الصلاة لا بنية التجربة»¹⁰⁵ . هكذا بدأت ملامح الشقاء الروحي تتبدد و هو اجس الشك المحرق تزول رويدا رويدا من نفسية الكاتب بعد دخوله إلى الإسلام و الشروع في القيام بشعائره و خاصة الصلاة . يؤكد الكاتب بعد هذه التجربة أنّ البحث عن الإيمان الحقّ يحتاج إلى جهد و معاناة و أنّ تجربته ليست تجربة فذة متميزة لم يسبقه إليها أحد بل يرى في نبيّ الله إبراهيم عليه السلام مؤسس صرح الإيمان اليقيني الصادر عن البحث و الاجتهاد المستمر نموذجاً رائعاً ينبغي الاستضاءة بهديه، يقول الكاتب «كان إبراهيم سلام الفاطر عليه مثلاً أعلى لكل من يريد الرجوع إلى فطرته ، مثال لمن أراد أن يبدد الشك الذي في داخله و يمشي على الأرض بعفوية فطرته»¹⁰⁶ يفهم من المقاطع التي استشهد بها الكاتب على تجربة إبراهيم عليه السلام أنّ الذي حدث له لم يكن مبالغة منه و لا إهداراً لطاقته و لا استكباراً عن الحقّ و لكنّه بحث ناتج عن رغبة في الوصول إلى اليقين الذاتي دون تبنّي تجارب الآخرين و بالتالي تقليدهم . و مسابرتهم فيما وجدوه و ألفوه دون إعمال الذهن و العقل و دون معاناة من أجل الوصول إلى باطن الحقيقة و عمقها .

تكشف القراءة الواعية لاعتراقات الكاتب نمير الأعرجي ملامح الرّحلة الرّوحية التي تركز على جملة من المقومات يشكّل فيها السّفر خاصية واضحة المعالم ضمن خصوصيات هذه التجربة . فالسّفر معطى أساسي يقدم من خلاله الكاتب مجموعة من التجارب الخصبة التي لها علاقة و طيدة بتجربته الرّوحية، تبدأ من مرحلة المراهقة حيث يسافر إلى رومانيا رفقة أسرته و هناك يجد كلّ ما يشتهي المراهق فيقرّر البقاء هناك تحت غطاء متابعة الدراسة و قد مكّنه من ذلك علاقته مع أسرته المتفتحة و بشكل خاص علاقته الحميمة مع أبيه يقول الكاتب : «سافرت أنا و أبي و أمي إلى رومانيا و إخوتي لقضاء العطلة السنوية و في طريقنا لشراء ما طلبه منا أبي لاحظنا فتاتين في إثنا .. لم أكد أصدق ما أراه أمامي، في لبنان لم أصادف مثل هذا خصوصاً في أروقة المدرسة ... جيننذ قررت البقاء في رومانيا اقتنع أبي لأنه كان يؤمن أنّ التجربة خير أسنأذ»¹⁰⁷ يعلّق الكاتب على هذه المواقف و المراحل التي مرّ بها خاصة في رومانيا قائلاً : « رومانيا عام 1965 شعبها محروم من كلّ ما هو أجنبي ، تراهم يتلهفون إلى كلّ ما هو غير روماني الأحذية الثياب حتّى الأشخاص ... قبول الآخرين و إعجابهم حقّاً يخدّران . ما في جوفي من شعور بنقص و فراغ تخدّرنا اطمانت نفسي إذ الآخرون لم يعطوها المجال إلا أنّ تطمنن»¹⁰⁸ الكاتب و هو يستعرض تجربته الرّوحية يستبطن ذاته و يسافر في عوالمه الداخلية هذا الاستبطان يقوده إلى معرفة أصل الداء ، إذ تبين له أنّ مرضه مزمن و ليس وليد اللحظة الحاضرة بل له امتدادات يعود تاريخها إلى سنّ مبكرة من عمره ، لقد نال من الشهوات و المتع الحسّية كما أراد و بقدر استزادة نهمه منها و إقباله عليه بقدر ما ابتعد عن الحقيقة و رهن الرّوح في سجن المادة و أحاطها بأسوار ظاهرها السعادة و نبيل الحظوظ و باطنها الألم و المآسي المفجعة، المبعدة عن أنس الروح و رَوْحها . و من رومانيا إلى كندا و ألمانيا و بريطانيا و إيطاليا و لبنان و مصر و اليابان و فنلندا و غيرها من البلدان و كلّ همّة التفتيش عن أصحاب المذاهب و الديانات ، فالرحلة و السّفر لا يبتغي الكاتب من خلالها متعة التنزّه . و الترفيه كما هو مألوف عند عامة النّاس بقدر ما هو وسيلة للوصول إلى إرواء الظمّ الروحي

يؤدي الآخر دوراً مهماً في تقريب الكاتب من عوالم الحقيقة و من مبتغاه الذي يلقي عننا جسيماً في الوصول إليه كما يلعب أيضاً دوراً سلبياً في إبعاده عن هذه الحقيقة مسافات طوال يقول الكاتب « و نحن صغار قمعنا الآخرون فعلمونا القمع و التّكفير فبتنا نكفر الآخرين لنواري الكفر الذي كقره الآخرون في داخلنا صغاراً»¹⁰⁹ يبدو جلياً أنّ الكاتب يحمل الغير تبعات القلق الرّوحى الذي عاش وسط لهيبه السنوات الطوال فالآخر بممارساته الخاطئة و فهمه السقيم للدين ينحرف عن الجادة و يصد النّاس عن فطرتهم السليمة و ليس هذا فحسب بل يستمر ضغط الآخر عبر المواقف و التعاملات اليومية . فقد تعامل الكاتب مع أحد التّجار و حين ما طالبه ببعض المستحقات المالية، اعتذر التاجر قائلاً أنّه قد حان موعد الصلاة و سيؤجل الحديث عن الموضوع لاحقاً . يعلّق الكاتب على هذا الموقف « قلت في نفسي إذا أردت يوماً أن أعتق ديناً فلن أعتق دين هذا الرجل»¹¹⁰ فالكاتب رأى في هذا التّاجر إنسان مخادع يتهرّب من دفع ما عليه من مستحقات فهو لا ينكر عليه ما صنع و لكنّه يرى فيه صورة قائمة عن الذين و من هنا تبدو نفسية الكاتب بجلاء أنّه يبحث عن معتقد مثالي يقوده إلى الحقيقة المطلقة لكنّه في نفس الوقت لا يطلب هذا المعتقد بشكل نظري مثالي بل يبحث له أيضاً نموذج إنساني مثالي له . تطابقاته الملموسة في الواقع التاريخي و في الممارسات الاجتماعية

105 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 92

106 المصدر نفسه - ص 167

107 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 14/13

108 المصدر نفسه - ص 14

109 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 167

110 نمير عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 38

إنّ حالة الاستنفار الروحي المستديمة لدى الكاتب تدفعه إلى القراءة المستمرة لمختلف العقائد فهو يقرأ الكتب الكثيرة التي تتحدث عن النفس البشرية و تحولاتها و تقلباتها ، وعن الفضاءات الروحية و أسرارها و كل ما كتب أهل الاختصاص فيها و ليس هذا فحسب بل يقرأ ويستشهد كثيرا في منته و تجربته بالإنجيل و التوراة و القرآن فنشاط القراءة مكثف و متنوع لدى الكاتب و إلى جانب السفر و نشاط القراءة المكثفة نرى إقبال الكاتب على خوض التجربة بذاته لا يكتفي بما قرأ و بما وصف له الآخرون بل يعتمد على سلوك المعاينة الفعلية ، فيدخل المعابد و الأديرة المنعزلة عن المدن و الموجودة في الصحارى و قمم الجبال في مختلف البلدان، يمارس الطقوس الروحية فيجوع لأيام عديدة و يجلس الساعات الطويلة في وضعيات معينة قصد التأمل و سبر أغوار النفس كما أنه يذهب إلى رؤساء المذاهب الروحية و أصحاب الطرق الصوفية و يحتك بهم بشكل مباشر و يحاورهم و يسمع لهم و بالتوازي مع هذا يقرأ كتبهم لكن لا يكاد يمرّ الشهر أو الشهران حتى ينصرف عن مناخ روحي ما لينتقل منه إلى غيره يقينا منه أنه مجانيب للحقيقة بعيد عن الذي يبحث عنه و يبسّد حاجته و يروي ظمأه .

و خلاصة القول هو أنّ تجربة الكاتب نمير الأعرجي تجربة متميّزة و ثرية أبرز ما يميّزها القدرة العالية على البوح و كشف مكنون النفس بلهجة صادقة بندر مثلها بصرف النظر عن المتعنة الأسلوبية أو الفرجة البلاغية التي يمكن أن توفرها للفارء .

الفضاء السياسي و تجربة الاعتقال

الحياة السياسية في المجتمع العربي غير مهيكلة فكريا و لا مؤطرة إيديولوجيا و لا تحكمها ضوابط أخلاقية مؤسّسة، بل هي تسبح في عوالم فجّة تطبعها السذاجة تارة و الفوضى تارة أخرى التي لا تستند إلى أي مشروع فكري بل هي خاضعة في توجهاتها إلى نوازع ذاتية و أمزجة أنية شخصية، يمارس من خلالها صنّاع القرار و أهل القيادة السلّطة على الآخرين، و من هنا فليس غريبا أن تكون أجهزة الدولة تبعالها أي أجهزة قمعية تعبر عن أهواء و نزوات الطبقة الحاكمة من الجيش و البوليس و المخابرات و بحكم بنائها الهشّ و مؤسساتها الضحلة و تراكيب أفرادها المحدودين المجرّدين من الذكاء العالي المفترض في أهل الحلّ و الرّبط، و لذلك عجزت عن إدارة الحوار بين مختلف الشرائح الاجتماعية و إنتاج أفاق للديمقراطية، و تحوّلت إلى أداة قمعية تمارس الاضطهاد و التّدجين في حقّ المبدعين و المفكرين و تزجّ بهم في غياهب السّجون، و بالتّالي ليس غريبا أن كان من آثار هذه الممارسات ظهور كتابات اعترافية رصد فيها الكثير من المبدعين تجربة الاعتقال و السّجن قدموا شهادات و تجارب تعبر عن ألام الذات، و هي تحترق بنيران الاستبداد و التسلّط، و تتنّ تحت وطأة الاضطهاد و السجن معبرين في ذلك عن حقهم في المعارضة و إثبات الوجود المغاير للأخر، تصورا أو ممارسة، سواء كان فردا أو جماعة .

إنّ الحرية شرط أساسي لعملية الكتابة و من هنا كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعوامل و المؤثرات السالبة لتلك الحرية و عليه وجدنا أيضا أنّ الكتابة شكّلت وسيطا من الوسائط الرائدة لتجربة السّجن و الاعتقال و تحوّلت إلى معول يأتي على جدران المعتقلات و درعا معنويا يواجه سياط الجلّادين و عدوانهم المادي و المعنوي .

لقد اقترنت الكثير من الكتابات الاعترافية بالسّجن و الاعتقال في مختلف الأقطار العربية قديما كان المعتمد بن عباد أول الخائضين في معترك القضبان و القيود بيد أنّه و بكلّ تأكيد ليس وحده، فالأجيال تتري و التجارب تتقاطع في عمق المأساة الإنسانية المهذرة و الكرامة المنتهكة و إن تفارقت الأطر الجغرافية و تباعدت الأزمنة و الحقب التاريخية فالمحنة متجانسة الأبعاد "فالسجن الحربي" أو "سجن تازمامرت" أو "سجن تدمر" أو "حمزة بسيوني، شمس بدران، اليوسفي" و غيرهم هي أماكن لمعتقلات و لشخوص الجلّادين و هي أيضا مفردات تنتمي إلى معجم الاعتقال و إهانة كرامة الإنسان .

إنّ تجربة السّجن تجربة مأساوية و عمق مأساتها تتبع من بعدها الإنسان المتمثّل في سرقة أعمار النّاس و دفعهم وراء القضبان لسنوات طوال و إلغاء وجودهم و إذافتهم أشكالا من الاضطهاد و التعذيب المادي و المعنوي، تبلغ المأساة ذروتها حين يكون هذا الاضطهاد بيد رموز الدولة و حرّاس الوطنية الذين لم يتمكنوا من احتواء مواطنيهم بشكل متحصّر يمنحهم

التعبير عن طروحاتهم و أفكارهم ضمن مناخ ديموقراطي حرّ بقدر ما تعجّلوا تكميم الأفواه و سلب الحريات و إلغاء الآخر . أو تصفيته جسدياً ومعنوياً بصرف النظر عن توجهاته و إيديولوجيته سواء كان يسارياً أو إسلامياً أو غير ذلك و من النماذج التي يمكن تقديمها في هذا السياق، تجربة الكاتب و الشاعر السوري " فرج بيار قدار " و الكاتبة السعودية "عالية مالك " و الكاتبة المصرية "زينب الغزالي" في كتابها "أيام من حياتي" حيث يصوّر هؤلاء لحظات الاعتقال و الدخول إلى السجن لحظة بلحظة و بيّنوا كيف يتحول الإنسان من إنسان و مواطن كامل الحقوق و الكرامة إلى كائن ما أو ...إلى حيوان... على يد جلاديه يفعلوا به ما يشاؤون .

إنّ مشاهد الاعتقال و إن اختلفت أزمنتها و أقطارها و شخصها هي تجربة واحدة تبدأ باختطاف المعتقل الأديب أو الصحفي أو الشاعر أو...من منزله ليلاً ثم الرّج به في السجن على اعتبار أنّه عنصر خطير يهدّد أمن الدولة و يزعزع النّظام العام و يتأمّر على رموز السّيادة الوطنية و قد يضاف إلى هذا التعاون مع أطراف أجنبية ، هذه هي تقريبا التّهم التي يشكّل بها الجلّادون ملفّ المحاكمة الذي يرشح المتّهم للإدانة و من ثمّ تحقيق به أشكال من التّعذيب الجسدي و المعنوي الذي ينال من عزمه و إرادته و يحوّلّه إلى كائن تابع ، مدجّن لا يقول إلّا ما يرضى الأنظمة الحاكمة

يقول الكاتب السوري فرج بيار قدار في كتابه " خيانات اللّغة و الصمت...تغريبيتي في سجون المخابرات السورية " : « لقد أعطونا في البداية بدلاً من أسمائنا أرقاما و في فترة لاحقة ألقابا مستمدة من أشكلنا وملابسنا... يا أبو القميص...أسود الكلب،أبو رقية...رأس الجحش...أخرس أيّها الحيوان...لماذا تجادل أيّها الحيوان...»¹¹¹. هكذا يبدأ مشهد الإهانة و التعذيب المعنوي ، بتجريد المعتقل من اسمه و بالتالي ممارسة الخطوة الأولى للإلغاء وجود الفكري و المعنوي .و كذلك اختيار زمن الاعتقال الذي يكون عادة إمّا في دجى الليل الحالك أو مع الفجر لذلك يطلق عليهم المعتقلون زوّار الليل، واختيار هذه الأزمنة من قبل الجلّادين لم يكن اعتباطاً ، بل هي لبثّ الرّعب في قلوب المعتقلين المعارضين و التّيل من عزائم حتى ينفاروا في أسرع وقت ممكن و يكونوا أسوة لغيرهم ممّن يخالف أمر السّلطة و رموزها . يزداد الوضع مرارة حين يستقبل المعتقل بالكلمات النّابية الجارحة لكرامة الإنسان و بالمشهد التّهكمي السّاحر للنّيل من إرادته و مقاومته بقول زينب الغزالي: « في فجر أغسطس اقتحم رجال الطاعوت منزلي ، و لمّا طلبت منهم إذنا بالتفتيش قالوا أيّ إذن يا مجانيين ، نحن في عهد عبد الناصر فعل ما نشاء معكم يا كلاب...دخلوا البيت و اتلفوا ما فيه بالتمزيق تارة و التفسير تارة أخرى حتّى لم يتركوا شيئاً سليماً...قبضوا عليّ و أدخلوني عربة أخذت تنهب بنا الطريق حتى وصلنا السّجن الحربي...وقفت أمام رجل ضخم الجثة مظلم الوجه قبيح اللّفظ سألني من أنت و هو يسبّ و يلعن بما لا ينصوّر، جذبي الفاجر في وحشية و هو يقول يا بنت الـ...!!»¹¹² يصوّر الشاعر السوري فرج بيار قدار المناخ النّفسي للإعتقال فيقول : «زمامير و رقص هكذا كان عرس استقبال الدورية التي اعتقلنتي...أهلاً بالمناضل الكبير!! تفضل يا أستاذ الآن ستشعب نضالاً...لست أدري كيف يحملون تعليقاتهم كلّ هذا القدر من السّخرية و السّماتة؟... المحقّق يقول لمعاونيه من الجلّادين : شوفوا حسابكم معه يبدو أنّه ينوي أن يظّل بغلاً...قالها و خرج تاركا وراءه صمّتا أسودا و احتمالات كالحة و مدججة بما يشبه الألغام»¹¹³ إن عربة السّجن واحدة في كلّ الأقطار العربية و الجلّاد شخص واحد أيضا فضّ غليظ ضخم الجثة قبيح المنظر لا يملك أدنى حدّ من الرّافة و الرّحمة. الجلّادون يستقبلون الأبرياء من المعتقلين بالصّف و الرّكل و الضّرب و بالكلمات النّابية البذيئة و كانوا يزجون بالموقوف على قفاه قائلين : هذا أخوكم في الله فلان ساخرين في ذلك من الانتماء الديني للمعتقلين، و عندما يصلون إلى معتقل كبير في السجن، كانوا يدفعونه قائلين : وهذا جدّكم في الله ، كما يروي ذلك نزل السّجن الحربي تقول عالية مكّي : «انشغلت بالتفكير في هذا الأسلوب الحقير الذي يستخدمه كلّ محقّق مع كلّ معتقل للنّيل من شخصيته و تحطيمها بالسّبّ و الشتم و الألفاظ الفذرة (سواء ذبابة أو حشرة أو جرثومة أو ما شابه ذلك...فقيمة الإنسان عندهم لا تساوي ذرّة»¹¹⁴ . و بعد مشهد الاضطهاد المعنوي و النّفسي يحلّ العذاب الجسدي الذي أوكلته الأنظمة الظالمة للمرضى النّفسيين و للسّادين الذين يشعرون بنشوة عارمة و هم يذيقون إخوانهم مختلف صنوف العذاب تقول زينب الغزالي : « ابتلعنتي الحجرة فقلت بسم الله ، السّلام عليكم ، و أغلق الباب و أضيئت الكهرباء قوية! إنّها للتّعذيب الحجرة مليئة بالكلاب...سمعت باب الحجرة يغلق بالسّلاسل و الأقفال و تعلّقت الكلاب بكلّ جسمي ، و رأسي و يدي و صدري و ظهري ، كلّ موضع في جسمي أحسست أنّ أنياب الكلاب تعوص فيه...كان الشّفق الأحمر يكسو السّماء يبيئ أنّ الشّمس غربت إذن قد تُركت مع الكلاب ثلاث ساعات»¹¹⁵...أمضيت على هذه الحال ستة أيام لا يفتح باب الزنزانة فلا أكل و لا شرب و لا دورة مياه و لا صلة بالخارج كيف يعيش الإنسان...هل تجيز اليهودية أو الوثنية ذلك؟ هل يفعل ذلك كائن ينتمي إلى الجنس البشري...كنت مستغرقة في في الآمي أفكّر عليّة حامل في شهرها

111 فرج بيار قدار - خيانات اللّغة و الصمت تغريبيتي في السجون المخابرات السورية - دار الجديد - الطبعة الأولى 2006 - ص 8

112 زينب الغزالي - أيام من حياتي - ص 42 / 43

113 فرج بيار قدار - خيانات اللّغة و الصمت تغريبيتي في سجون المخابرات السورية - دار الجديد - الطبعة الأولى 2006 - ص 19

114 عالية مكّي - مذكرات امرأة في السّجون السعودية دار الملتقى - المغرب - الطبعة الثانية 2005 - ص 41

115 زينب الغزالي - أيام من حياتي - دار الشروق - الطبعة السادسة 1984 - ص 46 / 47

الأخيرة كيف اعتقلوها؟ عادة؟ ماذا فعلوا برضيعتها الصغيرة؟ يا للبشر من حكامهم... عندما تضيع ضمائرهم فيصبحون جلاّدين لرعاياهم! ويا عبد الناصر كم خدعت قومك¹¹⁶!! وبتخلّل مشاهد التعذيب المادي والمعنوي من حين لآخر مشهد الإغراء حيث يعرض على المعتقل السياسي مجموعة من الاقتراحات إذا نفذها أمكنه الخروج من السجن والحصول على الكثير من الامتيازات المادية التي لا تعدو أن تكون وظيفة راقية بمرتبة مغري مقابل التخلّي عن الموقف والمصادقة على المقترحات والإملاءات والخضوع لمنطق المساومة يعرض أحد رموز النظام على زينب الغزالي إغراءات مالية وأخرى تتعلق بالمنصب لدرجة أن تكون وزيرة في عهد عبد الناصر مقابل التخلّي عن مواقفها والتصلّب عن جماعة الإخوان المسلمين ويقول لها: «أنت يا زينب خطيبة لك تأثير على الناس... والناس تحبك، أنت ورقة رابحة، هناك أحد يريد عبد الناصر أن يقربه ويرفض؟... لكنّها ترفض بحزم وثبات وتقول أنا لا أريد أن أكون وزيرة ولم يجلب خاطرني هذا الأمر في يوم من الأيام!¹¹⁷ هكذا يتحوّل المواطن الشريف صاحب المبدأ إلى ورقة رابحة، ينبغي أن تتسخر مواهبها وطاقاتها في خدمة السلطة القائمة والنظام الحاكم بصرف النظر عن مسألة القناعة الذاتية وإلا حاققت به الولايات القهر المادي والمعنوي.

يأتي بعد هذا المشهد مشهد اختبار الذات على التحمّل والخوف من السقوط الحرّ في قبضة إرادة الجلاّدين لذلك يجارّ المعتقلون بالدعاء والصلاة يتساوى في ذلك المثقّف اليميني مع اليساري مع الإخواني المنديين، تجمعهم محنة التعذيب وآلام السيطا فترتفع أكف الضراعة إلى الله طالبين الثبات وعدم الانهيار أو الخلاص من العذاب يقول: الأديب السوري فرج بيار قدار: أعرف أن الإنسان أكثر قدرة على التحمّل والصبر الجسدي والنفسي من أيّ كائن آخر بما في ذلك الخيول... ساعدني يا الله... ساعدني يا أمي¹¹⁸... كما تقول أيضا زينب الغزالي: «عدت إلى ربي أسأله وهو الذي بيده كلّ شيء أن يرفع عني ما بي... تباركت يا ربّ وتعاليت فأنا حفيذة إبراهيم أولّ الموحدين وجدّ النبيّ أن ترحمني من أبالسة يسوؤهم أن أقول ربي الله لا أشرك به أحدا¹¹⁹ و أمام آلة القمع وقطعان الوحوش المفترسة يخشى المعتقل أن تتهاوى المقاومة الداخلية وينفذ الصبر فيشرع في الإبتهاال والدعاء، تتجانس المشاعر والأحاسيس بين اليساري والمعتقل الإخواني سواء كان في مصر أو سوريا أو العراق أو أي بلد عربي آخر وكلّ يتوجه إلى الله مستغيثا هاربا من الألم، حالما بالنّجاة لئذا بحمي العناية الإلهية. ومن المفارقات العجيبة أن نرى بعض المعتقلين ينكر الوضع الذي آل إليه أقرانه من المناضلين تحت وطأة السجن والتعذيب. يقول الكاتب المغربي جواد مديش لمحاوره الأديب عبد الرحيم حزل: «فقدت الإيمان في سنّ السادسة عشرة ونسيت حركات الوضوء البسيطة وما عدت أحفظ من القرآن غير الفاتحة وقد فجنّت منذ حللت بالغرفة السوداء بأن وجدت من حولي من السجّاء يواظبون على أداء صلواتهم اليومية. أشيوعيون ويدعون الله؟! بدالي في ذلك أفضع انهيار للقيم بدالي أمرا عبثيا، بل هو تهريج أساسه المكر والدجل... تنكّر للقناعات التي أوصلتنا جميعا إلى ذلك المكان¹²⁰ وتحت وطأة التعذيب والحرمان والتجويب تترأى أحيانا عوالم الطفولة وبين الجدران وتولد الفرحة والتضامن وتبرز اللمسة الإنسانية رغم آلة القمع الهمجية. تذكر زينب الغزالي كيف أنّ السجان كان يحمل لها ملعقة سلطة يرميها من ثقب المفتاح وينصرف مذعورا خشية أن يدركه أحد، بل إن الشاعر السوري بيار قدار يذكر مرّة بعد أن أنهى معه التحقيق، ترك له الحارس قطعة هريسة: «يصعب أن تصدّقوا ما تعنيه قطعة هريسة بالنسبة لسجين جديد... في الحقيقة كانت أعماقي تخفق بفرح طفولي غامر¹²¹ وهكذا تتابع المشاهد وتتنوع أشكال التعذيب المادي والمعنوي وفي كل مرّة يبدو أمام المعتقل إيقاع جديد لآلة القمع ولعلّ أغرب المشاهد التي رصدتها الكتابة الاعترافية هو ما يمكن تسميته بمشهد الإخصاء وهي محاولة الجلاّدين مسخ الكائن المعتقل في صورة مشوهة مقلوبة عن جوهرها الحقيقي الذي فطرت عليه حيث يتمّ تجريخ المعتقل وتحويله إلى أنثى والإطاحة برجولته وإن كان امرأة نبيل من أنوثتها وتحسيسها بأنّها - جسديا - لم تعد امرأة بقدر ما هي مسترجلة بفعل السجن والتعذيب يقول السجان لزينب الغزالي: «أنت التي فعلت هذا في نفسك وحقّرت نفسك بهذا الشكل لقد أصبح شكلك قبيحا وأصبحت رجلاك مثل رجلي الرجل الوحش زوجك سينغمّ حين يراك بهذا الشكل. لقد أصبح سنك ستين سنة... أنظري إلى يديك كأنهما يدا عمال البناء»¹²² هكذا ينوّع الجلاّدون في استعمال طرق مادية ومعنوية لتحقيق مشهد الإخصاء قد يكون ذلك بالحرب النفسية كما فعل المحققون مع زينب الغزالي قد يستعينون ببعض المواد الكيماوية لقتل الرجولة في الإنسان تمهيدا لإحباطه وتصفيته معنويا «كان الجيش يهتم بكل شيء ولم يكن يغيب منه شيء، كان يراقبنا فقد كنّا مملوكين له في وقت السلم وفي وقت

116 - زينب الغزالي - أيام من حياتي ص 63

117 زينب الغزالي - أيام من حياتي - ص 69

118 فرج بيار قدار - خيانات اللّغة والصمت تغريبتني في سجون المخابرات السوريّة - دار الجديد - الطبعة الأولى 2006 - ص 25

119 زينب الغزالي - ص 133

120 عبد الرحيم حزل - الكتابة والسجن - دار افريقيا الشرق - المغرب - 2008 - ص 63

121 فرج بيار قدار - خيانات اللّغة والصمت... تغريبتني في سجون المخابرات السوريّة - دار الجديد - الطبعة الأولى 2006 - ص 64

122 زينب الغزالي - أيام من حياتي - ص 74

الحرب على حدّ سواء. كان ينبغي لجسدا أن تساقط أعضاؤه إلى أجزاء صغيرة ، كان عضوي التناسلي هو أول ما سقط
123 «... من أعضائي... كان السجانون يضعون في شراينا الصباحي ماد البرومور

الإحصاء معناه سلب الإنسان إنسانيته و جوهر وجوده و تحويله إلى كائن ما ، ممسوخ محايد لا يملك من الأحاسيس و القناعات إلا ما يملئ عليه أو بعبارة أدقّ تشكيل مخلوق من طراز خاص هو في مظهره الخارجي و صورته إنسان لكنّه بلا عقل و لا روح بل هو في تصور الأنظمة الاستبدادية الظالمة مخلوق مطيع وظيفته الأولى الخدمة و الولاء .

غيبوبة الزمان و المكان هي أيضا ملمح من ملامح بيئة الاعتقال فالزمن الطبيعي الإنساني غير مدرك فهو مغيب بشكل مطلق لأنّ المعتقل لا يفرّق بين الليل و النهار إلا قليلا فهو في أقبية و كهوف مظلمة موحشة لا يرافقه فيها إلا الصراخ و الحشرات المؤذية الأيام كلّها تتشابه لا جديد يذكر ، فعشرات الأيام متشابهة كأنها يوم واحد، الزمن بطيء، سكون مخيف ووحشة دائمة الرزانات متشابهة ، لا مكان فيها للمكان جدران رطبة روائح كريهة ،وحدة قاتلة و عزلة موحشة وحتى السجون موجودة في مناطق صحراوية نائية توحى بمعاني الرهبة و الوحشة ولعلّ هذا ما أراده مصمّموها و مهندسو الألام الإنسانية. يقول فرج بيارقّار « كنا نراقب مداخل و أدراج هذا السّجن الذي يجمع بين الخرافة و الحدائث دهاليز و أقبية و ممرات لا تنتهي ، و أدراج تقضي إلى الغيب الذي يكتنف هذا المبنى العملاق المصمم على شكل إشارة مرسيديس أسطورية و في المنتصف دوار 124 مسدّس الإضلاع و في داخله درج لولبي يتيح للحراس مراقبة مداخل الأجنحة عبر الطوابق الثلاثة

من معجم الاعتقال في الكتابات الاعترافية الحديث عن الجلاد و وصف جزئيات تتصل به ،نبرات أصواته الحادة ، قدراته الهائلة على التهكّم و السخرية الجارحة بمختلف الكلمات النابية، تقول الكاتبة السعودية عالية مكّي التي ذافت الاعتقال في السجون السعودية وهي تصف السجّانة : «امرأة طويلة القامة ضخمة الجثة كالفيل شديدة السواد ،صوتها رخم وضحّم جدًا مصحوب بالخشونة ،ملمح وجهها حادة و قاسية .. تلقّب من قبل السجانات بالصاعقة» 125 و هذه الأوصاف تتقارب في حيثياتها من أوصاف زينب الغزالي للجلّادين : «لم يبق موضع في جسمي إلا و فيه أثر عذاب و موضع جراح ... غير معقول أنّ هؤلاء بشر ، أنهم مخلوقات تسمع و ترى و تتنطق 126 « و تمشي و هيكل بشري إنها مخلوقات غريبة

و من عجيب الصدف أن تتكرر المقاطع نفسها في وصف الجلّادين فهم سواء في تركيبهم النفسية و الأخلاقية و الجسمانية على الرغم من تباعد الأطر الجغرافية و تباين التّهم الموجهة إلى الذين يقعون في السّجون تحت رحمتهم ،فالتجربة واحدة في حيثياتها سواء بالنسبة للمعتقل أو للجلاد كل يمارس قناعاته على نحو ما. تقول: عالية مكّي «سارة و ما أدراك ما سارة؟ حيث تلقّب من قبل السجانات بالصاعقة» كما تقول زينب الغزالي : «شمس بدران و ما أدراك ما شمس بدران؟» إنّ هذه المقاطع اللغوية مستلهمة من التّعابير القرآنية التي تأتي في سياق وصف أهوال يوم القيامة لذلك يستعمل فيها الاستقهام التقخيمي الذي يقرع القلوب و تتخلع له الأفتدة كما أنّ لهذا التعبير ظلالا إيحائية فما حرف استقهام لغير العاقل واستعماله في هذا السياق يدلّ على الصورة التي تبغى الكاتبة ترسيخها في ذهن المتلقي مؤداها أنّ هؤلاء الجلّادين و إن كانوا في صورة بشر غير أنهم أقرب إلى الوحوش الضّارية و هذا ما تؤكّد ده سياقات لأخرى مباشرة خالية من أيّ مجاز كقول الكاتبة عالية مكّي : «ما زال هذا الذئب يتحدث و الغضب يسيطر على كلّ كيانه .. قطع المكاملة و أخذ ينظر إلي و هو يلهث كالكلب 127

إنّ المشاهد كثيرة و كلّها تروي بمنطق واحد الصراع بين الجلّاد و المعتقلين تأسيا لآثبات الوجود الحرّ المغاير للآخر ورفض مناخ الاستبداد و أجوائه العفنة يروي عبد الرحمن بلعقون مرارة السّجن و ما يفعله السّجّان دفعا للإحباط و الموت البطيء الذي يريده لهم خصومهم : « و إني لأذكر كيف لعبت يوما كرة القدم مع الشبان و كنت في فريق استجلبت العيون نحونا و علت الأصوات و استعيد دم الشباب في عروقنا ... و هكذا نتفرغ في السّجن حيننا من أعباء الحياة الجدية و نقطع إلى ما وراء القضبان الحديدية فنركن إلى حياة هي حياة الطفولة أشبه فنلتقي على بساطة من السداجة الصببانية في جو من الصفاء و الوئام لنعود إلى حياة بساطها الجد المكود .. يقرعنا الواقع الأليم فنجد أنفسنا و قد أسدل علينا ستار التسيان للثوى بسجن ما هو إلا نذير المهانة و الذلّ المغمور بالموت المعنوي المنبج فنجأ بالشكوى...» 128 يتحدّث السجين أحيانا إلى طفل يلعب و يمرح إذا اتاحت له الفرصة و كأنّه طفل صغير يسترجع الذكريات

123 عبد الرحيم حزل - الكتابة و السجن - ص 54

124 فرج بيارقّار - خيانات اللّغة و الصمت ... تغريبتي في سجون المخبرات السّورية - دار الجديد - الطبعة الأولى 2006 - ص 103

125 عالية مكّي - مذكرات امرأة في السّجون السعودية - دار النّجاح - المغرب - الطبعة الثانية - 2005 - ص 41

126 زينب الغزالي - أيام من حياتي - ص 100

127 عالية مكّي - مذكرات امرأة في السّجون السعودية - ص 41

الجميلة عبر اللعب و القفز تماما مثل ما يفعل الطفل و كلّ هذا دفعا للملل و محاولة منهم لتجاوز أسوار السّجن نفسيا و لو لبضع اللحظات .

إنّ السّجن مؤسسة عقابية تحتضن أناسا ارتكبوا أخطاء في حقّ لمجتمع أو جرما أقره القانون بناء على مسوّغات مؤسساتية شرعية ،لكنّه يتحول في كثير من الأحيان إلى شكل من أشكال الظلم و إهانة كرامة الإنسان خاصة حين يصدر عن موقف حرّ و ذلك قد يكون « بكلمة حقّ قيلت لسلطان جائر أو انتصار لقضية عادلة أريد لها الفناء ، أو رأي حرّ خرج على السائد المألوف أو موقف ضدّ مستعمر للوطن محتل للأرض مغتصب للخيرات أو مواجهة لنظام غير شرعي فرض نفسه و اضطهد سواه¹²⁹ إن التّجارب الاعترافية التي عرضناها في هذا المبحث تؤكد أنها نبئت في الانفراد بالحكم و الرغبة في اكتساب الشرعية بالاضطهاد و رفض الرأي الآخر مما شكّل مناخا سياسيا عكرا طبعته به شخصية الأنظمة العربية الحديثة و المعاصرة وأصبح سمة و صورة بارزة لها سواء في نظر مواطنيها أو في نظر الأجنبي الذي يراها مساحات للعبودية و غياب لحقوق و كرامة الإنسان .فكل رأي معارض في تصوّر الأنظمة العربية الحاكمة هو جزء من نظرية المؤامرة التي لا تفتح آفاق للحوار الهادئ و لا يتسع صدرها للتفاهم و التقارب بقدر ما تعتمد إلى الردّ السريع بالسّجون و المعتقلات و كلّ ذلك باسم المصلحة العليا للوطن و الأمة و في هذا المناخ تتبدّد الطاقات و تزهق الأرواح و يخون المخلصون و يضطهد المتفقون و المبدعون و لعل هذا ما يبدو جليا من خلال التّجارب التي عرضناها في هذا المبحث .

يمكن القول أنّ الكتابات الاعترافية كانت شكلا من أشكال المقاومة وسلاحا رفعه الشرفاء و أصحاب المبادئ على غرار شعر السّجون و الأدب السّاخر الذي جعل من الإبداع وسيطا لمواجهة آلة القمع الهمجية . ومن هنا فليس غريبا أن يظهر سيل من الكتابات الاعترافية عقب انتهاء مرحلة سياسية ما في الكثير من الدول العربية فقد كتبت ذلك بعد رحيل ملك المغرب السابق فاطمة أوفقيير حداث الملك، وابتها مليكة أوفقيير "السّجينة" وكيف انقلب حال الأسرة من العز إلى الذل، و من الغنى إلى الفقر، كتب إبراهيم السرفاتي "المغرب من الأسود إلى الرمادي" و كتب أحمد المرزوقي " مذكرات أسماها تازمامارت ، الزنزانه رقم 10 " حين نقرأ الإهداء الذي تصدر الكتاب يشعر المرء كأنّه لا ينتمي إلى هذا الكوكب و لا إلى صنف البشر ، يقول إلى أبي الذي توفي بعد سنّة أشهر من اختطافي ... إلى أمي التي انتظرتني عشرين عاما . و أيضا صلاح الوديع و كتابه " العريس " الذي يرى فيه بعض الدارسين سيرة سجنية بيد أن كاتبها يرى فيها " أدب المقاومة يمجّد الحياة الإنسانية و يمتدح المقاومة الفردية التي هي حصانة للروح ضدّ الهوان و التعسف¹³⁰ و إبراهيم الكيلاني روايته رحلة الأخوين إلى الله، وهي ملحمة خالدة تدور أحداثها ووقائعها حول باستئيل السجني الحربي، وما تعرض له الأحرار على يد الجلّادين و القتل ، كما كتب الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله كتابه ذكريات عبد الحميد كشك، ضمّنه فصولاً من سجنه في العهدين الناصري و الساداتي، و سبب سجنه في العهد الناصري أن وفداً من مباحث أمن الدولة طلبوا منه إصدار فتوى في إباحة دم الأديب سيد قطب رحمه الله، فرفض الشيخ كعادة الشرفاء و ما سطره الأستاذ محمد سليم حمّاد في كتابه مذكرات معتقل في السجون السوروية و قد ذكره في كتابه ما تقشعر لفضاعته الأبدان و تتخلع له القلوب ، و أيضاً ما كتبه الأستاذ فاضل يونس و هو مناضل فلسطيني معتقل داخل سجون الاحتلال . و كذلك " حديث العتمة" ، هو مسرود للكاتبة المغربية فاطمة البيه عن عالم السّجن، وذاكرها المستعادة لبناء عالم الغياب، العالم المعتم و الكريه . رقيقة وجميلة فوق الوصف، اغتصبت فاطمة البيه مرّتين ، مرّة بالسّجن و هي في عمر الزهور تمّ اعتقالها و هي طالبة في الثانوية ، كما اغتصبت السّجان هويتها و نزاع عنها اسمها، ليستبدله باسم مذكر "رشيد" . لأنّ الجلّاد استكثر على امرأة أن تكون بطلا ، و السّجان من حقد و كراهية اغتصب فاطمة هويتها لأنه يرفض وجود امرأة مناضلة، و أن يحمل هذا الجسد الرقيق العذب تحديا و عقلا يخطط لتغيير القوانين و الأنظمة الاستبدادية القاهرة و استبدالها بقوانين تشرّع للمساواة و الحرية . إن تجربة السّجن تسجّل حضورا قويا في الكتابات الاعترافية و إن تعددت المشارب السياسية لأصحابها و تتوّعت طروحاتهم الفكرية إلا أنّها تستعرض مشاهد مؤثرة تشخّص بالدليل المادي القاطع و الشهادة التاريخية الحيّة الموثقة كيفية و طرق إهانة الإنسان و إهدار كرامته، لقد أرادت هذه الكتابات محاكمة أنظمة سياسية استبدادية و استعمارية و سجلت جرائمها و عرّت فضائنها و أسقطت أفئعتها حتّى تعرف و تعرف حقيقة القيادات التي تغنّت بالشعارات البرّاقة و المثل الإنسانية العالية و لكنّها مارست العبودية و الاضطهاد في أبشع صورته ضدّ مواطنيها و ضدّ الشرفاء من متفقيها الذين رفضوا سياسة الإلهاء و الإغراء و البطش و وطنوا أنفسهم على إنكار الذات و لو بلغ الأمر إلى تصفيتهم جسديا أو إذقتهم صنوف العذاب الوحشي المادي منه و المعنوي . وختاما لهذا البحث نشير أن ما حدث للمعتقلين لم يكن ممارسة فردية من قبل بعض الجلّادين و لكنّه اعتقال تعسّفي و عذاب مقصود كانت خلفه جهات رسمية و شخصيات سياسية و قيادية معروفة على الساحة العربية و هذا ما حاول المعتقلون التأكيد عليه في كتاباتهم ، تصف زينب الغزالي مشهدا من مشاهد التعذيب : «أفتت ... يا إلهي ... أنني ما زلت على الأرض أمامهم جيئة هامة... حاولت النّظر في الحاضرين فإذا بجمال عبد الناصر يتكئ على كتف المشير عبد الحكيم عامر و يمسك في يده نظارة سوداء¹³¹ يقول الكاتب المغربي عزيز بنين «أزال القائد عنه

129 محمّد حورّ - القبض على الجمر - المؤسسة العربية للدراسات و النّشر - بيروت - الطبعة الأولى 2004 - ص 7

130 عبد الرحيم حزل - الكتابة و السّجن - ص 73

131 زينب الغزالي - أيام من حياتي - ص 143

العصابة و الأصفاد فوجد نفسه وجها لوجه مع الملك حيّاه بوقوف الجندي...سأله الملك أتذكر ما حدث في هذه الحجرة...أريد أن أعرف من كانا الأفاقان اللذان وجدتهما هنا تدخل القائد،أحب جلاله الملك...أسف جلالتك لا أعرف...أنت الجاني على نفسك»¹³²فالتاريخ يعيد نفسه بأشكال متباينة ، فتجربة الاعتقال قديمة نالت من المثقفين والشعراء و الفقهاء وعلى سبيل المثال فقد سجن الإمام ابن تيمية و ضرب بالسياط وتلميذه ابن القيم وكذلك سجن الامام أبو حنيفة و الإمام أحمد بن حنبل و ضرب بالسياط وقد كان للمعتزلة يد في المؤامرة التي باركها الخليفة العباسي ولكنه صمد على الرغم من التعذيب والضرب بالسياط والحبس والملاحقة والإغراء..بالمال والنفوذ.. فمحنة الاعتقال ليست بالجديدة في المناخ السياسي العربي الإسلامي كما أنها كانت دائما تحت إمرة أعلى القيادات عبر التاريخ . إن الكتابات الاعترافية التي جعلت من تجربة السجن و الاعتقال موضوعا لها هي تجربة فذة من طراز خاص على تنوع أساليبها واختلاف قيمتها الإنسانية و البلاغية و التوثيقية و هي تؤكد على قدرات الإنسان على التحمل والتجاوز والانتصار على الظلم والاضطهاد و أنّ عمر المثقف و الكاتب المبدع المظهد وإن أجبر على البقاء خارج أسوار الحياة بيد أنه هو أطول عمرا من جلأديه على الرغم من كل شيء وقد أقامت الكتابات الاعترافية الشواهد الحقيقية لهذه المعاني .

البواعث النفسية

ليس ثمة سببا مباشرا واحدا للكتابة الاعترافية ، بل وراء كل عمل اعترافي جملة من التراكمات و البواعث المنتشبة و المعقدة ،القصدية الواعية و غير القصدية التي قد يصرح الكتاب بها ضمن المتن أو عبر العتبات النصية وقد تنمهي في صور متعددة تحتاج إلى جهدي قرائي للكشف عن مكنونها، هذا الجهد هو الذي يتيح الكشف عن الأسباب والبواعث الخفية لأي كاتب كان، و على العموم - و في إطار هذا البحث - يمكن تصنيف بواعث الكتابة الاعترافية إلى صنفين البواعث الداخلية للكاتب و هي البواعث النفسية التي تستقطب أبعاد الذات البشرية بمكوناتها وعناصرها الثلاثة أي النفس والروح و الفكر ثم البواعث الخارجية و التي تتعلق بالأطر الاجتماعية والسياسية التي يتفاعل معها الكاتب و يتبادل معها التأثير و التأثير

إنّ أول ما يظهر لنا و نحن بصدد دراسة مجموعة من المتون الاعترافية هو أنّ فعل الكتابة في حد ذاته ليس فعلا إبداعيا فقط و لكنّه نشاط حياتي عميق الدلالة ينم عن رغبة في البقاء و الاستمرار و ممارسة الحياة ،فقتاعة الإنسان بمصيره المحتوم وبفاجعة الموت الذي يطوي صفحة الحياة و يحوله من عالم الأشياء و الوجود إلى العدم و الفناء هو الذي يؤسس لأرضية تتطلق منها للكتابة يقول الدكتور ماهر حسن «لا شك أنّ الفناء هو المعضلة الضخمة و اللغز المستغلّق أمام الإنسان منذ يبدأ يعي نفسه الفانية ، ويدرك مظاهر الكون حوله، الشمس ، القمر ، النجوم ، البحر ، الجبال ، العواصف...كلها تبدو له قوية خالدة و إذا كانت غوامض الكون قد فسرتها له أساطير فإنّ غريزة حب البقاء ، قد دفعته إلى خلق...¹³³» أساطير جديدة ترمز إلى البحث عن الخلود

تتجلى فكرة الخوف من الموت و الفناء بشكل خاص عند مجموعة من الكتاب كتبتوا عن ذواتهم و هم على أسرة المرض في المستشفيات يصارعون ألام المرض ويعالجون سكرات الموت البطيء. يقول الكاتب المغربي العربي باطما في مقدمة كتابه "الرحيل" «كان عندما يطفو على صفحة روعي أقول له سأكتبك في يوم ما ... و جاء اليوم الذي صممت فيه على كتابته بعد أن حاولت عدة مرّات...إلى أن ابتليت بالمرض القاتل فوجدت نفسي مدفوعا بيد خفية إلى الأوراق و القلم صممت على الكتابة متلافيا كل شيء لغوي أو مقنن من طرف الكتاب ... وأنا في سياق مع الموت، بل إن رغبتي الوحيدة أن يتركني الموت هنيهة لأكتب هذه اللحظات و أكتب أمل عمري وأفوز بالرّقم القياسي في عدد الأبيات و هو واحد وعشرون ألف بيت فعلى حسب علمي لم يكن هناك في يوم زجال فاق العدد أو وصل إليه»¹³⁴ . الحقيقة أنّه منذ آلاف السنين و الإنسان يسجّل وجوده و حضوره القوي في الكون بوسائط متعددة تتيحها أشكال وأدوات العصر،إنّ النقوش التي تركها المصريون القدامى أو الآشوريون من حيث الدلالة النفسية التي تعبر عن بواطن الذات الإنسانية واحدة و هو الرغبة في البقاء والخوف من هاجس الموت و الفناء و البحث عن وسيلة آمنة تضن العبور إلى العالم الآخر، قد تكون النقش على صخور الغرائيت كما قد تكون الكتابة عن الذات

إنّ هاجس الخوف من الموت دافع مثير و قويّ يتكرر كثيرا لدى كتّاب الأدب الاعترافي نرى ذلك في كتاب "يوميات الوجود" للكاتب الجزائري عمار بلحسن و الكاتبة المصرية نعمات البحيري في كتابها "يوميات امرأة مشعة" و

132 عبد الرحيم حزل - الكتابة و السجن - ص 53

133 ماهر حسن فهمي - السيرة تاريخ و فنّ - دار القلم - الكويت - الطبعة الثانية - 1983 - ص 25

134 العربي باطما - الرحيل - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء - الطبعة الرابعة - 2005 - ص 5

نوال السعداوي في كتابيها " أوراقي حياتي " و " مذكراتي في سجن النساء " تتجلى هذه الظاهرة عند صنفين من الكتاب فهم إما مهددون بمرض السرطان أو غيره من الأمراض الفتاكة التي قد تعصف بحياتهم فيصيرون في تعداد الأموات في أي لحظة أو هروبا من إرادة قهرية خارجية تهددهم بعقوبة التصفية الجسدية وهكذا يتحول فعل الكتابة إلى نوع من الصمود . في وجه الموت و الفناء

قد يصحب هذا الدافع، دافع الاعتراف بالخطأ و تصحيح مسار الحياة و لو بدت قصيرة جدا فالاعتراف ممارسة تربوية و أخلاقية عالية هدفها التوبة النصوح و على تعبير الأستاذ محمد همام أن العربي باطما « كان يسكنه هاجس تصحيح مسار حياته و إعادة بنائها بالصورة التي ينبغي أن تكون خصوصا و أنه مرّ بمراحل عسيرة طغى فيها عليه نوع من الانحراف الخلقي و السلوكي ، واضطرّ لأسباب عائلية و اجتماعية و ثقافية للقيام بأعمال هو لا يفتنح بها في صميم نفسه»¹³⁵ إن تجربة مرض السرطان لدى الكاتب قلبت حياته رأسا على عقب فبمجرد إبلاغه من قبل الطبيب، أصابه شعور حاد بالألم و المرارة - ولعلّ هذا سبب تسمية كتابه " الألم " ولمواجهة هذه المحنة يتقوى بالصبر و المناجاة و التوجه إلى الله بأدعية حارة صادقة و اعترافات ... هي مدعاة و رجاء لنيل التوبة النصوح التي تكفل العبور من هذا العالم إلى العالم الآخروي في طمأنينة و عافية .

يمكن القول أنه يضاف إلى هذه الدوافع عند العربي باطما أن يكتب زجلا من الشعر المغربي الملحون لم يصل إليه أحد من قبله و الظاهر أن الدافع الأول نفسي بحت أما الدافع الثاني فهو دافع إيداعي و الحقيقة أنّ كل منهما مرتبط بشيء واحد هو الرغبة في البقاء و ترك بصمة ما في الوجود دون الانسحاب منه في صمت كما يحدث لعامة الناس و هذا شعور طبيعي نلمسه كثيرا عند أصحاب الهمم العالية و المواهب الفذة من الفنانين و الأدباء و المفكرين .

ثمّة أسباب روحية صرّح بها من ولجوا عالم الكتابة الاعترافية حيث أكدوا أنّ فعل الكتابة في مجال التجارب الروحية المعاشة مبعثها محاولة من محاولات الإنسان أن يعيش إنسانيته و يعود إلى أصل فطرته التديّة التقيّة دون شوائب الحضارة الحديثة التي دخلت في صراع مع الزمن و المادة، فوقعت في أسرهما وخرمت من أنس الروح و لذة التمتع بالمناجاة في عالم الغيب و عالم القلب ، الروح التي نسيته الحضارة الحديثة فسقطت سقوطا موجعا و انتهت إلى حروب و منازعات ، انبثق عنها مناخ نفسي ،تحول فيه الإنسان إلى حيوان استهلاكي ، و كلّ ذلك تحت لواء العقل و الحضارة، لقد تمّ اقتياد الإنسان إلى حتفه بباباحة أنواع من المتع و العلاقات الحيوانية إشباعا لتهم المادة و شهوة البحث عن الجديد

لقد سعى بعض كتّاب التجربة الاعترافية الروحية إلى العودة بالإنسان إلى دواخله، إلى إعلاء روحه الكامنة التي صنعت الحضارة الحقيقية ؛ إلى تقوية تلك الروح التي لا تحسب بالأرقام و لا بالمكاييل و الموازين ، إلى استلها تلك الروح و ما فيها من معاني تروّد المرء الحائر بمعالم الهداية و إرشادات النور و الحقيقة بعيداً عن شطحات الصوفية الغامضة و ضلالات بعض الفلاسفة .

حينما كتب نعيم عبد العزيز الأعرجي¹³⁶ مؤلفه " رحلة في قبول الذات " حاول التأصيل لتجربة روحية فذة متميزة هي تعبير عن أهات الروح في رحلتها للبحث عن الحقيقة و في نفس الوقت هي محاولة لإرشاد الآخر و مد يد العون له حتّى لا يقع في فخ النية و الضلال الروحي الذي ذاقه الكاتب تعاسته و شقاوته لذلك يقول في تصديره لهذه التجربة « هذه قصتي و أنا أجزؤ بشيء من الصدق أن أعيش إنسانيتي كتبته لعلّ فيها ما يذكر الآخر بقصته و إنسانيته إذ قصة أحدنا لا تختلف في جوهرها عن قصة الآخر ... قصتي هذه هو ألم في قلبي و حنين و لعلّ فيها ما يسكن ألما في قلب آخر»¹³⁷ إنّ الكتابة عن التجربة الروحية لدى الكاتب هي هدية نفيسة للآخر بلا مقابل كما هي أشبه بالوصفة الطبية لأنّ الكاتب عاش مرضا مزنا أعياه دواؤه و بشيء و من الإنسانية و الصدق و الشفقة يرشد الأخر إلى معالم الطريق الذي يشع نوره و يملأ سناه أرجاء الكون و لكن الإنسان يتخبط في تيه عماء و لا يستمتع بالحقيقة استمتاعا دون أن يخطئ الطريق فالحضارة المعاصرة مارست بأساليبها و أشكالها المتباينة نوعا من التّصليل باعد بين الإنسان و بين الحقائق الروحية الجوهرية التي تحقّق له التوازن بين عالمي المادة و الروح ممّا يعين على بناء الذات بناء سليما يتيح أسباب السعادة و السكينة الروحية

الكاتب في تجربته يختمها بالحديث عن تجربة إمام الموحدين خليل الله إبراهيم عليه السلام و رحلته في البحث عن الحقّ و صراعه مع نفسه و مع الناس قصد معرفة الله سبحانه معرفة حقيقية يقينية و قد استشهد في هذا السياق بالعديد من الآيات القرآنية التي تقصّ سيرة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، فهذه الإشارة هي نوع من التماس الأعدار للنفس وذلك من خلال التأكيد على أن السالكين لهذا الطريق كثر فليس هو أول و لا آخر من خاض التجربة بل هم صفوة الخلق و هو واحد منهم تاه مده و لكن صدقه في البحث عن الحقيقة كلّ بتوفيق من الله و نيل عنايته .

أراد نعيم الأعرجي أيضا من خلال كتابه "رحلة في قبول الذات" أن يبيّن أنّه على الرّغم من كونه عاش في المجتمعات الغربية المادية التي وقعت في أسر الزمن، فلسفة و تصورا و ممارسة إلا أنه استطاع أن يؤسس لتجربة روحية عميقة يظهر فيها الإصرار على طلب الحقّ و الصبر في نيل مراد الروح، على الرّغم من العوامل الخارجية المعاكسة

135 محمد همام - الاعتراف و التوبة من خلال السيرة الذاتية المغربية - الألم و الرحيل - أعمال الملتقى الثالث للأدب

الإسلامي - دورة 18 يناير 2001

136 نعيم عبد العزيز الأعرجي كاتب عراقي من مواليد مدينة بغداد عام 1951 أمضى معظم حياته في كندا عاش منتقلا بين قارات ثلاث و هو الآن دكتور في الطب الصيني التقليدي الذي يمارسه خصوصا في مجال الضغط النفسي .

137 نعيم عبد العزيز الأعرجي - رحلة في قبول الذات - ص 7

لكنّه بالارتداد الداخلي المتواصل نحو عمق ذاته و الانكفاء على التأمل و العكوف على التفكير والعزلة عن الآخرين تحوّلت العوامل المعاكسة طاقة نفسية قويّة مكنته من الاستمرار في البحث دون كلل أو ملل، تجاوب فيها العقل مع الفطرة السليمة فأثمر في نهاية المطاف تبلور رؤية مستقبلية للإنسان، رؤية ايجابية تحيل إلى معاني التّصالح مع الذات و مع الآخر و مع الله خالق كلّ شيء وكلّ ذلك انطلاقاً من وعي ذاتي وقناعات مؤسّسة تهدم الأعراف المتوارثة و الأفكار الجاهزة و تقيم صرحاً أساسه الاجتهاد العقلي المحض و التّجربة الفردية النابعة من الوجدان الصادق .

قد ينشأ الاعتراف لدى بعض الكتاب عن سرّ ما يتقل الكاهل فالرغبة في الصدق و التخلّي عن الكذب الذي صدر من الكاتب في يوم ما جدير بأن يكون باعثاً من بواعث الاعتراف فالشاعر السوري الدمشقي¹³⁸ شفيق جبيري في اعترافاته " أنا و الشعر " و أيضا " أنا و النثر " تحدث عن بداياته في ميدان الإبداع فعلى الرغم من الشهرة التي حظي بها والنجاح الذي حققه على مستوى التلقي سواء في بلده سوريا أو في الوطن العربي غير أنّه ألحّ على تقديم اعترافاته للقراء حيث «ذكر أنّه قام بإخفاء اقتباسه حين حوّل مقالة المنفلوطي في نظراته إلى قصيدة... اعترف بعجزه عن الإمساك بزمام القصيدة ، كان يفتش عن قوافي القصيدة قبل الشروع في كتابتها و يرجع إلى المعاجم... اعترف بعجزه عن التعبير وهو في قمم الانفعالات إلاّ إذا أسقط هذه الإحساسات على غيره مثلما حدث عندما تحدث عن وحشة الفتاة العانس و عن حنينها إلى قرين ، فقد عبّر في الوقت نفسه عن إحساسه بالوحشية و حنينه إلى القرين »¹³⁹ إنّ الكاتب السوري شفيق جبيري لا ترضيه صورته العالقة في ذهن المتلقي، يشعر بعدم الارتياح لأنّه مارس شيئاً من التّضليل، فمُدّ جسور المودّة مع القراء لا تبنى على التّضليل و المراوغة و لكنّها تشيّد على صروح الصدق و الإخلاص و من هنا فهو يعيد تشكيل الذات و تقديم صورتها الحقيقية بين يدي المتلقي بصرف النظر عمّا يمكن أن تتمخض عنه هذه الاعترافات .

و هذا الدافع من دوافع الكتابة يسمّيه الناقد الفرنسي جورج ماي بالتبرير أي حاجة من الحاجات النفسية التي تحفّز المرء على «الإعلان على رؤوس الملأ ما كان ما أتاه من أفعال أو صدع به من آراء و يكون شعور المرء أشدّ إلحاحاً على وجه الخصوص إذا أحسّ أن النّاس قد افترؤا عليه » و قد كانت تلك حال " روسو " حين قال :إنّ اسمي سيكون في الخالدين ، فلست أريد أن يشتهر بين النّاس بأمر كاذب و لست أريد ألبيّة أن تنسب إلي فضائل أو رذائل ليست مني في شيء و لا أن¹⁴⁰ «أصوّر بملامح غير ملامحي

فالكتابة عن الذات عموماً و الاعترافية خصوصاً تسعى إلى تحقيق نوع من المشاركة الوجدانية مع المتلقي و لتشكيل مناخ التعاطف الإنساني فإنّ الكاتب الاعترافي يفترض في المتلقي ذات متفهّمة ،قابلة للإصغاء و التماس الأعداء و كأنّ المتلقي يضع نفسه مكان الكاتب فيقوم بطريقة لا شعورية بمحاكاة باطنية كما أطلق عليها "جروس" أو كما أطلق عليها "قولكلت و ليس " اسم التعاطف الرّمزي¹⁴¹ . و من دوافع الكتابة أيضا الرغبة في الإفصاح عن مشاعر مؤلمة كابدها الكاتب في مرحلة ما من عمره و كان لها أثر على شخصيته ربما تعود بعض المواقف التي يسردها الكتاب إلى مرحلة الطفولة ومع ذلك بقيت عالقة في أذهانهم ، منحوتة في ذاكرتهم على الرغم من مضي السنين، يذكر الكاتب اللبناني سهيل إدريس بعض المواقف المؤلمة في حياته و على سبيل المثال ما كانت تسببه له قصر قامته من ناحية ولباسه التقليدي الذي يظهر فيه في صورة شيخ صغير من ناحية ثانية فقد كان مبعثاً للسخرية من قبل الصّغار و الكبار يقول :« كان ارتدائي للزّي الديني هو الذي قطع علاقتي مع رفاق الحيّ... رأيتهم يقفون مذهولين حين اقتربت منهم ثم رأيتهم يتراجعون ،كأنّي أخفتهم بهذا المظهر الجديد... حين وقفت أمام المرأة في المنزل تأكّدت أنّ قصر قامتي هو السبب و قد أفنعتني الأيام أنّ ارتداء الزّي الديني هو الذي فضح ذلك القصر في القامة»¹⁴² لقد ألزم نفسه البقاء في البيت طيلة العطلة الأسبوعية حتى لا يكون عرضة لسخرية الآخرين ،خاصة الأطفال الذين تنكروا له ف شعر بعزلة قاتلة كان سببها السخوخة الظالمة التي فرضت عليه،فهو في عزّ الطفولة و عنفوانها بيد أنّ الإرادة العائلية التي علّمته في معهد ديني جعلته يظهر في هيئته الخارجية في صورة شيخ وقور و هي صورة غير طبيعية لمن في مثل سنّه ولعلّ هذا ما جعلها مثاراً للتندرّ و السخرية و بمزيد من الاستبطان للذات البشرية و الولوج في عوالمها الداخلية تحدث بعض الدارسين عن دافع التّرجسية و

الغرور و استجابة المرء لدوافع العظمة والكبرياء « و قد طرح الفيلسوف الفرنسي "إرنست رينان " (1823 - 1892

شفيق جبيري (1898-1980) ولد جبيري بدمشق عام 1898م- أتقن جبيري اللغة العربية والفرنسية وألم بالانكليزية، 138 قرأ الشعر جاهلي ومعظم كتب التراث النثرية والشعرية فقويت لغته وتعمقت ثقافته وضربت بجذورها في أعماق التراث كما قرأ كثيراً للأدباء الفرنسيين وخاصة آناطول فرانس، نشأ في ظل الحكم العثماني وعانى ويلات الحرب العالمية الأولى . "من آثاره أنا و الشعر و " أنا و النثر

139 ماهر حسن - السيرة تاريخ و فنّ - ص 260/262

140 جورج ماي - السيرة الذاتية - تعريب محمّد القاضي / عبد الله صولة - بيت الحكمة - تونس - الطبعة الأولى 1992 - ص 48

141 أحمد بنطامه - فن السيرة الذاتية - علامات و أسس - منشورات ما بعد الحداثة - فاس - الطبعة الأولى 2006 - ص 66 / 65

142 سهيل إدريس - ذكريات الحب و الأدب - دار الآداب - بيروت - الطبعة الأولى 2002 - ص 36

(في نهاية كتابه "ذكريات الطفولة و الشباب" السؤال على نفسه : أواه من كيد الشيطان ،شيطان الغرور !! أأكون قد وقعت صدفة في حباله؟»¹⁴³ يبدو من خلال السؤال المطروح بكل شفافية وصدق أنّ الإنسان و هو يكتب عن ذاته ولو بأسلوب البوح و المكاشفة التي توحى بمعاني الصدق و التواضع إلا أنّ الإنسان مع كل ذلك لا يسلم من السقوط في فخّ الغرور و إن أخذ بالحيطه و الحذر، قد تظهر النزعة الترجسية لدى بعض الكتابات في الفقرات الأولى من المتن على الرغم ممّا يتبناه أصحاب هذه الكتابات من صدق و صراحة في البوح و المكاشفة يقول الكاتب العراقي عبد القادر الجنابي في كتابه "تربية عبد القادر الجنابي" «تذكر وقائع آل الجنابي أنّه ما إن وضعتني أمي على جديد الأرض ،حتّى هبط الملائ الأعلّى فختنت . يقال ،إنّ ثلاثة جوامع أغلقت نهار ولادتي ، ووجد الجيران في اليوم التّالي رجل دين مشنوقا في غرفته ...ترك ورقة كتب فيها "نور أمرني بذلك" ... إذاً برج اسمه السرطان ومن الذين ولدوا تحت هذا البرج كافكا، روسو، شارل ايلوز ، والتر بنيامين...»¹⁴⁴ الكاتب من خلال هذا المقطع يحاول أن يعطي تاريخ ميلاده دلالة خاصة يجعلها تخرج عن مألوف و ولادات النّاس عموما لكن هذه الدلالة تأخذ بعدا نرجسيا فيه الشيء الكثير من تقخيم الذات يظهر ذلك من استعماله لكلمة "آل" التي توحى بمعاني الجاه و العظمة فكثيرا ما يتردّد هذا اللفظ في القرآن الكريم بهذه المعاني "آل إبراهيم ، آل لوط ، آل فرعون" و نفس الشيء يقال عن لفظ "الملائ الأعلّى" التي توحى بمعاني الملكوت العظيم المتعلّق بأسرار الغيب والذي يخصّ الله به طائفة من الخلق اصطفاهم وكرّمهم بمهام معيّنة . يضاف إلى هذا ربط الكاتب لمولده بأحداث بارزة وقعت في مدينته كإغلاق المساجد الثلاثة و الموت الغامض لأحد الأئمة في الحيّ ثمّ يقرّح الكاتب هذا التقخيم حين يبحث عن وسيط ما يضمّ من خلاله اسمه إلى اسم الكثير من العظماء في مجال الفكر و الإبداع أمثال "روسو" و "كافكا" و غيرهم من القائمة التي بسطها الكاتب في السّطور الأولى من مؤلفه و لم يجد الكاتب من قاسم مشترك ينعقد عليه فرط القائمة غير برج السرطان . لا أعتقد أنّ ثمة باعنا من البواعث حمل الكاتب على ما دون غير الاستجابة لنداء تقخيم الذات خاصة و أنّ الرّجل عاش في أوروبا و اقتحم عالم الفكر و الإبداع واستطاع أن يحظى باحترام مبدعيها شرقا و غربا رغم نزعه السريالية الميالة للتمرد و العبث أحيانا .

البواعث الاجتماعية

تجنح بعض الكتابات الاعترافية للتركيز على المعطى الاجتماعي ممثلا في مجموعة من العناصر منها الأبوة ، الأمومة ، المحيط الأسري، لتشمل المجتمع برمّته و بكامل مؤسساته، ففي مجموعة من المتن الاعترافية نرى حرص بعض الكتاب على إدانة الأبوة و رسم صورتها السلبية فالأبّ في المجتمع العربي « يتوضع في قمّة الهرم، ممّا يجعله مصدر القوّة في عملية التفاعل الاجتماعي و للحفاظ على هذه القوّة و إبقائها فاعلة كان لابد من خلق الحواجز على مستوى العلاقات الخارجية»¹⁴⁵ لكنّ هذه القوّة السّلطوية التي تضع الحواجز لحماية نفسها كثيرا ما تقضي إلى عقد و اضطهاد طفولي صارخ، فالكاتب محمّد شكري في مؤلفه " الخبز الحافي" يرى أن انحرافه وتشرّده هو انعكاس حتمي للأبوة الظالمة ولممارساتها، لذلك يقدم لنا في مؤلفه صورة عن الأبّ البيولوجي الذي ينجب ابنا ثمّ يتخلّى عنه ماديا و عاطفيا بل يضطّده و يبتزّه، فيدفعه للعمل في أشقّ المهن ليقبض الراتب الأسبوعي ثمّ ينفقه في الخمر و أماكن الرذيلة وكذلك يدين السّطة الأبوية التي تتحرف عن مجراها الإنساني للتحوّل إلى أداة قمع لا تختلف كثيرا عن أدوات الجلادين و يمتد أثر هذه السّطة حتّى في عالم الأمانى فعلى ماندة الأكل التي يفترض فيها أن تكون مساحة للإستمتاع و الدفاء العائلي تتحوّل إلى رعب و استيلاّب مقبت «يدي ترتعش حين أمزق شريحة اللحم ...أكل بحذر مثل القطّ أناه حاضرة حتّى في غيابها، إرادته هي

143 جورج ماي - السيرة الذاتية - تعريب محمّد القاضي / عبد الله صولة - بيت الحكمة - تونس - الطبعة الأولى 1992 -

ص 68

144 عبد القادر الجنابي - تربية عبد القادر الجنابي - دار الجديد - الطبعة الأولى - 1995 - ص 11

145 أحلام واصف مسعد - مرايا الأبّ و السّطة - دار أزمنة للنشر و التوزيع - الطبعة الأولى 2006 - ص 67

صورة مأساوية لعدم التكافؤ في المستوى المعرفي والثقافي بين الزوجين ثم سطوة التقاليد في اختيار الزوجة و تداعيات ذلك على مستقبل حياة الإنسان العاطفية و الفكرية ،فقد جعلته يعيش حالة من الازدواجية و من الغربة الروحية المستديمة و لعل هذا هو السر في اختيار "غربة الراعي" عنوانا لسيرته الاعترافية و لكي يخرج الكاتب من واقعه المأساوي ويرمم ما تبقى، يستجمع قواه ويطلب من زوجته الانفصال يقول الكاتب «فقد تحدثت إلى زوجتي بهدوء أن لا بد من الانفصال وليذهب كل منا في طريقه دون إعلان الطلاق ولم تعترض على ذلك، وكانت مسافرة لتزور أهلها الذين لجؤوا إلى طولكرم، ثم بعد أقل من ساعة لحقت بها ورجوتها أن تتسي ما قلت فأنا لا أطيق أن أزيد بها وبطفلينا عدد اللاجئين ولتمض الحياة بنا كيفما كانت»¹⁵⁴ هكذا ظل هاجس التخلي عن الأسرة و القرية عالقا في ذهنه، بعد أن تزوج وأصبح أباً، وكان الزواج على ذلك النحو قد تحول إلى «عقدة» نفسية دفعته إلى الالتحاق بجامعة القاهرة كمحاولة للخروج من المأزق النفسي الذي صار يؤرقه باستمرار.

إن اعترافات إحسان عباس مبعثها أهات الغربية الروحية ذات الأبعاد المتعددة التي هُشمت الذات و مزقت أوصالها و رمت بها في أوحال التشاؤم و الانطواء بحثاً عن ملاذ يحقق لحظة من لحظات الخلاص و الفكاه، و هي أيضا إدانة للواقع الأسري وللأعراف و التقاليد الاجتماعية التي تصنع في أحيان كثيرة مأساة الإنسان .

أما في بعض التجارب فنرى الدائرة تتسع لتحيط المجتمع برمته وبالكثير من مؤسساته، حيث يحمل الكتاب أوزار معاناتهم و عذاباتهم للمجتمع الذي تخلى عنهم ولم ينصفهم رغم مواهبهم و كفاءاتهم العلمية، يتجسد هذا المعنى في تجربة الكاتب المغربي رشيد نيني¹⁵⁵ الموسومة بـ"يوميات مهاجر سري" و زميله الروائي و الشاعر مصطفى شعبان الموسومة بـ"أمواج الروح" ، يكشف كل منها عمق معاناته من الإقامة غير الشرعية في الثراب الأوربي فالنص يمثل متنقسا عن أشجان و أم الغربة و في نفس الوقت هو إدانة للمجتمع الذي يرمي بفلات أكباده إلى ما وراء البحر في مصير مظلم مجهول أول ما يكتنفه الذل و ازدراء المجتمع الأوربي الذي يلفظ كل ما هو عربي ثقافة و حضارة و عرقا ، يضطر الكاتب تحت وطأة الجوع إلى ممارسة مختلف المهن، يسأل المشرف على ورشات البناء رشيد نيني عن مقرّ سكنه فيجيبه ثم يقول في نفسه «سنأكل الاسمنت إذا أردت .. كئنا ننقل دعائم حديدية من مكان إلى مكان و استمر العمل هكذا إلى تمام السادسة، عدنا إلى البيت شبه قتلى من شدة ما استنشقت من غبار جفّ أنفي و حلقي، اشتغلنا كالدواب لأننا كئنا تحت التمرين لم نتحدث معه عن الأجرة و لم يستفسرنا هو عن الأوراق، من شدة التعب هجرني النوم»¹⁵⁶ و من مشاهد الإدانة للمجتمع الذي تغيب فيه العدالة الاجتماعية و تضيق في الحقوق أن يتحوّل الرجل المتقّف إلى لص يسرق محافظ النساء الأوربيات في جنح الليل هربا من الجوع «كنت مضطرا على قضاء اليوم الثالث بلا أكل، التمر الذي أسرق من السوبر يجعلني أحافظ على البقاء .. جذبت الحقيبة بقوة و ركضت أو شكت المرأة معها على السقوط»¹⁵⁷ لكن لسوء حظه لم يجد شيئا فيها و هذه الحادثة تدفعه لمناجاة ذاتية يخلص فيها إلى أنه أخطأ طريق الحياة فدخلها من باب الكتابة و كان عليه أن يدخلها بخطوات لص ، الكاتب في حالة هذيان يتصدّد من خلالها إدانة المنظومة التربوية و الاجتماعية في أن واحد . لقد قضى حياته في المدارس و الجامعة ليلتحق بالنخبة المتقّفة و يكون له دور في المجتمع و الوطن غير أنه وجد نفسه في مأزق و في حالة من الإحباط دفعت في نهاية المطاف إلى هجرة الوطن و النعمة على الدراسة و البحث عن بديل كريم لعل الهجرة إلى الغرب تحقق شيئا منه ، يقول الكاتب «لقد قضيت عمري كلّهُ فوق طاولات الدرس و انتهيت إلى أقسى عقاب يمكن أن يطال الإنسان هو هذا بالضبط .. عندما انتهيت و جدت أولئك الذين لم يجلسوا في حجرة الدرس يقرّرون مصيرك في البرلمان و البلديات و لا أعرف أين أيضا»¹⁵⁸ و امتدادا لهذه التجربة يتقاطع الكاتب مع زميله مصطفى شعبان غير أن مصطفى شعبان في تجربته يركز أكثر على هاجس الخوف ، فهو يحيا في رعب مستمر ، ليل نهار ، فهو يقيم بطريقة غير شرعية في فرنسا و بالتالي يتوقع السقوط في شرك الشرطة في آية لحظة لذلك يمارس أدوارا أثناء تحرّكاته في باريس حيث يرتدي ملابس محترمة و يحمل معه محفظة توحى بأنه طالب جامعي حتى لا ينتهبه إليه الشرطة «مشيت في الشارع و منه إلى الزقاق الصغير بخطوات طائر يترقب بندقية قنّاص»¹⁵⁹ يحاول المقاومة بالعمل بالصبر بل حتى بالمهدئات لكن دون جدوى ، أمام حالات الإحباط اليومية المتكررة يفكر في العودة إلى الوطن الأم للتخلص ممّا هو فيه «تفويض نفسي شوقا للوطن ، أفكر في

154 إحسان عباس - غربة الراعي - ص 157

155 رشيد نيني من مواليد 16 أكتوبر 1970 صحافي مغربي، بدأ حياته عاملا ومهاجرا سريا بإسبانيا، ليعود بعد ذلك لبلده الأصلي المغرب حيث اشتغل بالقناة الثانية المغربية، وذلك ببرنامج نوستالجيا بجانب عمله كصحافي بجريدة الصباح. في شتنبر 2006، أصبح يتّراس تحرير جريدة المساء التي تعد الأكثر شهرة ومبيعا بالمغرب

156 رشيد نيني - يوميات مهاجر سري - منشورات عكاظ - المغرب - 2009 - ص 100/101

157 رشيد نيني - يوميات مهاجر سري - ص 66

158 المصدر نفسه - 2009 - ص 68

159 مصطفى شعبان - أمواج الروح سيرة مهاجر سري في باريس - ص 42

العودة، أكره أعذب أقلق، ثم تهدأ أعصابي و أنا أتذكر ركلات المخزني تلاحق مؤخرتي وأنا أجري أجر كروستي لأنجو برزقي و رزق والدتي ، نعم هذه غربة وغربة الوطن غريات «¹⁶⁰ لكنه يحجم عن الفكرة حين تغلبه مشاهد الذكريات عن الوطن الذي هو مرادف للجوع والإهانة ، يدخل في دوامة من الأفكار والمشاعر المتناقضة «تعب جسدي وترجم ما بي من هم و قلق أصبحت حياتي جحيما، يحضرني الخوف من كل شيء،فكرة المرض والموت تلاحقني و لا أعرف كيف أعود إلى حياتي التي كنت عليها قبل أن أركب البحر ، أبحث عن عافيتي ! أين أجدها «¹⁶¹ لقد حاصر شبح المرض والموت الكاتب من كل مكان لا ينام إلا بأقراص النوم المهدئة ،ذهب عند الأطباء مرّات و مرّات لكن دون جدوى، لقد أكد له الأطباء أنّ حالته الصحية ناجمة عن الخوف المستديم الذي لا يبرح ذهنه لحظة واحدة و هنا يقرّر الكاتب العودة إلى الوطن مهما كان الثمن فقد بلغ الخوف من الوقوع في قبضة العفاريث (أي الشرطة الفرنسية هكذا يسميهم الكاتب في متنه) مبلغا عظيما فالموت في الوطن الأم خير من الموت في ديار الغربة حيث لا وطن و لا حياة ، و حدة قاتلة ،كأية بلا حدود . هاجس هستيري من الوقوع في شرك العفاريث

يتحوّل النص الاعترافي في بعض التجارب إلى أداة لقراءة مزدوجة، قراءة الآخر وقراءة الذات من خلال الآخر، فالكاتب المغربي رشيد نيني وهو يستعرض اعترافاته ومعاناته بسبب الهجرة السرية إلى إسبانيا يكشف عن مجموعة من العقد المترسبة في الضمير الجمعي العربي «أعتقد أنهم عنصريون لمجرد أن لا أحد يفهمني عندما أتحدث معه بالفرنسية لكنني في الأخير انتهيت إلى أنهم يجدون ذواتهم أكثر في لغتهم الأم ليسوا مثلنا،نحن نلوذ بالفرنسية لأننا نعتقد أنّها لغة النخبة،لذلك يسكننا المعجم الفرنسي»¹⁶² ففي بداية التعامل مع الاسبانيين كان يعتقد أنّهم عنصريون يكرهون اللغة الفرنسية و أنّ الواحد منهم لا يتكلم بها بدافع الكراهية ،رغم إجادته لها لكن هذا الفهم الخاطئ سرعان ما تلاشى بفعل الاحتكاك والتعامل عن كثب عبر الزمن ليخلص الكاتب إلى نتيجة مفادها أنّ الإنسان الإسباني يجد ذاته و يحسّ بوجوده النفسي والثقافي عبر التحدث بلغته الأم و ليس كما هو الشأن عند الإنسان العربي الذي يعيش حالة من الاغتراب الثقافي و مركب النقص إذ يترك لغته العربية،اللغة الأم و يتحدث باللغة الفرنسية كلّ ذلك يتم تحت وطأة الاستلاب الفكري و الثقافي سواء شعر بهذه الحالة أم لم يشعر و لعلّ هذه الملاحظات تولدت من خلال التعامل المباشر مع الآخر (الإنسان الأوروبي)في مناخه الاجتماعي و الثقافي ،يضاف إلى هذا قدرة الكاتب على مصارحة الذات وكشف مواطن الخلل فيها، سواء من منطلق فردي خاص بعوالم الكاتب الذاتية أو من المنطلق الحضاري و الثقافي الجمعي .

قد أشرنا في مدخل هذا البحث أنّ النص الاعترافي نصّ حوارى ، حوار مع الذات وحوار مع الآخر، ففي نهاية التجربة الاعترافية للكاتب رشيد نيني نشعر وكأنّه يتوجه إلى الشباب، إلى الحالمين بالفردوس في بلاد الأندلس عبر قوارب الموت و حرق جواز السفر مؤكدا قسوة الهجرة السرية على المستويين المادي و المعنوي «لكي تعيش هنا يجب أن تشتغل كبغل جبار و ليست هناك كنوز مطمورة في مكان من هذه الجزيرة ...أحيانا يكفي أن تفتح راحتيك أمام رجال الأمن ليتأكدوا أنّك تكدر في الحقول كي يخلوا سبيلك، فالأصابع المشققة تفيد كثيرا كبطاقات هوية للمهاجرين العرب ...إذا لم تصدقني اذهب لترى كل هذا بنفسك»¹⁶³ هكذا يضع الكاتب المتلقي في تحدي، يطلب منه المعاينة الحقيقية للفردوس الذي يحلم به الكثيرون على الضفة الأخرى مؤكدا أنه مجرد احتراق للذات ليس من ورائه أي طائل. و قد يتحوّل الخطاب إلى محاكمة للأجيال سواء المثقفون أم الحكام ،كلهم سواء في قاموس الوهن و العجز الاجتماعي والحضاري يمرر الكاتب هذه الفكرة من خلال مجموعة من النداعيات، نداعيات الألم التي تقود إلى طرح أسئلة غريبة في ظاهرها لكنّها ذكية في باطنها لأنّها تعكس انتماء حضاريا معطوبا واقعا فكريا مرتها ن لا تبدو فيه بارقة في المستقبل للأجيال «أتذكر درس التاريخ في الابتدائي حول فتح الأندلس ،كنت استغرب كيف استطاع طارق بن زياد أن يحرق السفن حتى لا يعود أحد إلى المغرب، الآن أيضا أفهم لماذا يحرق المهاجرون جوازاتهم عندما تلوح لهم أضواء الأندلس و يرمون بها في عرض البحر لكي لا يعود أحد حيا إلى الضفة الأخرى»¹⁶⁴

حين نبسط النصوص الاعترافية التي تناولت تجربة الهجرة السرية نجد أنفسنا بصدد التعامل مع تجربة إبداعية و إنسانية نادرة التعديل ذلك لأنّها كتبت بأيادي ذاقت مشقة العمل في ورشات البناء و الحديد وأقبيبة المطاعم و الحقول الشاسعة في مناخ بارد قاس،سواء في فرنسا أم إسبانيا فالمعاينة واحدة و لسان الحال واحد .لقد كتب جيل من المبدعين العرب - في قالب روائي - عن الأم الهجرة و الغربة عن الوطن الأم و التصادم الثقافي والحضاري مع الآخر، أمثال الروائي الطيب الصالح،سهيل إدريس،طه حسين توفيق الحكيم و غيرهم لكن هؤلاء كان وضعهم في المجتمع الغربي وضعا طبيعيا فقد وفدوا إليه ضمن بعثات علمية رسمية فهم يدرسون في الجامعات و يقيمون في الحيّ اللاتيني تماما مثل المواطن الأوربي كما أنّهم يتقاضون مبالغ مالية محترمة تكفل لهم العيش الكريم، البواعث ليست واحدة فالجيل السابق كتب عن الغربة وعن أوروبا من منطلق الطالب الجامعي الذي يلج تجربة اكتشاف ثقافة و حضارة الغرب أمّا أصحاب التجارب الاعترافية التي نحن بصدد الحديث عنهم فقد خاضوا التجربة من باب إدانة الظلم الاجتماعي وتصوير حقيقة الفردوس المفقود الذي يحلم به

160 المصدر نفسه - ص 52

161 المصدر نفسه - ص 163

162 رشيد نيني - يوميات مهاجر سرّي - منشورات عكاظ - المغرب - 2009 - ص 61

163 رشيد نيني - يوميات مهاجر سرّي - منشورات عكاظ - المغرب - 2009 - ص 170 / 171

164 رشيد نيني - يوميات مهاجر سرّي - منشورات عكاظ - المغرب - 2009 - ص 170

كثير من الشباب و الذي ليس في حقيقة الأمر إلا سرايا سرعان ما يتبدد عند محك التجربة في التراب الأوربي، ناهيك عن كون الجيل السابق عاش تجربة في إطار تاريخي كانت فيه صورة الإنسان العربي لا تزال تحظى بشيء من الاحترام في الغرب و ليست قائمة، مشوهة كما هي في الوضع الراهن خاصة بعد حرب الخليج والأزمات الاقتصادية الحادة و شبهة الإرهاب التي باتت تلاحق كل من له صلة بالعروبة و الإسلام أينما حلّ.

البواعث السياسية

يشكّل كشف الممارسات الجائرة للأنظمة الاستبدادية و فضح أساليبها التي تنتافي مع أبسط أجدبيات الإنسانية باعثاً قويا لدى طائفة من الكتاب الذين ذاقوا تجربة الاعتقال المريعة حيث ارتقوا هرم التعذيب درجة درجة و هوى جلاذهم في وُحْل الوحشية دركة دركة تقول زينب الغزالي في كتابها أيام من حياتي واصفة مرارة السجن أيام الحكم الناصري « لقد مرت بكل درجات التعذيب درجة درجة، من الجلد بالسياط المجنونة كألسنة اللهب إلى نهش الكلاب المدربة إلى زنزانة الماء إلى زنزانة النار ثم تكررت عملية الجلد و الصلب و التعليق على الأعواد كالدبائح إلى عذاب يحطم الأعصاب والأرواح وجاءت النيابة لتستكمل المهزلة فصولها و يعاقب المظلومون في ظل العدل وسيادة القانون»¹⁶⁵ فالنص الاعترافي هنا يقدم بطاقة هوية للنظام و يرسم جيدا ملامح العهد الناصري في مصر و صانعيه سواء عبر معجم الجلادين أو عبر المؤسسات الرسمية مثل القضاء فصورة المؤسسات السياسية الرسمية و الممارسات السياسية تُقدم للمواطن بشكل مقلوب ووظيفة الكتابة الاعترافية هي وضع الصورة في شكلها الطبيعي وإطارها الموضوعي بعيدا عن زخم الدعاية الإعلامية و ألثها الوهمية، لذلك نرى الكاتبة و حتى بعد خروجها من السجن و انتهاء العهد الناصري تؤكد على ضرورة محاكمة هذه الأنظمة و رموزها الذين صنعوا مأساة الإنسان فهي لا ترى فيهم رموزا وطنية أو قومية كما رسمتهم صور الإعلام الرسمية بقدر ما تراهم رموز عار، ينبغي أن يتخلص الوطن والأمة من إرثهم الأسود وتركاتهم الإجرامية القائمة تقول الكاتبة « هل لي أن أتساءل لما لم يحاكم عيد الناصر على ما ارتكب من جرائم لتستطيع مصر أن تواجه التاريخ وتقف و رأسها مرفوع ؟ إن الأمر لجدّ خطير إن لم تنتبرا مصر من جرائم وقعت في عهد عبد الناصر و إلى أن يأتي ذلك اليوم فستظلّ مصر كلها مسؤولة عن جرائمه»¹⁶⁶ فمطلب الكاتبة ليس مطلباً فردياً تمليه عاطفة التشفي في النظام الذي صنع الهزائم العسكرية و عذب الأحرار و لكثه مطلب وطني و ديني يمليه الواجب الحريص على صفاء صورة الوطن و الأمة و بقاء رايتهما خفاقة في سماء التاريخ، كما يظهر إصرار الكاتبة على مطلب المحاكمة ببيان السبب الموجب لذلك حيث لم تكن وحدها في المعتقل بل كانت رفقة منات الأشخاص من الأحرار الذين نكل بهم رموز النظام حتى بلغ الأمر إلى تصفيتهم جسدياً بشكل جنوني نلمس ذلك من خلال الإهداء الذي تصدر الكتاب حيث تبدو فيه نبرة الحزن و الألم ممزوجة بالتحدي الشامخ و بروح الوفاء للذين ماتوا و شفقوا من أجل المبدأ، تقول الكاتبة في إهدائها « إلى النفوس النقية التي أزهقت في سبيل ربّها و ذهبت إليه تشكو ظلم البشرية... إلى الدماء التي سالت لتكون موجا هادرا يدفع الأجيال عبر

التاريخ... لكل هؤلاء وللمسلمين في مشارق الأرض و مغاربها أقدم هذا الكتاب»¹⁶⁷ إن حدة الألم و مرارة المعاناة التي مرت بها و غيرها من نزلاء السجن الحربي و كثير منهم فاضت روحه تحت ضربات السبايط داخل الحجرات المظلمة و عليه فمن الطبيعي أن يكون العقاب من جنس العمل و هو كشف المستبدين و توصيفهم توصيفا يفضي إلى تصفيتهم معنويا حتى يغيبوا في دهاليز التاريخ و يلقمهم النسيان فلا تبقى لهم باقية خلافا لما أرادوا و سخرُوا كل الوسائل لتحقيقه و أفنوا أعمارهم في تعذيب المخلصين و النزهاء من أجله . بيّنت زينب الغزالي أيضا مسألة مهمة و هي أنّ الخلافات التي كانت بينها و بين نظام عبد الناصر لم تكن فقط من أجل تباين وجهات النظر و اختلافات في الطرح السياسي و مشروع المجتمع المصري بل كانت أمتدادا لنوازع شخصية تافهة و حقيرة حين تصرح أنّ عبد الناصر كان يكن لها عداوة شخصية و كان يحضر أحيانا جلسات التعذيب ، تقول « جن جنون عبد الناصر فقد سلبته امرأة و رجل جيله كما كان يصيح فيمن حوله كانت المرأة أنا و كان الرجل عبد الفتاح عبده إسماعيل »¹⁶⁸ هذه تقريبا الدوافع التي يمكن استخلاصها من خلال التجربة . " الاعترافية لدى زينب الغزالي في مؤلفها "أيام من حياتي

أمّا الكاتب السوري فرج بيار قدار فهو الآخر يدين القمع و صورته المختلفة من خلال تجربة الاعتقال في السجون السورية و هو يتقاطع مع تجربة زينب الغزالي في تقديم صورة مشينة قائمة عن الأنظمة العربية التي مارست الاضطهاد ضدّ منقفيها و مبدعيها الذين يرفضون كيل المدائح و بهرجة الفصائد و الخطب لرموز السلطة و أجهزتها لكنّه إضافة إلى هذه المعاني يدين صمت المثقفين الذي يراه مرادفا للخيانة ، خيانة المبدأ و الضمير يتجلى هذا المعنى من خلال العتبات النصية بداية ، من العنوان و الإهداء و المقدمة ثمّ المتن بل و حتّى من خلال غلاف الكتاب و لونه و رسوماته فاللون الأحمر هو اللون الذي اختاره الكاتب لغلاف مؤلفه و هذا تأكيدا منه على موقفه و إصرار ا على انتمائه اليساري الذي لا يخفيه على أحد بل يلتزم به التزاما قويا حتّى و إن ذاق مرارة التعذيب و السجن من أجله فهو شكل من أشكال التحدي و إثبات الوجود المغاير للآخر و أمّا صورة الغلاف التي تمثل إنسانا مكتمًا، عليه قفل من حديد يلف رأسه من جميع النواحي حتّى لا يعرف، فهي دلالة واضحة على سياسة القمع و الاضطهاد و تهميش المثقفين و تغييب حرية الرأي و التعبير عن الفتاعات المغايرة ، لقد بدا للكاتب أن الذي حدث له و لأقرانه ما كان ليحدث لولا خيانة الصمت فقد لاذ الكثير من المثقفين بالصمت و فضلوا السلامة دون الولوج في صدامات دامية مع الأنظمة البوليسية التي لا تعرف سوى لغة القمع و الاعتقال و الكاتب حين يستعيد صورة ما جرى يشعر بالعجز و الضعف فمفردات اللّغة عاجزة عن تقديم صورة دقيقة و واضحة لما حدث فاللّغة تخون و لا تقي بما في وجدان الكاتب و الآخر يخون أيضا حين بلوذ بالصمت و يؤثر السلامة مع النظام ، يؤكّد على معاني الخيانة و الصمت حين يشيد بالدور الذي لعبته منظمات عالمية في إطلاق صراحه و الضّغط على الحكومات العربية الإستبدادية «أكتب الآن و أنا حرّ بدرجة ما ، و على نحو ما ، و ذلك بفضل حملة دولية بدأها عدد من الأصدقاء ثمّ اتّسعت لتضمّ العديد من الأسماء الثقافية و السياسية و المنظمات مثل :اللجنة العالمية لمناهضة القمع ،نادي القلم العالمي،الأمستني،و منظمة صحفيين بلا حدود...»¹⁶⁹ مفارقة عجيبة من مفارقات المنتج الاعترافي العربي حينما يقدّم الدليل القاطع و الشّهادة الحية على وساطات المنظمات الأوروبية شرقيةا و غربيةا لتمارس ضغطا على الحكومات العربية كي تخلي سبيل منقفيها و مبدعيها و تتركهم في عافية يتمتعون بنسائم الحرية التّدية كباقي البشر .

يكشف الكاتب السوري بيار قدار عن مأساة لا نظير لها في الاعتقالات السياسية وهي اعتقال القصر، لقد التقى بسجين له خبرة واسعة بأجواء السجون و لما سأله عن عمره قال أربعة عشر عاما قال : « اعتقلوني و عمري أربعة عشر عاما و أنا الآن لا أزال متوقفا عند ذلك العمر .. ليس بوسعي أن أتجاوزهُ»¹⁷⁰ لقد بلغ الأمر إلى اعتقال الأطفال القصر و هذا الأمر شبيه جدا بما فعلته النازية في الحرب العالمية الثانية حين لاحت الهزيمة العسكرية لهتلر فأقحم الأطفال القصر في حرب لا يفهمون معناها ، و الأنظمة السادية الاستبدادية تسير على نفس الخطّ و تمارس نفس الطقوس لحماية وجودها . بأي شكل كان ،كلّما لاح لها في الأفق ما يهدّد كيانها .

و أمّا الكاتبة المصرية نوال السعداوي فتري في الكتابة الاعترافية وسيلة من وسائل الدفاع عن الذات باعتبارها امرأة و إنسانة لها وجود فكري و فني « لم يبق لي من سلاح في حياتي إلّا القلم أذافع به عن نفسي عن حرّيتي و حرية الإنسان في كلّ مكان ... لأقول للنّاس أنّني أكره الظلم و أحبّ العدل و احترم الإنسان و لا انحني للسلطان مهما كان و لا أقول نعم... سأظلّ أكتب ، سأكتب و إن دفونني في قبر ، و إن أخذوا القلم و الورق سأكتب على الجدران ، على الأرض ، على قرص الشمس و وجه القمر »¹⁷¹ تمثّل الكتابة الاعترافية إذن عند نوال السعداوي ممارسة للوجود الذاتي الحرّ وسلاحا ضدّ أي إكراه سياسي أو اجتماعي و عبر المتن يحسّ القارئ أنّه أمام امرأة متمرّدة إلى أقصى الحدود على أشكال الظلم الاجتماعي و السياسي و إضافة إلى ما كتبت زينب الغزالي و فرج بيار قدار و الكاتبة السعودية عالية مكّي في إدانة الأنظمة السياسية و كشف ممارساتها الاضطهادية لمواطنيها فإنّ فعل الكتابة لدى السعداوي له باعث آخر يرتبط بمفهوم ممارسة الكتابة الاعترافية من منطلق أنثوي يؤسس لهدم أعراف المجتمع الحريمي الذي ينظر إلى المرأة نظرة دونية فيها الكثير

167 زينب الغزالي - أيام من حياتي - صفحة الإهداء

168 زينب الغزالي - أيام من حياتي - ص 190

169 فرج بيار قدار - خيانات اللّغة و الصمت - تغريبتني في السجون السورية - ص 9

170 فرج بيار قدار - خيانات اللّغة و الصمت - تغريبتني في السجون السورية - ص 137

171 نوال السعداوي - مذكرات من سجن النساء - ص 12 / 13

من معاني الأزدراء و التهميش و بقدر ما اعتقلت و بقدر ما سجننت بقدر ما ازدادت تشبهاً بمواقفها و إصراراً على ممارسة التحدي ضد الآخر سواء كان زوجاً أو وزيراً للصحة باعتبارها تعمل في مؤسسات طبية أو سياسياً أو رجلاً يمارس الهيمنة الذكورية حسب تصورهما الخاص وهي تعي جيداً دور القلم تعلمت هذا من تجربة الاعتقال « حين صاح المسؤول 172 »البوليسي في السجن قائلاً: لو وجدت عندك طبنجة أهون عندي من الورقة و القلم

و في سياق الحديث عن البواعث السياسية نقف ووقفه مع تجربة الكاتب الجزائري مرزاق بقطاش في كتابه الموسوم بـ"دم الغزال" يؤكد الكاتب ضمن تجربته على بنيته النفسية و الاجتماعية التي تخوله أن يُصنف في خانة أهل الفن و الفكر و الإبداع و أنه لا يمت لعالم السياسة بصلة بل يكره السياسة و السياسيين لكن المحنة التي شهدتها البلاد في العشرية السوداء حملته على ركوب الموجة العاتية يقول الكاتب « أشهد الله على نفسي أنني لا أحب أن أقف مع أحد ، ألا أساند أحد لأنني لا أرتاح إلى السياسيين ولكن الظروف جاءت عاصفة داحرة، فالذي لا يشتغل بالسياسة وجد نفسه في قلبها و الذي يهيم بها عشقاً أبعد عن ساحتها إبعاداً كلياً »¹⁷³ يشهر الكاتب اعترافه فيقرر بأنه متقف استدرج من حيث لا يشعر ، و رغم كراهيته للسياسة وجد نفسه في خضمها ، لقد أحسّ في اللحظات التاريخية التي تمّ فيها اغتيال الرئيس الجزائري الراحل محمد بوضياف أنه يتحمّل مسؤولية ما، لذلك نراه يقسم بأغلب الأيمان لإقناع المتلقي بمواقفه السياسية التي لم تكن في أي يوم ضمن جدول طروحاته لكن نداء الوطن أيام المأساة حمله على ما فعل ، هي إلى حدّ ما محاولة لتبرير بعض المواقف الذاتية و التبرؤ من ممارسات كان لها وقع على واقع البلاد حاضراً و مستقبلاً و لكنّه تبرير ساذج هو أقرب إلى التبرير الطفولي منه إلى طرح المثقف الواعي الذي ينبغي أن يكون على دراية تامّة بما يحدث في الوطن كما ينبغي له أيضاً أن يملك تصوراً ناضجاً و رؤية دقيقة للمستقبل، لكن الطعنة الغادرة في الظهر التي أصابت الراحل بوضياف فاقت كلّ وصف و جعلت الكاتب يحاول ترميم قناعاته و مواقفه و ذلك حين يصبّ جام غضبه على الطبقة السياسية في البلاد يقول واصفاً مشهد الدفن و التأبين في مقبرة العالية « النخبة السياسية كلها موجودة في من هذا المربع ، عفوا اللعنة السياسية كلها ماثورة في المكان ... ألا ما أشبههم بتلك المجموعة من قطاع الطرق خلال العهد الأندلسي ، التاريخ يقول عنهم إنهم لم يستطيعوا أن يجتمعوا على رأي واحد في يوم من الأيام لكن الموت جمع رؤوسهم كلها في قفة واحدة ... النغمة النشاز التي كانت تقلق الأوركسترا تمّ محوها تماماً رصاصات قليلة صوّبت إلى القفا و الظهر و انتهى كلّ شيء »¹⁷⁴ لقد حاول الكاتب عبر بعض اللوحات المشهدة أن يقدم رثاء عميقاً صادقاً للرئيس الراحل محمد بوضياف و في نفس الوقت يؤكد على أنّ القتلة الذين غدروا به، الكثير منهم ممن له يد طولى في الغدر و قدم راسخة في الإجرام هو في المقبرة يشيخ الفقيه ، الكاتب يدين التفاق السياسي و يشرع في حريات تاريخية مبيّنة أنّ الذين اجتمعوا في مربع الشهداء على اختلاف توجهاتهم و قناعاتهم السياسية أنهم لم يتفقوا يوماً حول مشروع في مستوى الشعب الجزائري و تطعناته غير أنّ مربع الموت كما يسمّيه هو الذي جمعهم

حريات الكاتب التاريخية تحيله إلى تداعيات كثيرة يرفصها رصفاً ليبيّن أنّ تاريخ القتل و التصفية الجسدية له جذوره التاريخية و هو معلن لا يرتدي ثوب المؤامرة بل هو معلن و كأنّ الشعوب مخدّرة و متفبها في غيبوبة غريبة مستديمة. هذا ما يحزّ في نفس الكاتب و يولد لديه عقدة ضخمة « و كيف لا أعاني مثل هذه العقدة و أنا أرى بأمّ عيني كيف يصدر رئيس الجمهورية الأمر لزبانيته بإطلاق النار على جماعة المتظاهرين فيسقط منهم حوالي مائتي شخص في ظرف ثوان معدودات ؟ ثمّ يجروّ على ترشيح نفسه للانتخابات بعد شهر واحد و ينال تسعين بالمائة من الأصوات بقدرة 175 »قادر !! أليست هذه المهزلة الحقيقية ؟

إنّ الكاتب يحاول أن يكون صادقاً مع نفسه إلى أبعد الحدود حين يعترف بسذاجته و كيف كان العوبة في يد أهل المكر من السياسيين « أكره السياسة و السياسيين و لا أرى الخير فيهم أبداً ... ما شعرت بالارتياح حيال أيّ واحد منهم ، قد يكون هذا الاعتراف متأخراً ، شديد التأخر ، لكن لا مناص من الإفضاء به في هذه السطور التي أريد لها أن تكون جميلة و صادقة معا »¹⁷⁶ هكذا تجتمع بواعث متعدّدة في اعترافات الكاتب الجزائري مرزاق بقطاش في مؤلفه "دم الغزال" أدانة للطبقة السياسية التي أدخلت البلاد في فوضى عارمة فتكت بالأموال و الدماء و الأعراض و مارست التثوية في حقّ الوطن و تاريخه و مستقبله و أرجعته سنوات عديدة إلى الخلف مقابل أهواء و أطماع و غرائز نهمه لا يعرف الشعب إليها سبيلاً و هي أيضاً مرثية صادقة في حقّ الرجل التاريخي الثوري السّمح الذي جاء لإنقاذ البلاد فلم يجد غير رصاصات في الظهر على حدّ تعبير الكاتب الذي ظل يردد هذا المقطع عبر كامل منته تمّ هي أيضاً محاكمة للطبقة المثقفة التي أنطلت عليها الحيلة فوُقت في فخّ صانعي السياسة من أهل المكر و الدجل و لم تنتبه كيف استغلت و وُظفت في ظروف تاريخية غامضة و أدت دوراً سلبياً غير مشرف على الإطلاق و بكلّ سذاجة صادقت على إملاءات صنّاع الموت و الغدر و مارست التضليل و التّمويه عبر تركيبها للنظام القائم حين استظلت بظلمة و قبعت تحت قبة هيئاته و مؤسساته الرسمية تحت مسمّى خدمة الوطن و لم تكن في مستوى الحدث التاريخي و لا في مستوى تطلعات و آمال الشعب الجزائري

172 نوال السعداوي - مذكرات من سجن النساء - ص 13

173 مرزاق بقطاش - دم الغزال - دار القبة للنشر - الطبعة الأولى 2002 - ص 16

174 مرزاق بقطاش - دم الغزال - دار القبة للنشر - الطبعة الأولى 2002 - ص 11 / 10

175 مرزاق بقطاش - دم الغزال - ص 38

176 المصدر نفسه - ص 14

هذه تقريبا مجموع الأسباب و التوافع النفسية و الاجتماعية و السياسية الكامنة وراء الكتابات الاعترافية التي استطعت استخلاصها من بعض المتون فهي مزيج بين دواعي العقل و الروح و النفس ، بين الأطر السياسية و الاجتماعية التي يتفاعل الإنسان معها أيجابا و سلبا عبر الصيرورة التاريخية و التي تنتظم و تتعالق بكيفية دقيقة و معقدة بحيث يصعب الفصل بينها هذا من ناحية و من ناحية ثانية أنّ هناك دوافعا أخرى لم أفهم عليها لعلها تكشف عن مضامينها في متون أخرى بواسطة المزيد من الحفريات العلمية للمجالات النفسية و الاجتماعية و السياسية .

السيرة الذاتية

الكتابة الاعترافية هي شكل من أشكال الكتابة عن الذات حيث تمثل التجارب الشخصية و التفاعلات المتبادلة بين الذات و معطيات الواقع مادة خصبة لها، كما أنها تُؤسس على البوح و المكاشفة و الولوج إلى عوالم الذات و استبطان أسرارها بجرأة وصدق دون الاكتراث للمواضعات الاجتماعية و الاكراهات السياسية هذا من ناحية و من ناحية أخرى أنّ هذا النوع من الكتابة ينتمي إلى العائلة السردية حيث يستخدم الكاتب فيها آليات و تقنيات سردية هي نفسها التي تستخدمها أشكال فنيّة أخرى . ولهذا لمسنا أنّ الكتابة الاعترافية تتقاطع مع أشكال فنيّة و أساليب خطابية متعدّدة منها السيرة الذاتية ،اليوميات، المراسلات، المحاورات، المذكرات، أدب الرحلات ، الرواية السيرة الذاتية و غيرها . فالمراسلات مثل ما كتب توفيق الحكيم لصديقه "أندريه" حيث اعترف فيها بالصعوبات الجمة التي واجهته في المجتمع المصري بعد عودته من باريس التي قضى فيها جزءاً من حياته أحدث فيها ارتجاجاً فكرياً و ثقافياً كانت له تداعيات على المستوى النفسي و الاجتماعي وكذلك رسائل غادة السمان التي تبادلتها مع الأديب والشاعر غسان كنفاني و من هذه الكتابات أيضاً المحاورات و هي عبارة عن «سرد شخصي ذاتي شفوي أو مدوّن، يعتمد فيه السارد الحواري على الذاكرة و التّصوّر والرؤية والحلم، مستخدماً الأزمنة الماضي والمضارع والمستقبل كافة، حسب متطلّبات السؤال الذي يوجهه المحاور وظروفه وإشكالاته...» ويتوافر هذا النوع السرد السيري على معلومات ومستندات مهمة، تكشف عن نظرية السارد ورويته وتجاربه ومرحلة حياته، بتنوع كبير في طريقة العرض والاستعادة والاستقبال، ويمكن أن تجمع سلسلة الحوارات للكاتب الواحد أو لعدة كتّاب وتنتشر بوصفها وثيقة ذاتية مهمة، تقترب على نحو أو آخر من أشكال السيرة الذاتية»¹⁷⁷ فالمحاورات تمكّن عن طريق الأسئلة الذكية سبر أغوار الكتّاب و المبدعين و الوصول إلى أعماقهم النفسية والاجتماعية و الوقوف على الدواعي التي حرّكت الفعل الإبداعي لديهم، على ما نحو ما قام به الدكتور رجاء النقاش مع الروائي نجيب محفوظ صدر في كتاب نشرته مؤسسة الأهرام و نظيره ما قام به الكاتب المغربي عبد الرحيم حزل لمجموعة من الكتّاب و المبدعين الذين جمعتهم تجربة السجّن و الاعتقال في السجون المغربية في عهد الملك الحسن الثاني ومنها أدب الرحلات الذي يرصد حركة الذات و اهتزازاتها الاجتماعية و النفسية عبر العلاقات المكانية التي تتفجر من النصّ الرحلي من خلال عنصر المشاهدة ما دام يتمحور حول الذات المتأمّلة و المشاهدة و انعكاسات هذه العناصر المشاهدة على الوجدان و العقل دون الاحتفاء الدقيق بالعنصر المكاني فقط . هذه الأشكال الفنيّة تتقارب مع الكتابة الاعترافية إلى حد صعوبة التمييز بينها غير أنّ عنصر المادة الاعترافية التي قوامها البوح و المكاشفة الذاتية هي التي تتيح التمييز بينهما و لعلّ أقرب الأشكال التي تتمظهر فيها الكتابة الاعترافية هي السيرة الذاتية بل إنّ بعض النقاد يرى في الكتابة الاعترافية و السيرة الذاتية وجهان لعملة واحدة مع فارقين اثنين هما المادة الاعترافية التي تشغل في المجال الحواري للذات ثمّ ميثاق القراءة الذي يعده الكاتب مع المتلقي في بداية المتن أو عبر مداخل العتبات النصية . يقول محمد صابر عبيد «يستخدم السرد الاعترافي الآليات و التقانات و الطرائق ذاتها التي يستخدمها السرد السيري الذاتي، غير أنه يتدخّل على نحو أعمق في طبقات الشخصية الجوانية، ولا سيما طبقة المسكوت عنه مُظهراً إيّاها على السطح النصي، كما يتطابق مع السرد السيري الذاتي في آلية التطابق بين الراوي و المؤلف و الشخصية. وبهذا يمكن القول إنّ السرد الاعترافي هو سرد سيري ذاتي يتقصّد الإثارة و النّقد الذاتي اللاذع و تعرية الذات، مما يجعله يدور على المستوى النوعي في فلك السيرة الذاتية، إلا أن الاحتكام إلى الميثاق الذي يحدده الكاتب في وصف مروية الذات هو الذي يحدد النوع السيري الذاتي بين الاعترافات و السيرة الذاتية»¹⁷⁸ . الحقيقة أنّ النصّ الاعترافي نصّ سيفسائي يتميز بالحراك الأحناسي فهو يتمظهر من خلال نصوص و أشكال فنيّة متعدّدة لذلك رأى بعض النقاد أمثال الناقد الفرنسي "فليب لوجون" و "جورج ماي" و "محمد الداوي" ضرورة تحكيم ما اصطلاح عليه بـ"ميثاق القراءة" هذا الميثاق الذي يعده الكاتب مع المتلقي و يُحدّد عبر العتبات النصية بشكل معن و واضح، بحيث يصرح الكاتب أنّ نصّه سيرة ذاتية أو اعترافات أو مذكرات أو يوميات و هكذا، لكن يبدو أن هذا العقد الذي تبناه طائفة من النقاد لا يصمد كثيراً أمام واقع التلقي ذلك أنّه في كثير من الأحيان يكون ميثاقاً زائفاً فعلى سبيل المثال تجربة الكاتب المغربي مصطفى شعبان الموسومة بـ"أمواج الرّوح" كتب على الغلاف سيرة مهاجر سري في باريس أما بالنسبة لزميله رشيد نيني فقد اكتفى فيها بالعنوان التالي "يوميات مهاجر سري" و الحقيقة أنّ كلاهما تدخل في إطار الكتابة الاعترافية للاعتبارين، الاعتبار الأوّل أنها كتابة تتجه إلى عمق الذات بشيء من المكاشفة و البوح بالأم الغريبة كما تعبر عنه المقاطع التي توقفتنا عندها في المبحث الأوّل من هذا الفصل ثمّ التطابق الحاصل فيها بين المؤلف و السارد و الشخصية فهذه العناصر الثلاثة متطابقة، كل عنصر يساوي الآخر يضاف إلى هذا أنّها كتبت بضمير المتكلم أمّا اليوميات فهي أوّلاً تخضع لمواصفات معيّنة حدّها النقاد منها التسلسل الزمني المقنن للأحداث تبعاً للزمن الطبيعي كما أنّ كاتبها ليس ملزماً بالولوج الحواري العميق للذات و هذا ما لا نراه في التجريبتين السالفتين الذكر، بل العكس هو الذي يعلن عنه النصان السابقان. و إذا افترضنا جدلاً أنّ الأولى هي سيرة ذاتية فالسيرة كما يعرفها النقاد هي «حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على

177 محمد صابر عبيد - تمظهرات التشكل السيري ذاتي - مشورات اتحاد الكتّاب العرب

حياته الفردية و على تاريخ شخصيته بصفة خاصة»¹⁷⁹ فالسيرة إذا تاريخ شخص وليست تجربة لمرحلة روحية أو تربوية أو سياسية مرّ بها إنسان ما في فترة محدودة من حياته و لذلك نجد أن بعض السير الذاتية قد تستغرق أجزاء متعددة نظرا لأنها حكي استعادي لتاريخ شخص ما، و كلمة تاريخ تحيل إلى معاني ضخامة المنجز الحياتي لكاتب السيرة الذاتية و الذي استهلك وقتا طويلا من عمر الكاتب لذلك كتب الكثير من المبدعين سيرهم الذاتية في أجزاء متعددة و على سبيل المثال فإن الدكتور زكي نجيب محمود كتب سيرته في ثلاثة أجزاء و خلاصة القول هو أنّ الكتابة الاعترافية لها مظهرات متعددة سواء في الرسائل أو اليوميات أو المذكرات أو المحاورات و غيرها وأنّ المتن هو الذي يؤكد ميثاق القراءة مع المتلقي أو يلغيه فهو الحكم الفصل في هذه المسألة. ولمزيد من البيان والتوضيح في هذه النقطة نتوقف عند تجربة الكاتبة الفلسطينية فدوى طوقان الموسومة بـ" رحلة جبلية .. رحلة صعبة" يحيل غلاف الكتاب على أنّ المتن سيرة ذاتية للأديبة و الشاعرة فدوى طوقان لكن حين نقرأ خلفية غلاف الكتاب نجد كلمة للنقاد الدكتور رجاء النقاش يقول فيها « رحلة جبلية .. رحلة صعبة هو الاسم الذي اختارته الشاعرة العربية فدوى طوقان عنوانا لقصة حياتها التي تروها بصدق و صراحة وأمانة و عذوبة بالغة... لا شك أنّها أصدق و أرقى وأجمل مذكرات كتبتها أديبة عربية في هذا العصر»¹⁸⁰ أمّا بالنسبة للباحثة الأردنية تهاني عبد الفتاح شاکر فقد أدرجت في كتابها السيرة الذاتية في الأدب العربي ثلاثة نماذج من السير الذاتية لدراستها، منها سيرة فدوى طوقان التي تقول عنها أنّها من أدب الاعترافات « هذا وقد أردت أن أتناول أشكالا مختلفة للسير الذاتية، فكانت سيرة فدوى نموذجاً لأدب الاعترافات عند المرأة العربية»¹⁸¹ يبدو أنّ التصنيف الأجناسي من خلال الآراء السابقة يكتفه شيء من الغموض الذي يضيء صفة الضبابية أو التشويش على مستوى التلقي ولعلّ الحل الوسط الذي يفض الجدل هو كون هذا المنتج الإبداعي سيرة اعترافية استنادا إلى المتن في حد ذاته و إلى التعريف الذي تبناه محمد صابر عبيد و الذي أشرنا إليه في التعريف الاصطلاحي في بداية هذا البحث.

المتلقي و هو أمام هذا الكتاب يتضح له من الصفة الأولى أنّه سيرة ذاتية اختارت لها فدوى ضمير المتكلم و هذا المتكلم هو السارد و هو الشخصية الأساسية في هذا العمل الأدبي و بهذه المواصفات يدرج هذا المؤلف في خانة السيرة الذاتية بناء على تعريف الناقد الفرنسي "فليب لوجون" الذي أشرنا إليه آنفا و الذي يبتناه معظم النقاد الذين يشتغلون في حقل السيرة الذاتية، لكن هذه السيرة تختلف عن الكثير من السير الذاتية من حيث المادة السيرية، ففدوى لا تقف في سيرتها عند الحديث عن الذات من الخارج و لا عن علاقات هذه الذات مع المحيط الأسري و الاجتماعي من منطلق وصفي خارجي أو من منطلق تمجيد للذات، يسعى لتفخيمها وجعلها تطفو على سطح الأحداث و مجريات الحياة و لكنّها سفر داخلي في عمق النفس يكشف عن مجموعة من الآلام و المكابدات التي ترسبت لدى الشاعرة منذ عهد الطفولة و هي تستعرضها بناء على معطيات إنسانية و فهوم عميقة و دقيقة تتركس التصالح مع الذات و مع الآخر قصد بناء الإنسان وفق الصور التي تتحقق معها معاني السعادة و يتبدد فيها الشقاء إلى الأبد.

إنّ الذي يدفع تصنيف مؤلف فدوى طوقان ضمن الكتابة الاعترافية التي تقمصت ثوب السيرة الذاتية و تمظهرت عبرها هي جملة من العناصر سنبسط عنها الحديث في هذه الصفحات إن فدوى لا تعرض مادة حياتية من عالم التخيل الذي عادة ما يكون فيه للشعراء و الأديباء حظ وافر و لكنّها تعرض مادة حياتها الخاصة و عالمها الذاتي التي لو لم تكشف عنه هي بنفسها لظل في عالم المخبوءات دون أن يعرف أحد إليه سبيلا، إذا هي تعرض وتسرد وقائع لها وجود تاريخي مادي في الحياة الشخصية و هي تستعرضه بصدق و جرأة و واقعية لم تتح لكثير من المبدعين يضاف إلى هذا أنّها تستعمل في عملية العرض هذه ضمير المتكلم الذي يؤكد معاني الحضور والقوة و عدم الاكترات للإكراهات التي يمارها الآخر على هذا النوع من الكتابة لما يفضح من حقائق غائبة تتعلق بالآخر عبر التجربة الذاتية المحضة. الكتابة لدى فدوى هي صورة لتفسيّتها الممزقة بفعل الواقع الأسري و الاجتماعي و بفعل واقع الاحتلال و ما ترك من تدمير عمراني ونفسي. فعلى المستوى النفسي تبرز فدوى الأم ذات أبعاد وجودية و يتجلى ذلك من خلال الصفحات الأولى للمتن حيث تعبر عن هذا العالم الذي رفض خطواتها الأولى في الوجود وذلك من خلال عملية الإجهاض التي حاولت أمّها القيام بها فهي تريد ذكرا لا أنثى «عشر مرات حملت أمي، لكنّها لم تحاول الإجهاض إلاّ حينما جاء دوري»¹⁸² تتكرس هذه المعاني في وجدان فدوى بعد العلاقة الفاترة التي كانت بينها و بين والدتها من ناحية ثم والدها الذي لم تشعر بوجوده في البيت و لكن سرعان ما احتل العمّ مكانه كبديل عن الغياب العاطفي الأبوي التي كانت فدوى تتوق إليها توقا كبيرا. تصور فدوى أيضا الواقع الأسري المؤلم و تدين الكثير من عناصر الأسرة سواء الأخوة أو العمّة غيرهم لأنّها ترى فيهم صنّاع مأساتها، فتتحدث عن أخيها الكبير أحمد الذي حرّمها من الدراسة مما أضفى على مزاجها طابع الحزن والسوداوية و الانعزال عن الآخرين، فهي ترى نفسها امرأة مظلومة من قبل الأم و الأب و الأخ في مجتمع تغيب فيه العدالة و يخدم فيه صوت المرأة، بل حتى المرأة يكونها عمّة تمارس هذا الظلم في حقها فمن الشخصيات التي اهتمت فدوى بتصويرها و رسم ملامحها شخصية العمّة، عمّتها الشيخة «فقد كانت هذه الشيخة قاسية قسوة جعلتها تشعر بنفاق بعض المتدينين، ولعلّ وجود مثل هذه الشخصية

179 فيليب لوجون - السيرة الذاتية - الميثاق و التاريخ الأدبي - ترجمة عمر حلّي - المركز الثقافي العربي - الطبعة الأولى 1994 - ص 22

180 فدوى طوقان - رحلة جبلية .. رحلة صعبة - كلمة مجترة للدكتور رجاء النقاش - خلفية الغلاف

181 تهاني عبد الفتاح شاکر - السيرة الذاتية في الأدب العربي - ص 6

182 فدوى طوقان - رحلة جبلية .. رحلة صعبة - ص 12

المتدينة، القاسية في طفولتها، كان من الأسباب التي أبعدها عن الدين الإسلامي و تعاليمه، فالشيخة كانت تقول إن الله سيدخل فدوى و أمها النار»¹⁸³ فمن آثار الكلام القاسي أن يولد رد فعل عنيف فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها فأخطاء الكبار ترسبت في نفسية الكاتبة لاعتقاد خاطئ هو الإحساس بدخول النار دون سبب موجب لذلك مما يوحي بعدم وجود عدالة، فالممارسة السلبية للقيم ناتج عن فهم خاطئ للذين لكن الطفل الصغير أو الشاب الذي ين تحت وطأة الظلم و الحرمان لا يفهم المعادلة على نحو ما يفهما الكبار الذين لهم نصيب أو حظ من العلم و المعرفة، وربما هذا السر في الإهداء الذي تصدر الكتاب «لقد لعبوا دورهم في حياتي ثم غابوا في طوايا الزمن»¹⁸⁴ إذا ثمة إحساس عميق بأن الكاتبة عبر الكثير من مراحل حياتها و خاصة الطفولة أنها كانت أرضا مباحة لسلطة الآخرين سواء من داخل الأسرة أو خارجها لذلك كانت تبحث دائما عن العوض فيما هو مفتقد ماديا أو معنويا و قد ذهب بعض الدارسين إلى تسمية سيرة فدوى بسيرة البدائل «ربما جاز القول إن سيرة حياة الشاعرة قد تقسّر بالبدايل فحيث يغيب الأب، يحتل مكانه العم، وحيث يتوارى دور الأم يبرز التعلق بالخالة»¹⁸⁵ تستمر فدوى في تصوير خلجات نفسها و تصوير مواقف الآخرين من مرأة الذات فتشير إلى القيود التي ملأت حياتها و الظلم الذي لاحقها من القريب و البعيد حيث ساقها إلى مأزق نفسي بدأت تفكر معه في الانتحار لولا الإحساس بالشفقة على الأم التي هي الأخرى مهزومة الحقوق، فالانتحار لا يحل مشكلا بل سيضاعف من أحزان و الأم فتخلت عن هذه الفكرة و استسلمت لليأس فانكفأت على الذات و انطوت في عزلة كاملة عن الآخرين «أخذت تتعاطم قدرتي على الانفصال عن عالم الواقع و الاستغراق في أحلام اليقظة، فمن تلك الأحلام كنت انطلق خارج قضبان السجن... أسافر إلى بلاد لا أعرفها و أنتقي بغرباء يحيونني وأحبهم كنت ألغي دائما وجود أحد من أهلي خلال أسفاري الخيالية، فأهلي هم السجن الذي أريد أن أفلت من أبوابه المغلقة»¹⁸⁶ لا شك أن هذه الحالة النفسية من الانطواء و العزلة المقيتة قد استحوذت على وجدان الشاعرة استحوذا كليا يشعر المرء معها أن الشاعرة و الكاتبة فدوى على عتبات الجنون لكن العناية الإلهية أدركتها بعودة أخيها الشاعر إبراهيم طوقان الذي مد لها يد الاغاثة و انتزعها من عالم العزلة و أحلام اليقظة و دفع بها إلى ميدان الحياة و الواقع بالدراسة و التعلم خاصة و أنه شاعر، فقد كان أسنأها الذي جعل منها أديبة و شاعرة معروفة على الساحة الوطنية و العربية و الدولية فقد ترجمت أشعارها و مؤلفاتها إلى الانجليزية و الفارسية و دائما في سياق الحديث عن المادة الاعترافية التي تسردها الكاتبة نقف عند المدى الذي يصل إليه النص و الفضاءات التي يكتسحها تذكر فدوى إلى جانب محنتها الذاتية الخاصة محنة الوطن و الاحتلال الغاصب «هبطت الفضيحة على الأرض العربية... انهزمتنا أحراننا لا تطاق الأعلام البيضاء تلعب بها الرياح على سطوح المنازل أصبحنا محتلين من قبل الجيش الاسرائيلي... أخرجتني الصدمة عن حدود الواقع... حزينه أنا حتى الموت»¹⁸⁷ أسر في البيت تحت وطأة الأعراف و التقاليد الظالمة ثم أسر للوطن و كرامته فقد بات في قبضة اليهود المشردين في العالم و ليس هذا فحسب بل تحت خيانة الأنظمة العربية و صمتها القاتل و لامبالاتها اللامتناهية التي تقف على الطرف النقيض تماما مع مواقف العدو الإسرائيلي فموشي ديان وزير الحرب الاسرائيلي يطلب مقابلتها رفقة عدد من مستشاريه في تل أبيب، حيث يصرح لها أن قصيدة واحدة من قصائدها تكفي لخلق عشرة من رجال المقاومة لكن وفي العام نفسه تسافر إلى مصر و تلتقي مع عبد الناصر و السادات لكن الفرق بين الرئيسين هو أن موشي ديان التقى بالشاعرة مرّة ثانية و سألها عن مضمون الحوار الذي دار بينها و بين عبد الناصر و هذا يترك أثرا لدى فدوى بالمزيد من معاني التهميش للإنسان الفلسطيني و قضيته و ربّما من هذا الباب ساقته الكاتبة هذه الأحداث المتعلقة بالوطن الذي ترى فدوى في مأساته و محنته مأساتها الخاصة و ختما لهذه النقطة و بعد عرض بعض المقاطع من تجربة فدوى طوقان و بصرف النظر عن العتبات النصية أو آراء النقاد التي تحوط الغلاف فإن المتن يحيلنا إلى كتابة اعترافية محضة، فنحن أمام نص اعترافي يستبطن الذات و يقدم مروحي الحياة المأساوية بشكل صادق و جريء ينطلق من أقرب نقطة هي النفس التي بين جنبي الإنسان مرورا إلى الأب، إلى الأم، إلى أفراد الأسرة، إلى المجتمع، إلى الوطن، ثم الأمة برمتها و ذلك ببيان الممارسات المشحونة بالضغوطات و الآلام المتنوعة التي قد تدمر الإنسان تحوله إلى ركام ليس فيه معنى من معاني الحياة كما قد تصهره في بوتقة الاختبارات . المنكررة المؤلمة التي لا تزيده إلا صمودا و كفاحا و إصرارا على البقاء .

الرواية

أشرنا في الفصول السابقة أن الكتابة الاعترافية قوامها المادة الإنسانية الخصبية التي تتجه نحو دواخل الذات و التي تقوم بالدرجة الأولى على البوح و المكاشفة و استبطان الذات بصرف النظر عن الموضوعات الاجتماعية و الاكراهات السياسية و لتحقيق هذه المطالب يحتاج الكاتب إلى كثير من الصدق و الصراحة و الجرأة في مواجهة الغير بيد أن هذا ليس متاحا لكل مبدع، و درجة الخوض في هذه المسألة الحساسة نسبية و متفاوتة بين المبدعين و الكتاب فالإنسان عبر كتاباته - كما يصوره علماء النفس - يشبه كثيرا جبل الثلج لا يظهر منه إلا الجزء الذي يطفو على سطح الماء أما الجزء الأكبر فهو مغمور تحت الماء و من هذا المنطلق وجدنا أن بعض الأدباء يلجأ إلى لعبة التماهي و وضع الأقنعة للتعبير عن آرائهم و مواقفهم الفكرية

183 تهاني عبد الفتاح شاكر - السيرة الذاتية في الأدب العربي - ص 104

184 فدوى طوقان - رحلة جبلية . رحلة صعبة - ص 7

185 تهاني عبد الفتاح شاكر - السيرة الذاتية في الأدب العربي - ص 102

186 فدوى طوقان - رحلة جبلية . رحلة صعبة - ص 58/59

187 المصدر نفسه - ص 236

و الفلسفية والسياسية و ما إلى ذلك ، لعلنا هنا نتذكّر مقولة الكاتب و الروائي الفرنسي "أنوريه دو بلزاك" أنا سعيد بأنني كاتب رواية، ذلك يجعلني أعترف بأشياء على لسان أبطالها لا أجرؤ على الاعتراف بها"، إن الكتابة الاعترافية تحتاج إلى شجاعة البوح و القدرة على مواجهة الغير وفي غياب هذه العناصر الفاعلة يتم الهروب من المواجهة واللجوء إلى أقتعة روائية كما حصل مع طائفة من الكتاب و الروائيين مثل نجيب محفوظ و حنا منه في ثلاثيتهما و الكاتب الأردني مؤنس الرزاز " في السيرة الجونية " و الروائي العراقي غائب طعمة فرمان و توفيق الحكيم و إبراهيم المازني و غيرهم كثير «ففي رواية "المخاض" و رواية "خمسة أصوات" للروائي العراقي "غائب طعمة فرمان" ليس من الصعب أن نكتشف حقيقة سعيد أحمد بطل الرواية "خمسة أصوات" يحمل الكثير من ملامح كريم داود بطل رواية "المخاض" وأنهما في الواقع يشكلان إلى حد كبير شخصية واحدة تعيش ضمن مرحلتين متباينتين وأن هذه الشخصية تستمد معظم ملامحها و تجاربها و همومها من شخصية الروائي نفسه»¹⁸⁸ و أيضا كتاب " عودة الروح " لتوفيق الحكيم حيث يعثر القارئ للرواية «على مفاتيح عن طريقها يتأكد من أن بطل عود الروح هو توفيق الحكيم نفسه ، و عن طريقها أيضا ننتب من الوقائع الهامة في الرواية و تطابقها الكامل الذي يشبه إلى حد كبير تطابق المثلثات مع حياة توفيق الحكيم»¹⁸⁹ و كذلك ثلاثية نجيب محفوظ حيث ارتأى الكثير من النقاد و الدارسين أن شخصية كمال عبد الجواد هي نفسها شخصية الكاتب و الروائي نجيب محفوظ ، بل إن نجيب محفوظ نفسه يعترف للدكتور غالي شكري في كتابه المنتمي بقوله: «أنا كمال عبد الجواد في الثلاثية... كما يعكس أزمي الفكرية و كانت أزمة جيل فيما اعتقد»¹⁹⁰ و على كل فإن الأمثلة و النماذج التي يمكن الاستشهاد بها في هذا الباب كثيرة و دواعي التخفي و راء الأفتعة الروائية متعدّدة و متنشعبة و لكل مبدع أسبابه و قناعاته الخاصة التي قد تتعلق بأسباب إبداعية و فنيّة محضّة و قد ترتبط بوجود الآخر و بالمساس بمجاله الفردي الخاص الذي يمثل الخوض فيه مساسا بحرية الآخر، فالكتابة عن الذات ممارسة إبداعية من نوع متيّز بحيث «تصبح الذات محورا لصور الكون و أشيائه فالإنسان من خلال النظر في ذاته يمتحن علاقته بهذه الأشياء و من خلال هذا الحوار تتولّد الحقيقة»¹⁹¹. يبدو أن الذي يدفع إلى تسجيل كلمة "رواية" على غلاف العمل الإبداعي سواء كان نصا إعرافيا أو سيرة ذاتية أو شيئا آخر هو الرغبة في توجيه المتلقي ذهنيا إلى أن العمل الذي بين يديه لا يمثل واقعا معينا له وجود تاريخي مادي محض و لكنه ، عمل فني أفرزته مخيلة المبدع ، فمجرد لفظ "رواية" على الغلاف ستحيل القارئ معاني الخيال و ما يفرزه من تداعيات في ذهنية المتلقي و نفسيته هذا من ناحية و من ناحية أخرى فإن هذا المنحى سيكفل للمبدع وضعية و أجواء كتابية أريح، بعيدا عن أية ضغوطات نفسية أو إكراهات سياسية و اجتماعية

و لمزيد من البيان في هذه المسألة سنقف عند مؤلف للكاتب الجزائري مرزاق بقطاش الموسوم بـ"دم الغزال" . الكتاب يقع في مائة و ستين صفحة من الحجم الصغير يظهر على الغلاف اسم المؤلف ثم بشكل بارز عنوان الكتاب "دم الغزال" و تحت العنوان عنوان آخر صغير يحمل كلمة "رواية" إذا يقفز إلى ذهن المتلقي بعد هذه العتبات النصية أنه يصدد التعامل قرانيا مع عمل فني روائي ، أي أن الكاتب أمضى عقدا أو ميثاقا مع المتلقي هو العقد الروائي على حدّ تعبير الناقد الفرنسي "فيليب لوجون" و ليس شيئا غيره لكن الولوج في المتن سيجعلنا نكتشف شيئا آخر و هو أن هذا الميثاق ميثاق وهمي و زائف بدليل المتن نفسه و دليل القرائن المتعددة بين صفحاته و سطور

إن أول ما يكشف عن حقيقة المتن هو التّطابق بين المؤلف و السارد و الشخصية المحورية ثم إن الضمير الذي تسرد به الأحداث و الوقائع هو ضمير المتكلم ، يضاف إلى هذا طبيعة المادة الاعترافية الخصبية و التي تغوص في بواطن التجربة الذاتية ذات المستويات المتعددة ، النفسية و الاجتماعية و السياسية و هكذا نجد أنفسنا إذا جاز الوصف أمام عقدين من عقود القراءة مع المتلقي، عقد خارجي يحيلنا إلى العوالم الروائية و ما يكتنفها من خيالات متدفقة و ميثاقا آخر موازيا يحيلنا إلى صميم الكتابة الاعترافية غير المعلنة في العتبات النصية . ينطلق الكاتب في تجربته من حادثتين مركزيين يتمحور حولهما كامل المتن الحدث الأول هو اغتيال الرئيس الجزائري الرّاحل محمد بوضياف و الحادث الثاني هو محاولة الاغتيال التي تعرض لها الكاتب و نجا منها بأعجوبة حيث أشرف على الموت لكنّ العناية الإلهية أدركته ليحيا و ينجز المشروع الذي كان يدور بخلفه قبل الاغتيال

الكاتب كان يصدد انجاز مشروع روائي يتحدث فيه عن ظاهرة الموت، أراد أن يتتبع أطوارها و يشرح مختلف مظاهرها كل ذلك انطلاقا من مطالعاته العلمية و الفكرية و الفلسفية و في هذا المضمار يقول «عقدت العزم على كتابة رواية في هذا الشأن (الموت) ليس من مهمتي أن أقوم ببحث علمي رصين يعتمد على التدقيق و المراجعة و الملاحظة و الحكم على الملاحظات و استخلاص النتائج ، الكتابة الروائية تقسح دوني المجال ... في وسعي أن أكتب ما أشاء»¹⁹² لقد أوحى ملبسات الحياة في المجتمع الجزائري إبان العشرية السوداء الكتابة في هذا الموضوع فشح الموت و الإرهاب يحيط النفوس من كل مكان و دوي الانفجارات يقذف بالبحث في الشوارع و السواق ، فكرة الرواية من إملاءات الواقع المأساوي ، لكن يحدث أن تتزامن الفكرة التي يحملها الكاتب في وجدانه و شعوره مع واقعتين بارزتين ، اغتيال الرئيس

188 فاضل ثامر - المقموع و المسكوت عنه في السرد العربي - دار المدى - دمشق - الطبعة الأولى 2004 - ص 165

189 ماهر حسن فهيمي - السيرة تاريخ و فنّ - ص 304

190 غالي شكري - المنتمي - دراسة في أدب نجيب محفوظ - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثالثة 1982 - ص 8

191 أحمد بنطامة - فنّ السيرة الذاتية - علامات و اسس - ص 3

192 مرزاق بقطاش - دم الغزال - ص 44/45

الراحل محمد بوضياف و تعرض الكاتب هو الآخر لمحاولة اغتيال، فقد مَرَّق الرصاص جزء من جسده غير أنّ يد العناية الالهية منحته مزيدا من الأيام، إذ أثمرت أسباب قوية تدفع نحو الكتابة، في خضمّ هذه الظروف انطلق الكاتب في تسجيل تجربة فريدة و متميزة حيث كان الموت مدخلا لإثارة الكثير من القضايا المتعلقة بالواقع السياسي و واقع الطبقة المثقفة فيه، هذا إضافة إلى تداعيات هذه القضايا على موضوعات أخرى لها صلة بتاريخ الثورة الجزائرية و بعض رموزها . يقدم الكاتب في متنه مشهدا للوطن الجريح الذي يئن تحت وطأة الارهاب و العنف من خلال مشاهد واقعية يلتقطها الكاتب عبر آليات الإدراك و عبر الحس الجمالي اليقظ للمبدع . يبدأ بمشهد التأبين و الدفن للرئيس المغدور الراحل محمد بوضياف في المربع الرخامي بمقبرة العالية ، حضور الطبقة السياسية للدفن منح الكاتب فرصة لمشاهدتهم عن كثب و مراقبة حركاتهم و سكناتهم لينطلق في حفریات تاريخية تتعلق بهؤلاء الشخوص و ممارساتهم «جاؤوا ليدفنوا شخصية عظيمة في هذا المكان لقد اصطالحوا منذ زمن على أنه مربع للشهداء لا يحق أن يثوي فيه إلا العظماء بعدما اتفقوا سرا على أنهم عظماء»¹⁹³ هكذا يتشكل مناخ التعرية المادية و المعنوية للطبقة السياسية التي تركز ثقافة الوهم حيث تعنق أن دخول التاريخ يتم عبر وضع بعض الجثث المهترئة إلى جانب العظماء حقيقة، لذلك يحاول الكاتب إيجاد تفسير للعلاقة التي تربط بومدين و الأمير عبد القادر مثلا مع رموز النظام الذين كانت لهم يد ضليعة في الفساد و الجريمة السياسية و الكاتب لا يتهم شخصا ما بعينه و لكنّه يضعهم في خانة واحدة و لعل السبب في ذلك هو المشهد المروع الذي أفضى بالراحل بوضياف إلى مربع الشهداء حيث جاؤوا به ليمنطوه تحقيقا لمأرب شخصية في مرحلة تاريخية صعبة لكنهم غدروا به، حين اتضح لهم أنه من غير طينتهم . الكاتب يدين الطبقة السياسية و يرى فيها جهازا رهيبا لصناعة الموت و الخوف ، يقرأ هذا حتى في اللون الأزرق لرجال الأمن «كيف خطر للمسئولين أن يلبسوه مثل هذا اللباس الأزرق البترولي ؟ لا شك أنّ هناك عقولا شيطانية درست لغة الخوف و الرعب زمنا طويلا لتخرج بمثل هذه الأشكال و الألبسة»¹⁹⁴ واضح جدا أن الكاتب بصدد إدانة الطبقة السياسية و تحميلها مسؤولية الجريمة التي طالت الرجل المسن الذي أحب وطنه و دافع من أجله حتى آخر رمق من حياته و لذلك يستطرد الكاتب للذهاب بعيدا حيث يرى أنّ ما حدث ليس جريمة في حق رجل فقط و إنما جريمة حضارية و أنّ السياسة فيما أثمرته من نتائج عبر المدى الطويل في تاريخ المجتمع الجزائري خرجت عن إطارها الطبيعي المتعارف عليه بين البشر فلم تعد بالنسبة للكاتب فنّ الممكن في إدارة الأمور بل صارت شيئا آخر على الإطلاق لذلك تستحق أقسى الإدانة « السياسة هي فن الممكن حسبما قيل، و السياسة حسبما أقوله أنا ، هي فن القتل على الرغم من أنّها ، هي في جوهرها فنّ البناء ، ما الفرق بين الرئيس الذي يذبح شعبا في ثوان معدودات و رجل المافيا ؟ ليس هناك فرق و إن خدعنا أنفسنا بمصطلحات سياسية الرئيس القاتل قاتل...»¹⁹⁵ ثمّ ينتقل الكاتب إلى إدانة الطبقة المثقفة معتبرا نفسه واحدا منها بسبب سذاجتها و عجزها الذي ربما بلغ حدا من الخبل «أنا مرزاق بقطاش من ضمن المشيعين، الظروف السياسية شاعت أن أكون منهم مع أنّي لست بالسياسي و لا أرى الخير فيهم أبدا...مرزاق بقطاش بن رابح البحار الذي عمل في البحر سبعا و أربعين سنة و مات ذات ليلة صقيعية.. مرزاق بقطاش هذا الواقف الآن مع المشيعين من كبار السياسة في هذا البلد»¹⁹⁶ نبرة تهكمية إزاء المفارقات العجيبة للحياة فهو ابن بحار بمعنى أنّه من الطبقة الكادحة النابغة من أعماق الجزائر و لا تكاد تربطه صلة بالسياسة و السياسين فهو دخيل على عالمهم لذلك نراه يتصل منهم و ينعته في مقاطع أخرى بأفح النعوت لكن هذا لا يلغي شيئا مهما في حياته، خاصة من منظر كونه مثقفا شكل سندا للنظام في يوما ما و لو بحسن نية ، فهذا الأمر قد يُقبل من إنسان ما عادي لكنه من الناحية المعيارية لا يقبل من مثقف له كلمته المسؤولة و شرف القلم الذي يترجم عن آرائه و منجزاته الفكرية .

و من مشهد الإدانة للطبقة السياسية و الطبقة المثقفة ينتقل الكاتب إلى كشف ممارسات المؤسسة العسكرية و ما انطوت عليه من أخطاء فادحة قادت البلد إلى التردّي و التخلف و فوات الفرصة لمواكبة الركب الحضاري للأمة «مرزاق بقطاش قال مرّة ألا فيلغير الله لأولئك الضباط الذين وقع اختيارهم على الشاذلي بعد وفاة الرئيس بومدين و كان في مقدورهم أن يختاروا عسكريا مستنيرا... إنّ العسكر هم آفة البلد في المقام الأوّل كلما تعدوا الحدود المرسومة لهم»¹⁹⁷ النص الاعترافي الذي أنجزه الكاتب مرزاق بقطاش هو مراثية للوطن و للراحل بوضياف باعتباره أيضا رمزا من رموز هذا الوطن كما أنّها مراثية للذات « يا مرزاق بقطاش الرصاصة التي ارتحلت في دماغك هي الحقيقة الساطعة... و بكى بعضي على بعضي معي»¹⁹⁸ النص يكشف عن نفسه بلا وسائط ، المأساة قد بلغت ذروتها ، سواء على المستوى الذاتي أو على مستوى الاجتماعي فالمشاهد التي يرصدها الكاتب ليست من عالم الخيال و هي أبعد ما تكون عنه ثمّ إن الكاتب يصرّح باسمه علنا عبر الكثير من فقرات النص و بضمير المتكلم "أنا" مقرونا هذا الاسم بلفظ أعترف . هذا ما يدفعنا للتأكيد على أنّ النص بمادته الواقعية و بمستواه العالي من البوح و الصراحة و الجرأة ما يدفعنا إلى إعادة النظر في مسألة تجنيس الكتاب ضمن

193 مرزاق بقطاش - دمّ الغزال - ص 8

194 مرزاق بقطاش - دمّ الغزال - ص 12

195 المصدر نفسه - ص 38

196 مرزاق بقطاش - دمّ الغزال - ص 14

197 المصدر نفسه - ص 107

198 مرزاق بقطاش - دمّ الغزال - ص 152

العمل الروائي الذي ربما و في كثير من الأحيان تطغى عليه مستويات التخيل على حجم الواقع والحقيقة . و لعلّه من المفيد في هذا السياق أن ننقل رأي الكاتبة نفسها حول حدود الواقع و المتخيل في العمل الروائي .

لقد سألت أحد المحاورين الكاتبة مرزاق بقطاش قائلاً: - دم الغزال " خويا دحمان " "عزوز الكابران " "البزاة" وروايات أخرى في أيّ منها تتجسّد شخصية "بقطاش" الحقيقية ؟ - ليس بالضرورة أن أجسد نفسي في رواياتي ولكن أعتزف أن هناك علاقة حميمة بيني وبين الأشخاص الذين صورتهم في كل ما كتبت إلى حد الآن بدءاً من مراد بطل رواية "طيور في الظهيرة" ومروراً بعزوز الكابران، وأبطال رواياتي: خويا دحمان ودم الغزال ويحدث ما لا يحدث. مثل هذه العلاقة هي التي تلبّل الناقد الأدبي في الأدب العالمي كلّه. قيل عن بوريس باسترناك: أنت دكتور جيفاجو وقيل لي ذات يوم في جامعة تيزي وزو: فلان الفلاني هو الجنرال الفلاني أو الفلتاني، وقيل عن نجيب محفوظ: أنت أقرب إلى عبد الجواد بطل ثلاثينك، وقيل عن إرنست همنغواي: أنت هو آدمز " بطل قصصك القصيرة ورواياتك وهكذا دواليك. وما زال البحث قائماً في هذا الشأن في الأدب العالمي كله¹⁹⁹. و خلاصة القول أنّ هذا الجدل ليس قائماً في الأدب العربي فقط بل هو بحث أدبي مستمر في الأدب العالمية بشهادة مرزاق بقطاش نفسه الذي هو وجه بارز من وجوه الإبداع و النقد الجزائري والذي خصّصنا له حيزاً في هذا البحث الذي له صلة قوية بالعمل الأدبي الرائع الذي أنجزه.

قبل أن نسط الحديث عن موقف المنظومة الاجتماعية من الكتابة الاعترافية و ردود أفعالها المتباينة تواجهنا مجموعة من الإشكالات التي تطرح نفسها تبعا للسياق الذي نحن بصددده و التي يمكن تحديدها على النحو التالي: ما القيمة الفنية لعمل أبداعى يتعرض بالتشريح و التفصيل لمحطات الزل و الرذيلة التي سقط فيها كاتب من الكتاب ؟ ماذا يتبقى من معاني الأبوة و الأمومة و الأخوة إذا تحوّلت الكتابات الذاتية إلى نوع من المحاكمة للعلاقة الأسرية ؟ قد يكون الأمر عادياً و طبيعياً في حق الأنظمة السياسية ، لكن هل يمكن أن تنطبق نفس الأحكام على معاني الأمومة و الأخوة خاصة بالعودة إلى مرجعياتنا الأخلاقية و الدينية ؟ هل الحديث عن الجنس بفظاظه و صلافة و استعمال اللّغة النابية التي يرفضها الذوق له صلة بالإبداع و ما هي الأشياء التي يمكن أن يضيفها للتراث الاجتماعى و الإنسانى ؟

تحتل الذات ببواطنها الداخلية اهتماماً مركزياً لدى كتاب الأدب الاعترافى فهم يتناولون حياتهم و تجاربهم الشخصية بشيء من التفصيل و استبطان الذات، لكن هذا لا يعنى عدم وجود مساحات للآخر في متونهم، فالكاتب لا يعيش بمعزل عن الآخرين بل هو يحتك بهم يومياً يتفاعل معهم فيؤثر فيهم و يتأثر بهم، فطبيعة النص الاعترافى تبسط تجارب الكاتب الحياتية و من يشاركونه مسرح الحياة، فهناك الأب و الأم و الإخوة و الأسرة و المدرسة و الحاكم و غير هؤلاء . و الحديث عنهم في كتب تُقرأ و تنشر بين الناس يشكل اعتداء على حياتهم الخاصة و لذلك وجدنا أن الكتابات الاعترافية لا تمرّ دائماً بسلام إلى المتلقي بل كثيراً ما تثير الرّجات الاجتماعية و في هذا المبحث سنقف عند بعض النماذج التي يتجسّد من خلالها موقف المنظومة الاجتماعية و الأخلاقية مع بيان الخلفيات التي دفعت بالآخر للتصدي للمنتج الاعترافى، و من الكتابات التي يمكن إدراجها في هذا السياق تجربة الكاتب لويس عوض الموسومة بـ "أوراق العمر" حيث ضمن فيها اعترافات صور فيها المناخ الأسرى الذي نشأ فيه فتحدث عن إخوته و أخواته و والده و والدته و قد أحدثت هذه الاعترافات ضجة أيام صدورها حيث تدخل شقيقه الأكبر لمنع نشرها على أساس أنها لا تعكس الحقائق كما حدثت بالفعل، كما أنها أساءت إلى الكثير من أفراد المحيط الأسرى يقول لويس عوض « يبدو أن السبب الحقيقي لقبول أمي و أبي زواج أختي من يقال هو أنها كانت قد تجاوزت الحادية و العشرين و هذه سن حرجة بالنسبة لزواج البنات في تلك الأيام... قد كانت أختي متوسطة الجمال متوسطة الذكاء ضعيفة التّعليم لا تستطيع أن تزاول عملاً و ليس في مال أبيها ما يجذب الطامعين ... و يبدو أن الذعر من

التعس هو الذي دفع أختي مبترفا فيما بعد أن تستعجل زواج ابنتها من ابن خالتنا وهو يومئذ لا يزال تلميذا في السادسة عشرة من عمره»²⁰⁰ لقد انتقل الكاتب من الحديث عن الذات التي هي محور الكتابة الاعترافية إلى الأخت وبذلك يكون قد اخترق مجموعة من القيم التي تتعلق بالأسرة و بالمجتمع ككل على الرغم من أن ينتمي دينيا إلى المسيحية ثم يضيف في معرض حديثه عن أخته الثانية مادلين قائلا: «بعد زواجها بسنة زارتني ما دلين وحدها وقالت لي أنها تريد أن تترد إلى المسيحية لأنها عجزت تماما عن الصلاة على الطريقة الإسلامية... ففهرتها بشدة قائلا - إياك والردة... أنت سببت أما شديدا و حرجا شديدا لأبيك و أمك و إخوتك باعتناقك الإسلام و جلبت لهم الإحساس بالعار... و إذا ارتدنت عن الإسلام فسوف تسببين نفس الألم والحرج و الإحساس بالعار لزوجك و ربما حطمت مستقبله»²⁰¹ لاشك أن الكاتب أراد أن يقدم نقدا اجتماعيا مؤسسا لظاهرة الزواج المبكر الذي يفتقر إلى عنصر النضج و التكافؤ العمري و النفسي و الاعتقادي بين الزوجين كما أدان التردد الذي يعيشه طائفة من الناس بحيث يتبنون معتقدا دون قناعات عقلية و روحية ثم يتخلون عنه بسرعة دون الالتفات إلى ما يمكن أن ينشأ عنه من تداعيات تدميرية للأخريين، يبدو أن المسألة مقبولة إلى حد ما، لكن البوح و المكاشفة للنفس و للغير هو نوع من هجر المؤلف وبالتالي أمر طبيعي أن تصطم هذه الكتابة بنفسية الآخر و وجدانه سواء كان من الأسرة أو خارجها باعتبار أن الكل ينتمي إلى نفس المنظومة الاجتماعية التي لها تقاليد و أعرافها و سلطتها المعنوية ثار الناقد رمسيس عوض، وخاض حملة إعلامية مضادة، بررها بقوله: «اعترضت على "أوراق العمر"، وكانت لي أسبابي، فهو لم ينحر الحقيقة في بعض الأحيان، كما أنني لا أحب أن يمجد الإنسان نفسه، إضافة إلى سبب قانوني فليس من حقه قانونا أن يشهر بغيره، لكن له أن يفعل بنفسه ما يريد. وقد أساء لويس عوض إلى الكثيرين... أنا شخصا لا أريد لهذا الكتاب أن يكون منشورا، لأن الصواب جانبه في أحيان كثيرة، ورغم ذلك يتعامل البعض معه على أنه»²⁰² مرجعية، وأن الآراء الواردة فيه نهائية

بعدها بسنوات، أصدرت مؤسسة "الأهرام" كتابا تضمن مجموعة من الحوارات لنجيب محفوظ مع الناقد رجاء النقاش. في هذا الكتاب استعرض نجيب محفوظ شريط حياته الحافل بالإيجابيات و السلبيات ذكر فيما ذكر علاقته بالمرأة قبل الزواج حيث كانت خالية من أي معنى من معاني الحب و العواطف السامية للمرأة، إذ كانت تمثل رمزا لمطالب شهوانية لا غير، كما ذكر علاقات غير شرعية مع النساء بحيث صار على عتبات زيارة طبيب الأمراض التناسلية يضاف إلى هذا إدمانه على الحشيش و القمار و أشياء أخرى من هذا القبيل تدخل في مضمار محطات الوحل و مستنقع الرذيلة التي عاشها نجيب محفوظ في مرحلة ما من حياته، بالإضافة إلى أنه ضمّ اعترافات و آراء عدد من المحيطين به، ولم تكد تمر أيام على صدور الكتاب، حتى سارع ابن شقيقته، محمود الكردي، لرفع دعوى قضائية، مطالبا بمنع توزيع الكتاب، بعد أن رأى أنه يسبب لكثيرين، ومن بينهم محفوظ نفسه. بما يقال عن هذه المؤلفات يقال أيضا عن كتاب محمد شكري " الخبز الحافي " فقد تدخل عدد كبير من أهالي الطلبة لمنع تدريس هذا الكتاب في الجامعة الأمريكية على أساس أنه يتضمن أحداثا و صورا تتنافى مع الذوق و مع أخلاقيات المجتمع العربي

الكاتبة المغربية رشيدة البيقوبي في مؤلفها " الطوفان " تتطرق من معاناة الذات تبين كيف انتقلت من طبقة اجتماعية ميسورة الحالة إلى امرأة مشردة تبحث رفقة أطفالها عن لقمة خبز، تتحدث عن نفسها و في نفس الوقت تتحدث عن مثيلاتها ممن يرزحن تحت وطأة الجوع و التهميش، تقدم مشاهد الحرمان و المعاناة و إدانة للعلاقات الزوجية السيئة من خلال «صراعها المرير مع الرجل الذي دمر حياتها و نغص عيشها بتطليقها ولفظها في الشارع كما لو كانت قطعة غيار غير»²⁰³ «صالحة للإستعمال

و ختاماً لهذه الشهادات نذكر أيضا مؤلف سهيل إدريس " ذكريات الأدب و الحب " فقد قدم في اعترافاته صورة قاتمة عن بعض الجوانب الأخلاقية من سيرة أبيه يدين من خلالها الشخصية المزدوجة، فأبوه يعيش حياتين حياة تدين و فضيلة في العوالم الخارجية بيد أن عوالمه الداخلية على نقيض ذلك تماما و هذا الذي يحز في نفسية الابن « الحقيقة أنني لم أكن أحب أبي، إذ كنت أشعر أنه يعيش جواً من التفاق، بدأت أحس أن أبي يحيا حياتين...»²⁰⁴ حياة مع أسرته بالتدين و الفضيلة و حياة في السر بعيدا عن الأنظار تملأها الرذيلة و الفجور و كل ما يناقض الأعراف و الأخلاق و الدين

إذا الموقف العنيف ضد بعض الكتابات الاعترافية له ما يبرره اجتماعيا فهو تدمير للفضاء الأسري المغلق و لقداسته و هو انتهاك لحقل الحرية الممارسة و للمجال الفردي الحميمي الذي يبوح به المرء لمن أراد في حالة الثقة و المودة لكن دون اقتحام من شخص آخر عبر كتابات يطلع عليها الخاص و العام، دون حدود مرسومة قد انفق عليها العقلاء عبر التاريخ . القيمي و الأخلاقي لبني البشر

و قد وجهت انتقادات لاذعة لسهيل إدريس فيما كتب لكن هو الآخر كانت له حجته فقد سأله أحد محاوريه في لقاء قائلا: لاحظ بعضهم أنك قدمت صورة قاسية للوالد، هل كنت أقرب إلى الواقع أم إنك كنت أقرب إلى أسطورة صورة الأب في

200

لويس عوض -أوراق العمر ..سنوات التكوين - مكتبة مدبولي . (دت) - ص 90

201 لويس عوض -أوراق العمر ..سنوات التكوين - مكتبة مدبولي . (دت) - ص 95

202 إيهاب الحضري - <http://www.elksad.com>

203 محمد الداوي - الحقيقة الملتبسة - قراءة في أشكال الكتابة عن الذات - شركة النشر و التوزيع - الدار البيضاء - ص 94

204 سهيل إدريس ذكريات الأدب و الحب - دار الآداب بيروت - الطبعة الأولى 2002 - 12

ما كتبتة عنه ؟ فيجيب سهيل إدريس بحجة الحرص على الصدق، «في الحقيقة، كنت حريصاً وأنا أنتقد المجتمع العربي، ومنه المجتمع اللبناني، أن أكون صادقاً وصريحاً، وأن أعري حتى الوجوه المألوفة لدي. وكنت أعتقد أن الوالد يعيش عيشة نفاق، ولذلك لم أجد مانعاً من أن أفصح هذا الوجه المناق. ولست نادماً على ذلك، مع أنه أثار ثائرة عائلتي عليّ معتبرة أنني قصدت فضح واقع تعود الناس أن لا يتكلموا فيه، بحجة أذكروا محاسن موتاكم...»²⁰⁵ يبدو أنّ ما كتبه سهيل إدريس عن والده لم يكن عن ثورة غضبية شبابية و لكنّه حديث صادر عن قناعات تشكلت عبر المنجز الحياتي الذي كان فيه الكاتب يتمتع بالنضج الفكري والأدبي والعلمي والعُمري.

و في نفس السياق لا يمكن نتغافل عن موقف المنظومة السياسية إزاء الكتابات الاعترافية فالكتاب على اختلاف توجهاتهم و مشاربهم الثقافية هم منتجو أفكار وادبيولوجيات و أصحاب سلطة معنوية لها أثرها الفعّال في وجدان الأفراد و مسار الجماعات و الأمم لذلك تتسارع الحكومات والأجهزة الأمنية بأشرف المؤسسات السياسية على منع بعض الكتب لأنّها لها تأثير ما على زلزلة العروش و خاصة التي يتربع عليها المستبدون، قد تتحوّل بعض الكتابات الاعترافية إلى دليل إدانة بين يدي القاضي ضد كاتبها كما حدث للشيخ الإمام الندوي في مذكراته . و لكنّها أيضاً ممارسة لنوع من التّحدي ضد المنظومة السياسية فالكاتب يعي جيداً دور القلم في معركة الوجود تقول نوال السعداوي «تعلمت هذا من تجربة الاعتقال»²⁰⁶ حين صاح المسؤول البوليسي في السّجن قائلاً: لو وجدت عندك طبنجة أهون عندي من الورقة و القلم المؤسسة الدينية مؤسسة مرجعية لها أصلتها و عراقتها و حضورها القوي في مختلف مناحي الحياة الشخصية و الاجتماعية و لها أيضاً موقفها من مختلف صنوف الكتابة الإبداعية فقد تحدث القرآن عن الشعراء و بين النبي صلى الله عليه و سلم أنّ من الشعر لحكمة و أنّ من البيان لسحرا و في عصرنا الراهن يطرح أيضاً موقف المنظومة الدينية من الكتابة الاعترافية .

لقد أكد الدكتور ناصر فريد واصل مفتي الديار المصرية الأسبق أنه «لا يجوز للمرأة أن تؤلّف كتاباً تعترف فيه بما أمر الله بسره و هو ما يطلق عليه بأدب الاعترافات فالشريعة الإسلامية لا تقرّ بذلك و ليس هذا من باب الحجر على التفكير و الرأي و إنّما الأمر يتعلق بالحفاظ على كيان الأسرة و العلاقة الزوجية التي أحاطها الإسلام بكل التقدير و الاحترام و »²⁰⁷ «المحافظة على أسرارها و خصوصياتها

هناك إذاً موقف يرفض الكتابة الاعترافية من منطلقات قيمية و أخلاقية لها مبرراتها فهم يرون فيها بما تحتمله من عناصر المكاشفة و الصراحة و الجرأة على القيم و الأعراف الاجتماعية و الدينية خطراً يؤول إلى حالة من التحرر اللامسؤول الذي يقضي إلى حالات من الانفلات، لا تحمد عقباها ذلك أننا في زمن العولمة و الفضائيات و الانترنت أصبحت القيم تعاني فيه من الضعف و الانهيار الذي يقضي على خصوصيات المجتمع و يهدد قيمه و مرجعيته بل وجوده الثقافي و الحضاري .

لكن هل يمكن تعميم الحكم و الفتوى على جميع الكتابات مهما كانت دواعيها و منطلقاتها ؟ يبدو أن المسألة نسبية تبعاً للمادة الاعترافية و تبعاً لطبيعة البواعث التي تحرّك الكاتب نحو المكاشفة و الصراحة. إنّ الاعتراف في الكتابات العربية الإسلامية سلوك تربوي مثالي و ممارسة فنية راقية و مدخل أساسي للتوبة النصوح و هي لا تحمّل الإدانة التي تتطاير منها رائحة التّشفي و الانتقام من الغير بقدر ما تنطوي على أساليب المناصحة للغير بدافع الحبّ و الشفقة و التحفيز، كي يرتقي الإنسان إلى مدارج الكمالات البشرية دون تشهير بالأبرياء أو فضح النفس بالتركيز على محطات الوحل و الشهوات، فالكاتب العربي باطماً و هو يتعرض في تجربته الاعترافية " الرحيل " كان يكتب بدافع الاعتراف بالخطأ لله و طلب المغفرة منه كما يتكرر ذلك في المتن ثمّ بين على سبيل المناصحة كيف يستدرج الإنسان في بعض الظروف إلى أخطاء ثمّ يتعود عليها و لا يشعر بحجمها إلا بعد مدهامة المرض المميت، يلاحظ القارئ «أنّ مرض السرطان يشتد و يشد و لكن باطماً بإيمانه و ارتباطه بالله و استشعاره الثقافي و الفني و بعدما يتخلّى عنه الأصدقاء و الخلان سيتوجه إلى الله في منجاة عميقة، و دعاء حار و محاسبة ذاتية صارمة اعترافاً بلحظات الضعف و الهبوط في النفس و ابتغاء لمغفرة و رحمة على جسر توبة صادقة»²⁰⁸ و ما يقال عن هذه الكتابات يقال على الكتابات السياسية التي عرّت أساليب البطش و الاضطهاد التي مارسها الأنظمة الاستبدادية ضد مواطنيها الشرفاء كما تبين لنا من الفصل الأول في معرض الحديث عن الفضاءات التي تتناولتها التجارب الاعترافية.

أمّا الكتابات المرفوضة فهي التي تجنح نحو النزعة الفضائحية التي تمارس أسلوب المكاشفة و لكن بالتركيز على المباديل الجنسية و الوقوف عند محطات الزيف و انحدار الضمير بلغة نابية بذينة يرفضها الأدب الرفيع و الذوق السليم على نحو ما ورد في كتاب "تربية عبد القادر الجنابي" للكاتب العراقي عبد القادر الجنابي و أيضاً " الخبز الحافي " لمحمد

205 حوار مع سهيل إدريس - حاوره عبد العزيز جدير - المغرب . <http://www.moheet.com>

206 نوال السعداوي - مذكرات من سجن النساء - ص 13

207 مقال من موقع مجلة نزوى www.nizwa.com

208 محمد همام - أعمال الملتقى الدولي الثالث للأدب الإسلامي - ص 447

شكري حيث لا يتمكن المرء أن يقرأ بعض المقاطع منها بينه و بين نفسه، فكيف يمكن أن تكون ضمن مقرر دراسي للطلبة في الجامعة؟ أعتقد أن بعض المتون التي على هذه الشاكلة ما كان لها أن تروج بين الناس لولا هذه النزعة الفضائحية التي يشجعها الغرب بل دليل أن الكتاب كان نكرة و لم يعرف الشهرة إلا بعد الترجمة الانجليزية و الفرنسية قبل أن يشق طريقه نحو قراء العربية .

لاشك أن البشر يشتركون في كثير من النوازع و العواطف و مناحي التفكير، و وجودهم في هذا الكون يفرض نوعا من التفاعل و الاحتكاك المتبادل، و الخطّ البياني لمسار الحضارة الإنسانية يؤكد وجود مساحات مشتركة بين الشعوب كما يؤكد أيضا وجود نقاط اختلاف و خصوصيات تتعلق بشعوب معينة دون أخرى ، و من الطبيعي أن هذه الخصوصيات لا ترتبط بمجال حياتي واحد بل قد تمس الاقتصاد و السياسة و الدين كما قد تمس أيضا عالم الفنّ و الإبداع و من هذا المنطلق و نحن بصدد الحديث عن الكتابة الاعترافية بين المنظور العربي و المنظور الغربي نرى أن ثمة فرقا بين المنظورين ، هذا الفرق هو في جوهره فرق بين الحضارتين و الثقافتين، الحضارة و الثقافة العربية الإسلامية و الحضارة و الثقافة المسيحية، لكل منهما مناخها الاجتماعي و سلمها القيمي و مرجعياتها الثقافية و الاعتقادية

إن فكرة الاعتراف قبل تتجسد عبر فعل الكتابة هي مبدأ و تصوّر معين عن النفس و الحياة و علاقتهما بخالق الكون و عندما نعود إلى أشهر المصنفات الاعترافية الغربية و على سبيل المثال اعترافات " القديس أوغسطين " و من سار فيما بعد على دربه نرى أنها ترتبط ارتباطا كليا بمفهوم كنسي يستمد وجوده و عناصر مكوناته من الديانة المسيحية، ففي التصور المسيحي أن البشر مرتبطون بالخطيئة الأولى من لدن آدم و هذه الخطيئة تستدعي الرجوع و التوبة و لا يتم هذا إلا عبر الاعتراف و الإقرار بالذنب و هذا الإقرار يكون أمام الآخر بصوت مسموع، أي أن ثمة ضرورة وجود الوسيط الذي يسمع هذا الاعتراف ليتمّ الخلاص و التطهير من الذنب و عادة ما يتم هذا السلوك الطقوسي داخل الكنيسة عند رجل الدين المكلف بهذه المهمة ، و قد تطور هذا المفهوم عند الغرب فيما بعد ليخرج عبر كتابات لا تتوجه إلى رجل الدين فقط و إنما ليطلع عليها العام و الخاص و لكن على الرغم من هذا الفرق البسيط الذي أملتته ظروف حضارية عاشتها أوروبا إلا أن فكرة الغفران و الوسيط بين الله و الخلق تبقى راسخة في الثقافة المسيحية لأنها مرتبطة بعقيدة التثليث، و على النقيض تماما فإنّ هذه الفكرة لا وجود لها في المجتمع الإسلامي لأنّ التّصور و الاعتقاد مختلف تماما ففي العقيدة الإسلامية الإنسان مطالب بالتوبة و تصحيح مسار حياته و التوجه إلى الله وحده للتخلّص من الخطايا بالدعاء، لكن دون وسيط و قد نبه العلماء إلى السرّ الموجود في قوله تعالى: «وَ إِذَا سَأَلْتُكَ عِبَادِي فَأِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دُعَاةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي»²⁰⁹ فعدم وجود كلمة "قلّ" التي عادة ما تتبع سياق الآيات التي تحتوي على صيغة الاستفهام الموجه إلى النبي صلى الله عليه و سلم و التي يتولى القرآن الإجابة عنها مباشرة ممّا يدل على العلاقة الوطيدة بين الله و خلقه في كل لحظة بعيدا أيّ وساطة للمخلوقات ، و إذا وجدنا ما يشبه هذه الوساطة في المجتمع العربي الإسلامي فمصدرها غلاة الصوفية و شطحاتهم التي تسلّلت إليهم مفاهيم من الديانة المسيحية في ظروف تاريخية غامضة

يتحدث القديس أوغسطين في " اعترافات " عن مجموعة من القضايا منها الخطايا التي تردى بسبها في الهاوية و من هذه الخطايا ما يعلق بالجنس حتى بعد أن أصبح من الأساقفة «إنّ الصور الشهوانية القديمة لا تزال حية في ذاكرتي تندفع إلى

أفكاري فهي تساورني في نومي لا لتسرني فحسب بل قد يبلغ بي الأمر أن أَرْضَى عنها و أوافق عليها و أحب أن أخرجها²¹⁰» من التفكير إلى التنفيذ

ترتكز الكثير من الاعترافات سواء عند القديس أوغسطين أو "جون جاك روسو" حول الممارسات الجنسية غير المشروعة و لعل السرّ في ذلك هو هذا الفهم للغريزة عند المسيحيين فصورة الجنس صورة دنسة توحى بالاقتراب من عالم الوحل و الشرّ و الابتعاد عن الطهر و العالم الملائكي وهذه الفكرة أيضا لا وجود لها في التصور الإسلامي ذلك أن النموذج الذي تجسد فيه الطهر و النقاء و كمال العبودية لله هم الأنبياء و الرسل و قد تزوجوا و كان لهم ذرية و مارسوا حقهم الطبيعي في الحياة ربما نجد بعض الالتقاء بين اعترافات القديس أوغسطين و بين بعض الكتابات العربية الإسلامية في بعض المساحات المحدودة التي يتقاطع فيها البشر كما ذكرنا آنفاً، و من ذلك القاسم المشترك بين أوغسطين و أبي حامد الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" فكلاهما مرّ بأزمة روحية انتقل فيها من الشك إلى الإيمان «من الشك العقلي إلى الإيمان التسليمي» بكل عمق و صراحة وصدق. حينما ننقل إلى اعترافات الكاتب الفرنسي "جون جاك روسو" نرى أن النظرة إلى الكتابة الاعترافية في الغرب قد تطورت و لم تعد تتمركز حول حياة التدين و الطهر التي طبعت الاعترافات في العصور الوسطى بل بات ارتباطها وشيخا بالحياة الاجتماعية و مستجداتها فقد نحت، أكثر نحو الصراحة و الجرأة في الطرح مع مزية أخرى و هي البحث المستمر عن الحقيقة و الاعتماد على التأمل و التحليل للمعطيات الحياتية من خلال تعرية الواقع و تناقضاته انطلاقاً من الذات دائماً، لقد تحدث روسو عن سرقة و ابتغائه للملذات المدنسة التي كان يقترها ثم يشعر بمرارة الندم، و على الرغم من أنه كان من رواد و معالم التغيير العقلي و الفلسفي في أوروبا بيد أن كتاباته هو الآخر لم تخرج عن نطاق الثقافة المسيحية يقول في الأسطر الأولى من اعترافاته «إنني مقبل على مشروع لم يتقدمه شبيهه و لن يكون له مثيل إنني أريد أن أقدم إلى إخواني شخصاً في أصدق صور طبيعته هذا الشخص هو أنا... و إذا ما انتشرت آخر هتافات البعث فسأقف أمام الحاكم العادل و هذا الكتاب بين يدي هذا ما صنعت و ما فكرت و ما كنت، لقد مثلت نفسي على حقيقتها في حفارتها و استقامتها...»²¹¹ و ما يقال عن تجربة "روسو" يقال أيضا عن تجربة الكاتب الروسي تولستوي في اعترافاته فقد عاش الرجل في حالة من الغنى بما يملك من أراضي فلاحية ومع ذلك عاش شكاً و تيهاً روحياً مريراً يستعرض تجربته فيقول «كنت أستطيع أن أتنفس و أكل و أشرب و أنام لكنني عدمت الحياة الحقيقية... لم أجد رغبة واحدة أشعر بأن تحقيقها متفق مع العقل... عث باحثاً عن الله فلن تحيا بدون الله»²¹² هكذا يبدو واضحاً، جلياً أن الكتابة الاعترافية الغربية في نشأتها الأولى و مرتكزاتها قد انطلقت عبر التاريخ من مفهوم كنسي يرى في تعرية الذات و كشف أخطائها بصراحة و صدق سبيلاً للولوج في عالم الطهر و القرب من الله و من الحقيقة، غير أن هذا المفهوم تطور عبر الثورات العلمية و التطور المادي للحضارة الغربية بحيث اتخذ الاعتراف مفهوماً آخر يمكن أن نسمي علمنة الاعترافات بحيث لم تعد تهدف إلى التوجه إلى الكنيسة فقط بقدر ما كان الهدف منه التأمل في الذات و السعي إلى إعادة تشكيلها وفق صور جديدة تمكن من تحقيق الرضا و التوازن العقلي و الروحي وربما أحياناً انحرفت عن مجراها الطبيعي المرسوم منذ قرون لتكون الاعترافات مرّة أخرى استجابة لدوعي حضارية أخرى أفرزها التطور المادي للحضارة الغربية، لقد تمّ علمنة الاعترافات و بعدما كان هدفها روحياً صرفاً صارت مدخلاً للاستغراق في المزيد من الماديات حيث صارت الاعترافات ترتبط بمتطلبات السوق، الغرب قد تمكن من الحصول على كل المشتهيات المادية و وقع في أسر الزمن و صار البحث عن المخرج، بالبحث دائماً عن اللذة في الجديد مهما كان شكله، نلمس هذا في الموضوع على مستوى الملابس أو تسريحة الشعر أو الهندسة المعمارية و غيرها، اللهثة في البحث عن الغريب و العاري و النادر إرضاء لشهوة جديدة لم تعرفها العصور القديمة و إنّما هي إفراز طبيعي لواقع الحضارة المادية الفارغة من المضامين الروحية التي تبحث عنها في الموسيقى و في السينما و أحياناً أخرى في عالم الأدب في أشكاله المتميزة الخارجة عن المؤلف. أما الكتابات الاعترافية في الأدب العربي قديماً أو حديثاً فلها منطلقات و بواعث أخرى تختلف اختلافاً جذرياً عن التصور الغربي فمن خلال المتون التي عولجت في الفصل الأول رأينا أنّ أبا حيان التوحيدي كتب اعترافاته للتعبير عن محنة الفقر و التهميش و فقدان الأصدقاء رغم وجاهته و نباهته العلمية و أما عند الغزالي فقد كانت اعترافات فلسفية و روحية، تختلف أيضاً عن المفهوم الكنسي للإعترافات و في العصر الحديث وجدنا امتدادات لهذه التجارب فعلى المستوى الاجتماعي و جدنا إدانة للظلم الاجتماعي، تجلّى ذلك في الحديث عن الفقر و الجوع و الهجرة السرية إلى أوروبا كما رأينا فيها نقداً لاذعاً للمنظومة التربوية و الاجتماعية حيث يدرس الشاب و يتخرج من أرقى الجامعات ليجد نفسه بطالاً، و غيره من أشباه الأميين يقررون مصيره في البرلمان و المؤسسات الرسمية الأخرى، لاحظنا أيضاً أن الكتابات العربية اتجهت لتصوير محنة الاعتقال و السجون بسبب الرأي المخالف للأنظمة الاستبدادية في مناخ سياسي تغيب فيه حرية الرأي و حرية التعبير كما صورت الكتابات الاعترافية هموم العالم الطفولي بسبب الفقر و الجهل و انتشار الأمية حيث يظهر التمييز بين الذكر و الأنثى و قد جنح بعض الكتاب إلى الالتفات إلى هذه الظاهرة من خلال جمع شهادات أفراد الأسرة لنبين الممارسات الظالمة التي تظال الإنسان دون ذنب لأنه في مجتمع متخلف يفرق بين المولود الذكر و الأنثى، امتداداً لذهنية ولفكر جاهلي ترسخ في الضمير الجمعي العربي و لم تقضي عليه لا العقيدة الإسلامية بمبادئها السمحة الرفيعة و لا التطور الحضاري و الثقافي الذي عرفه المجتمع الإنساني

210 ماهر حسن فهمي - السيرة تاريخ و فنّ - ص 232

211 جان جاك روسو - اعترافات - دار الكاتب العربي - بيروت - الطبعة الأولى 1968 - ص 5

212 نصوص مختارة من تولستوي - ترجمة شكري عياد - ص 36

بفعل ارتفاع سقف الوعي و الحرية الفردية و الجماعية، لكن ثمة أيضا كتابات اعترافية عربية شبيهة بنظائرها الغربية بحيث لا تختلف عن الكتاب الغربيين كما هو الشأن عند محمد شكري "الخبز الحافي" و أيضا تجربة الكاتب العراقي عبد القادر الجنابي حيث نرى هذه الكتابات لا تكثرث للقيم و للالعادات و التقاليد الاجتماعية بل أحيانا نرى فيها ضربا من العبث و الصلافة التي هي أقرب إلى تصفية الحسابات مع الغير و الانتقام من بعض المؤسسات الدينية و العلمية و الاجتماعية و كأنها تتم عن سلسلة من العقد تراكمت عبر السنين لتنتج كتابات متمردة ناقمة على الذات و على الغير و هي أيضا كتابات كثيرا ما نتجه نحو النيل من المقدس و الخروج عن تعاليمه و لعل هذا السبيل الأيسر للحصول على الشهرة و السند المعنوي في الدول الغربية و ليس أدل على ذلك من كتاب "الخبز الحافي" حيث ما كان هذا الكتاب ليعرف الشهرة و الإقبال لولا السند الأشهاري الذي قامت به دور النشر الغربية لأن هذه الكتابات و إن كانت قد نبتت في أرض عربية لكنها أقرب ولاء للثقافة الغربية و هي في عمقها تسير في اتجاه معاكس لانتمائها الحضاري و الثقافي و تجسد بشكل أو بآخر صورة من صور الغزو الثقافي الذي نال من انتمائنا الحضاري و الثقافي في العصور الأخيرة .

الكتابة الاعترافية مشروع مصطلح أدبي يشقّ طريقه وسط عالم من مظاهر التلوينات الأجناسية المتعدّدة ، ولا يزال يبحث عن آليات تمكنه من صياغة أطر فنية تهيكّل معماره الفني الموزع بين عالم السيرة الذاتية و اليومية و المذكرات و الرواية، و تتيح له التموضع ضمن شبكة من المفاهيم التي تملك حقا تنظيريا خاصا لا يستعار من فنون أخرى، بيد أنّ هذا الأمر يحتاج إلى جهد إبداعي و سند نقدي و بحثي يمنحه أسباب الوجود و يهيئ له دواعي التأسيس كما حدث للرواية و المسرح و غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى التي هيأت لها الأقدار التربيع على عروش التلقي و اكتساح مساحات واسعة من اهتمامات القراء و الكتاب على حد سواء.

تمثل هذه الدراسة إشارة إلى ضرورة الإلتفاتة النقدية للكتابات الاعترافية التي تمظهرت عبر اليومية و المذكرات و السير الذاتية و غيرها لأنها تتوفر على معاني و مضامين إنسانية عالية و خصبة إضافة إلى ما تتمتع به من أداء فني راق و فرجة أسلوبية لا تقل جاذبية و متعة عن أجناس أدبية أخرى. فهي تستعرض عوالم الذات في زحمة الأحداث

والتيارات الاجتماعية و السياسية و الدينية وما شابهها، و فيها يحدّد الكاتب موقفه ورأيه ومكانه في زحمة هذه الأحداث، وتلك التيارات، ومدى تفاعله معها إقبالا واستجابة وانسجاما، أو معارضة وتمردا، بحيث تكون شخصيته هي نقطة الارتكاز.

إنّ الكثير من العناوين لا يستجيب في الدلالة على جنسه ولا يجمع عناصر محددة تحيل إلى جنس النص بل نرى الكثير من العناوين و بعض العتبات النصية لا توجه المتلقي نحو فهم النص بقدر ما تلقي به في متاهات أجناسية متداخلة لا يكاد يخرج منها برأي أو تصور دقيق، فالعنوان و العتبات النصية مؤشر أولي للمتلقي على نحو أو اتجاه ما، بيد أن القراءة المتأنية للمتون قد تحيل على أجناس أخرى تختلف اختلافا كبيرا عن هذه المؤشرات .

في هذه الدراسة وقفة مع الذات العربية و هي تكتب كتابة يتطابق فيها الكاتب مع السارد مع الشخصية المحورية في جوّ نفسي مفعم بالصدق و البوح و الجرأة بعيدا عن أشكال التدسية السياسية و النفاق الاجتماعي . لقد قدمت عبر هذا البحث جملة من المتون الاعترافية التي تصدر في معظمها عن الألم و المكابدة سواء كانت نفسية أو روحية أو سياسية و قدّمتها في أغرب صورها و أصدقها أيضا و لعلّ هذا ما يكسبها طابع الحميمة الذي يمد جسور القرابة و الصداقة مع المتلقي بيد أنها في نفس الوقت في تنافر و قطيعة مستديمة مع أطراف سلطوية ، والسرّ في ذلك أن الكتاب والمبدعون على اختلاف مشاربهم و توجهاتهم هم مصمّموا قيم و منتجو أفكار وإيديولوجيات وصانعو سلطة معنوية من طراز خاص لها دلالتها و وزنها و هي لا تقل أهمية عن سلطة صناع القرار ، و لعلّ هذا التنافر بين السلطتين هو الذي

أفرز فضاءات تمردية جسدت الصراع الحقيقي و المرير بين السلطة الإبداعية أي سلطة النص و بين سلطة الحاكم الذي على الرغم من امتلاكه لأدوات القمع و وسائل الاضطهاد والتصفية المادية و المعنوية إلا أنه انكسر أمام سطوة القلم وتدنست صورته بفعل مداد الإبداع و التجربة الإنسانية الصادقة، هذه الصورة التي حاول عبر كل الوسائل أن يجعل منها صورة برّاقة خالدة عبر التاريخ غير أن أنامل الإبداع الصادق عرّت حقيقتها وكشفت سواتها ولم تترك لها مكانا لتستقر فيه غير سلة الإهمال و الإدانة التاريخية.

يتقاطع النص الاعترافي مع النص الرحلي و السير ذاتي و الروائي، لكن في سياق التجربة الاعترافية النمط الرحلي نمط رديف غير مقصود لذاته و إنما هو وسيلة للتعبير عن التجربة الروحية الخصبة، فالرحلة عبر القارات لدى الكتاب لم تكن بقصد السياحة والمتعة التي يطلبها الناس عادة من السفر حيث يصفون التضاريس و البلدان و مشاهد المدن و لكنّه تعبير عن رحلة الروح و سفرها المضماني بحثا عن الحقيقة المطلقة التي منها ينبثق اتخاذ موقف من الكون و الحياة و كذلك الذين صوّروا تجربة الهجرة السريّة والإقامة في أوروبا بطريقة غير شرعية، حيث رسموا مشاهد و لوحات فنية رائعة عن المدن و الأنهار و محطات المطرو لكنّها ممزوجة بمشاعر الخوف والإحباط، فالمكان معطى أساسي في تصوير حجم المعاناة بحثا عن لقمة العيش وفرارا من الفقر و الجوع وكذلك النص السير ذاتي، غير أن النص الاعترافي يجنح أكثر نحو استبطان الذات وكشف مكنونها بواسطة البوح و الجرأة و الصدق، و قد تصطدم هذه العناصر في كثير من الأحيان مع الآخر سواء بوصفه فردا معينا أو منظومة دينية و اجتماعية .

يمكن القول أيضا أن الإنسان بإمكانه إنتاج نصوص إبداعية خلّاقة تحت ظروف قاسية جدا و تحت سقف الحرية المنخفض ففي أشدّ الظروف قساوة و استبدادا تأكّدت الإرادة في الحياة و انتصر العقل على الجهل و حرية الرأي على الاستبداد و المعتقل على الجلاد و الإيمان على الإلحاد، فالنصوص الاعترافية صرخة إنسانية مدوية من مهامها اختراق أجواء التابوهات المحرّمة التي يشكل البعد في الخوض فيها بالحوار العقلي العلمي الجاد هيمنة لطقوس الوهم و ممارسة شائنة لإضلال البشر.

إنّ القول بعدم وجود كتابة اعترافية في الأدب العربي كما يرى بعض الدارسين هو قول جانِبٌ للحقيقة الموضوعية و التاريخية التي تفنّدها النصوص و التي تمّ الاستناد إليها في هذه الدراسة فقد كتب الكثير من المبدعين عن ذواتهم بشكل جوّاني استبطاني قديما و حديثا لكنهم جميعا لم يكونوا على علم مسبق أنّ ما دونوه يندرج ضمن الكتابة الاعترافية أو السيرة الذاتية فهذا المنجز من مهام الدراسات النقدية . فالكتابة الاعترافية في الأدب العربي الحديث ليست كتابة منبّئة، مبتورة الأصول، بل هي ممدودة الصّلة برافدين اثنين ، الرّافد التراثي العريق ممثلا في تجارب كثيرة نذكر منها التّجارب الروحية و التّفسية لأبي حامد الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال " و التجارب لعاطفية لابن حزم الأندلسي في كتابه " طوق الحمامة " و " صيد الخاطر " لابن الجوزي و "رسالة الصداقة و الصديق " لأبي حيان التوحيدي و " كتاب الاعتبار " لأسامة ابن منقذ وغيرهم كثير ثمّ الرافد الغربي حيث استلهم الكتاب الكثير من طرائق التعبير و كيفية عرض المضامين من المناخ الثقافي و من المنجز الاعترافي الغربي، كما يظهر ذلك في كتابات لويس عوض ، و أحمد فارس الشدياق و

مصطفى شعبان و غيرهم لكن مع وجود فوارق متعددة إذ تختلف في بواعثها و مقصدياتها عن الكتابة الغربية اختلافا جوهريا ،هو في عمقه اختلاف بين الثقافتين، الثقافة المسيحية و الثقافة العربية الإسلامية بمرجعياتها وسلمها القيمي. و أمّا القول بأن الكتابة عن الذات تتمركز في الثقافة الأوروبية دون سواها فوهم يرتكز على مقوّمات عرقية و نظرة استشراقية كولونيالية متعالية، فالنّوأة الأولى للكتابة الاعترافية التي يؤسس لها أغلبية الدارسين والنّقاد الغربيين و يتبعهم في ذلك الكثير من الدارسين العرب هي "اعترافات " القديس أوغسطين و معروف أنّ القديس لا يمت بصلة إلى أوربا فهو أمازيغي الأصل جزائري المولد و الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أنّه وُلِد في تغاست Thgast (سوق أهراس حاليا) في 13 نوفمبر 354 ومات في هييون Hippone (عُتّابة حاليا) و قد كان للمسيحية تأثيرٌ كبيرٌ جدًّا في حياته كما أنّه هو الآخر كان من أكثر الفلاسفة و المفكرين أثرًا في تطور المسيحية الغربية .

إنّ هذه الدراسة تندرج ضمن مشروع يهدف إلى إضفاء طابع الشرعية على هوية الكتابة عن الذات و إدماج الكتابة الاعترافية ضمن النصوص الإبداعية الخلاقة التي حرّيتُ بأن تحظى بالأهمية و الدراسة وأن تتبوأ المنزلة الفنيّة، ضمن سلم الهرم الإبداعي، كما هو الشأن في ثقافات أخرى. فالمعيار الذي يتحاكم إليه عالم التلقي هو حجم المادة الاعترافية وصدقها و مدى جرأتها و قدرتها على تعرية الذات غير أن هذا المستوى قد يصطدم بمعطيات الواقع السياسي و الديني و الأخلاقي، ولكن بصرف النّظر عن هذا المعيار، ثمة مستوى فني و إنساني يجعل الكتابة الاعترافية مرشحة أن تكون في مصاف الأعمال الفنية الراقية التي تتصدر طليعة الكتابة في مستقبل الثقافة العربية، محليا و عالميا

وهذا ضمن وسطية تنبع من شروطنا الحضارية و مرجعياتنا الثقافية إذ تلتزم خط الأدب و الإبداع بعيدا عن منطق الجمود و رفض الجديد و أيضا بعيدا عن حقل الفضيحة الذي لا يضيف للحياة و لا للإبداع شيئا و بعيدا كذلك عن الاستدراجات والممارسات التي تستند إلى مرجعيات مستعارة فتقتفي أثر الغير شبرا بشبرا، و ذراع بذراع، قلبا وقالبا فتفضي إلى استلاب فكري و ذوقي جمالي رهيب، من شأنه أن يهدد بقطيعة معرفية ووجدانية مع الذات ومحيطها و لا يتم الشعور بهذا المأزق الفني والأخلاقي و المرجعي تحت سطوة التقليد و سكرة الانبهار بالآخر .

المصادر و المراجع :

- ابن حزم الأندلسي- طوق الحمامة في الألفة و الآلاف - تحقيق فاروق سعد- منشورات دار مكتبة الحياة بيروت - طبعة 1972
- أبو حامد الغزالي - المنقذ من الضلال و الموصل إلى ذي العزة و الجلال . مجموعة الروائع الانسانية. الطبعة الثانية- بيروت 1969
- أبو حيان التوحيدي - الصداقة و الصديق - تحقيق: إبراهيم الكيلاني - دار الفكر المعاصر- لبنان - طبعة 1998
- إحسان عباس - غربة الرّاعي - دار الشروق للنشر و التوزيع - الأردن - الطبعة الأولى 2006
- إحسان عباس - فن السيرة- دار الشروق للنشر و التوزيع - الأردن - الطبعة الأولى 1996.
- أحلام واصل مسعد - مرايا الأبّ و السّلطة - دار أزمنة للنشر و التوزيع - الطبعة الأولى 2006
- أحمد بنطامه - فن السيرة الذاتية - علامات و أسس - منشورات ما بعد الحداثة - فاس الطبعة الأولى 2006
- أسامة بن منقذ - كتاب الاعتبار - حرّره فيليب حتى - مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة الأمريكية - 1930
- جلييلة الطريطر- مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي - مركز النشر الجامعي تونس - 2006
- رشيد نيني - يوميات مهاجر سرّي - منشورات عكاظ - المغرب - 2009
- زينب الغزالي - أيام من حياتي - دار الشروق - بيروت - الطبعة السادسة- 1984

- سهيل إدريس - ذكريات الحب و الأدب - دار الآداب - بيروت - الطبعة الأولى 2002
- شوقي ضيف- الترجمة الشخصية- دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية- (د.ت)
- عبد الحميد جوده السحار - هذه حياتي – مكتبة مصر للطباعة – الطبعة 1974
- عبد الرحمن بن خلدون- التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا- دار الكتاب اللبناني – طبعة 1979
- عبد العزيز شرف - أدب السيرة الذاتية- الشركة المصرية العالمية للنشر - (د.ت)
- عبد القادر الجنابي - تربية عبد القادر الجنابي - دار الجديد - الطبعة الأولى - 1995
- علي عبده بركات - اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية - مطبوعات تهامة - الطبعة الأولى - -1982-
- فاضل ثامر - المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي - دار المدى للثقافة والنشر - الطبعة الأولى - 2004
- فدوى طوقان- رحلة جبالية...رحلة صعبة-دار الشروق - المغرب - الطبعة الثالثة 2009
- فرج بيار قدار - خيانات اللّغة و الصّمت - تغريبي في السّجون السّورية- دار الجديد الطبعة الأولى - 2006
- لويس عوض - أوراق العمر ...سنوات التكوين - مكتبة مدبولي- (د.ت)
- ماهر حسن فهمي - السيرة تاريخ و فن - دار القلم - الكويت - الطبعة الثانية - 1983
- محمد الداوي - الحقيقة الملتبسة قراءة في أشكال الكتابة عن الذات - شركة النشر والتوزيع المدارس - الدار البيضاء - الطبعة الأولى 2007
- محمد الغزالي - المحاور الخمسة للقرآن الكريم - دار الهدى للطباعة و النشر - عين ميّلة - (د.ت).
- محمد حورّ - القبض على الجمر- تجربة السجن في الشعر المعاصر - المؤسسة العربية للدراسات و النشر- الطبعة الأولى 2004
- محمّد شكري - الخبز الحافي - دار الساقى - المغرب - الطبعة الثامنة - 2004

- محمد صابر عبيد - تمظهرات التشكل السير ذاتي "قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية" - دراسة - منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2005
- مرزاق بقطاش - دم الغزال - دار القصة للنشر - الجزائر - طبعة 2002
- مصطفى شعبان - أمواج الروح سيرة مهاجر سري في باريس - مطبعة تريفية - المغرب - الطبعة الثالثة 2002
- نوال السعداوي - مذكرات من سجن النساء - دار الآداب - مصر - 2000

الكتب المترجمة

- - تيتز رووكي - في طفولتي دراسة في السيرة العربية - ترجمة طلعت الشايب - الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. الطبعة 2002
- جان جاك روسو - اعترافات جان جاك روسو دون مترجم ت دار الكاتب العربي بيروت - لبنان - الطبعة الأولى نيسان 1968
- جورج ماي - السيرة الذاتية - تعريب محمد القاضي - عبد الله صولة - المؤسسة الوطنية للترجمة و التحقيق الدراسات - بيت الحكمة - تونس - 1992.
- فيليب لوجون - السيرة الذاتية - الميثاق و التاريخ الأدبي - ترجمة عمر حلي
- المركز الثقافي العربي - الطبعة الأولى - 1994.

الدوريات و المجالات

- مجلة الإحياء - العدد 15 - يناير 2000
- مجلة الموقف الأدبي - مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد 313 أيار "محرم" 1997
- مجلة الموقف الأدبي - مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق - العدد 404 كانون الأول 2004

المراجع الأجنبية

.La confession genre littéraire . maria zambrano
.Edition Jérôme million

المعاجم

محمد منظور - لسان العرب - دار الحديث القاهرة - الطبعة 2003 - الجزء السادس

- فهرست الموضوعات -

الصفحة	الموضوع
	إهداء
	شكر
.....	مقدمة
	أ
دخـل	م
.....	نظريّ
	1

الفصل الأوّل: الكتابة الاعترافية في الأدب العربي الحديث..... 12

المبحث الأوّل: ماهية الكتابة الاعترافية 13

- إشكالية المصطلح - التعريف اللّغوي - التعريف الاصطلاحي..... 13

- الحسّ التّاريخي و ثقافتة الاعتراف..... 23

- الكتابة الاعترافية في الأدب العربي: أصولها و روافدها..... 34

المبحث الثّاني: فضاءات الكتابة الاعترافية 53

- الفضاء الإنساني (مرحلة الطفولة) 54

- الفضاء الرّوحي..... 68

- الفضاء السّياسي و تجربة الاعتقال..... 84

الفصل الثّاني: الكتابة الاعترافية بواعثها و تمظهراتها 101

المبحث الأوّل: بواعث الكتابة الاعترافية: 102

- البواعث التّفسّية..... 102

- البواعث الاجتماعية 113

- البواعث السّياسية..... 125

المبحث الثّاني: تمظهرات الكتابة الاعترافية: 134

- السّيرة الدّاتية 135

.....الرّواية.....
145

الفصل الثالث: موقف الآخر من الكتابة

.....الاعترافية.....
154

المبحث الأول: - موقف المنظومة الاجتماعية و

الأخلاقية.....
155

المبحث الثاني: - الكتابة الاعترافية بين المنظور العربي و

المنظور الغربي.....
165

.....**خاتمة**.....

.....
173

ببليوغرافيا

.....**البّحث**.....

179

.....**الفهرست**.....

.....
183